Ein

دكتور عبد الحافظ عبد الخالق البنا



أسواق الشام فى عصر الحروب الصليبية

أسواق الشام فى عصر الحروب الصليبية

فى الفترة من ٥٩٥ / ٦٨٧هـ - ١٠٩٩ / ١٢٩١م

تأليف

د. عبد الحافظ عبد الخالق يوسف البنا

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . قاسم عبده قاسم

المدير التنفيذى :

شريف قاسم

مدير الانتاج :

جمال عابد

تصميم الغلاف : محمد أبوطالب

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693
E-mail : dar_Ein@hotmail.com
book ein @ yahoo.com

الموقع الالكترونى web site: WWW.Dar -Ein.com

إهـــداء

إلى أبى وأمى

طيبة الأرض ، وكرم النيل

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تعتبر فترة الوجود الصليبى فى المنطقة العربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد من الفترات الخصبة فى دراسة التاريخ الاقتصادى ويرجع ذلك إلى طبيعة المتغيرات التى حدثت نتيجة الاحتكاك المباشر بين المسلمين والصليبيين على المستوى السياسى والاقتصادى والإجتماعى، فقد تمخضت الحملة الصليبية الأولى عن قيام أربع إمارات صليبية فى الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس ، وعاش الصليبيون فى المناطق العربية التى احتلوها ما يقرب من قرنين من الزمان مارسوا حياتهم، وتأقلموا مع الظروف التى أحاطت بهم وخالطوا المسلمين وتأثروا بالعادات الشرقية من خلال الممارسات اليومية فى الحياة العامة وفى الأسواق .

وإذا كان التاريخ السياسى لهذه الفترة قد نال الحظ الأوفر من الدراسة فإن التاريخ الاقتصادى لهذه الفترة مازال فى حاجة إلى دراسة لسبر أغوار الحياة الاقتصادية التى عاشها الصليبيون وسط المحيط العربى الإسلامى ، ويمكن تعليل قلة الدراسات الاقتصادية إلى الجهد الفائق الذى تستلزمه مثل هذه الدراسات ، وأيضا لسبب ندرة المادة العلمية فى المصادر الأصلية.

وفى الحقيقة أن موضوع الأسواق الصليبية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى والثالث عشر من الموضوعات الهامة ذات الأهمية البالغة فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، وذلك لأن الأسواق مرآة صادقة تعكس جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى يعيشها أى مجتمع ولهذا نجد أن الأسواق الصليبية تكشف كثيرا عن الظروف التى عاشها الصليبيون فى المنطقة العربية ، كما تبرز طبيعة العلاقات بين المجتمع الصليبى والمجتمع الإسلامى، وأيضا تلقى الضوء على العديد من القضايا التجارية والمتغيرات التى حدثت فى منطقة الشرق العربى والغرب الأوربى نتيجة الوجود الصليبى، كما يتبلور أهمية الموضوع أيضا فى كشف حقيقة العلاقات بين الشرق العربى والغرب الأوربى، والتى كانت تحكمها عوامل ومصالح اقتصادية بحتة، بعيدا عن الدين.

ويمكن القول إن الدراسات الحديثة التى تناولت الموضوعات الاقتصادية كالأسواق فى الفترة الصليبية لازالت قليلة وتفتقر فى معظمها إلى العمق، وقد كتبها مؤرخون أوربيون ، ولم توجد دراسات مستقلة عن الأسواق الصليبية باللغة العربية ، ولهذا اخترت دراسة موضوع الأسواق فى المناطق الصليبية باللغة العربية، ولهذا اخترت دراسة موضوع الأسواق فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام فى الفترة من ١٠٩٩-١٢٩١م وذلك لأهميته للباحث العربى من حيث الوقوف على طبيعة الوجود الصليبى فى المنطقة العربية، واقتضى منهج البحث التاريخى، تقسيم الموضوع إلى أربعة فصول، وقد اتبعت منهجا علميًا قائما على الوصف والتحليل للحقائق التاريخية ، ولم تكتف الدراسة بعرض الحقائق التاريخية وإنما اتبعت منهج النقد والتحليل والتفسير فى محاولة لربط الأحداث التاريخية بقصد الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

واقتضت طبيعة دراسة هذا الموضوع أن ينقسم البحث إلى أربعة فصول تتلوها ، خاتمة ، تناولت فى الفصل الأول النشاط التجارى للصليبيين وتأثيره على أسواق بلاد الشام، وقد ألقيت الضوء على مقومات هذا النشاط التجارى من وجود الأحياء الإيطالية وتطورها التاريخى والدور الإيجابى والسلبى لهذه الجاليات، ثم النتائج التى ترتبت على وجود هذه الأحياء من تطور فى الصناعات والحرف التقليدية وفتح أسواق جديدة لهذه الصناعات التقليدية لبلاد الشام فى أوربا والشرق الأقصى ، وإبراز دور طرق التجارة الداخلية فى ازدهار النشاط التجارى فى بلاد الشام فى الفترة الصليبية، ثم أخيرا طبيعة العلاقات التجارية بين المسلمين والصليبيين، والتى حكمتها المصالح الاقتصادية للطرفين ، وقد نظمت هذه العلاقات بموجب بنود معاهدات وقعت بين الطرفين الإسلامى والصليبى.

وفى الفصل الثانى تناولت أسواق المدن العربية التى احتلها الصليبيين ، وألقيت الضوء على تخطيط المدن الغربية وشكل الأسواق، والإضافات التى أضافها الصليبيون لبنية المدن العربية التى احتلوها ثم تناولت فى هذا الفصل أيضا أسواق التقسيم النوعى للأسواق ومواعيد انعقادها وأسواق مدن بيت المقدس وعكا واللد والرملة والجليل ، ثم تناولت فى هذا الفصل أيضا النظم التجارية.

وجاء الفصل الثالث بعنوان الأسواق والنظم المالية، وقد تناولت الضرائب التجارية وأهمها ضرائب السواق ، ثم ضريبتى الصادر والوارد والسياسة الضرائبية على حركة الأسواق، ثم تناولت أنواع النقود المستخدمة فى هذه الأسواق والنشاط المالى والصيرفة للداوية فى الأسواق الصليبية.

وتناولت فى الفصل الرابع السلطة الإدارية وكيفية الإشراف على الأسواق وكذلك النظم واللوائح التى كانت تحكم السوق والتجار، واقتباس وظيفة المحتسب المسلم فى الإشراف العام على الأسواق، ثم شمل هذا الفصل أيضا المحاكم التى كانت مسئولة عن إدارة الحياة الاقتصادية فى المدينة وفى الأسواق بشكل خاص، وقد شملت هذه المحاكم المحكمة البرجوازية، ومحكمة الفندق أو السوق ومحكمة السلسلة.

وفى الخاتمة عرضت لأهم النتائج التى توصلت إليها من خلال فصول البحث كما ذيلت الرسالة بمجموعة من الملاحق المترجمة والخرائط والصور التوضيحية.

دراسة نقدية لأهم مصادر البحث والمراجع

اعتمد البحث على مجموعتين من المصادر هما : المصادر اللاتينية والمصادر العربية

أولا : مجموعة المصادر اللاتينية :

أ- الكتابات التاريخية :

وهى كتابات أبرز المؤرخين اللاتين المعاصرين الذين دونوا الحوادث التاريخية كشهود عيان، أو نقلوها عن المؤرخين السابقين، ويعتبر المؤرخ وليام الصورى William of Tyre من أبرز المؤرخين الصليبيين فى القرن الثانى عشر الميلادى، وقد عرض وليام الصورى فى مؤلفه المعروف باسم : تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار[1] A History of Deeds done beyond the Sea , 2 vols أحداث مملكة بيت المقدس الصليبية منذ عام ١٠٩٩م حتى عام ١١٨٤م، وعن أحوال الجاليات التجارية الإيطالية فى المدن الصليبية فى بلاد الشام، والعلاقات السياسية والاقتصادية التى قامت بين الإيطاليين كما دون هذا المؤرخ أهم المعاهدات الخاصة بالامتيازات التى منحها الحكام الصليبيون للتجار الإيطاليين فى المدن الصليبية.

ويلى مؤلف وليام الصورى فى الأهمية كتابات المؤرخ الصليبى يعقوب دى فيترى Jacques de Vitry الذى يعتبر مؤرخ مملكة بيت المقدس فى القرن الثالث عشر الميلادى، وكان دى فيترى أسقفا لمدينة عكا فى عام ١٢١٧م، ثم ارتقى السلم الكهنوتى حتى وصل إلى وظيفة بطريرك لمملكة بيت المقدس ، وقد أمدنا دى فيترى بمادة هامة فى مؤلفه «تاريخ بيت المقدس[2] .

وعلى الرغم من أنه قد أسهب فى سرد أحداث الحملة الصليبية الخامسة على مصر إلا أنه تناول أحوال الشرق العربى بصفة عامة مع الإشارة إلى مدنه وموانيه ، والنشاط التجارى بها ،

١- اعتمدت على الترجمة الإنجليزية للأصل اللاتينى.

William of Tyre , Hist . of Deeds. 2 vols, Trans. by E. Babook and A.C. Kery . New York . 1976 .

٢- اعتمدت على الترجمة الإنجليزية للأصل اللاتينى فى مجموعة :

Palestine Pilgrims Text Socity, cf. P.P.T.S., vol ., XI. London, 1896 .

كما ذكر دى فيترى أهم الزراعات والصناعات فى بلاد الشام فى الفترة الصليبية ، وكانت هذه المنتجات أهم السلع والمبضائع التى تطرح فى الأسواق، ويذكر أيضا التنافس المتجارى بين الجاليات الإيطالية ، وقد أفاد البحث فى كثير من جوانبه.

وتعتبر مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس المعروفة باسم(١) الآسيز والتى تقع فى مجلدين Assises des Jerusalem 2 Tome من المصادر الهامة التى أفادت البحث، فقد ذكرت هذه القوانين أنواع السلع الهامة ونسب الضرائب عليها ، كما ذكرت أيضا الأجهزة الإدارية التى كانت تشرف على الأسواق فى المناطق الصليبية، مما أفاد البحث فى جوانب كثيرة منه .

ويأتى كتاب متى البارسى المعروف باسم تاريخ انجلترا English History from the Year 1235 to 1237, Trans by the Rev.J.A. Giles, D.C.L 3 vols, London 1952, 4. فقد عمل متى البارسى مساعدا للملك روجر وندوفر فى فترة قصيرة قبل عام ١٢٣٦ ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ كتابة تاريخ انجلترا (٢)، وعلى أية حال فقد ذكر متى البارسى الكثير عن الأحوال الاقتصادية لمملكة بيت المقدس وخاصة فى القرن الثالث عشر الميلادى، وذكر الرواج التجارى الذى شهدته مدينة عكا فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى، وقد أفاد البحث من هذه المعلومات.

ب- كتابات الرحالة والحجاج اللاتين :

تعتبر كتابات المرحالة والحجاج الذين زاروا المناطق الصليبية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد من أهم مصادر البحث لما احتوت عليه من معلومات هامة تخدم فصول البحث، ويأتى الرحالة سايولف Saewulf من أبرز هؤلاء الرحالة الذين زاروا الأراضى المقدسة فى السنوات الأولى من عمر المملكة الصليبية. ومما يذكر أن سايولف إيطالى الأصل، وقد بدأ رحلته من مدينة مونتبلييه فى جنوب فرنسا ، فزار فلسطين بعد مجىء الصليبيين ببضع سنوات أى فيما بين عامى ١١٠٢-١١٠٣م، ٤٩٦هـ/ ٤٩٧هـ، وتحتوى الرحلة على وصف الكنائس والأديرة فى بيت المقدس، كما أشار إلى أهمية نهر الأردن،

١- اعتمدت على الترجمة الفرنسية القديمة للأصل اللاتينى فى مجموعة :

Recueil Des Historiens des Croisades, Paris 1883 .

2- Dahmas, J., Seven Medieval Historians, Chicago, 1982. p. 165 .

وذكر اتساع ميناء يافا ومدى صلاحيته للتجارة، كما ذكر كثرة المبانى والمنشآت ببيت المقدس، وقد تعرض سيولف لمتاعب جمة وهو فى الطريق من يافا إلى بيت المقدس من جراء قطاع الطرق، وقد أفاد البحث فى بعض جوانبه أيضا.

ويعتبر الرحالة الروسى الراهب دانيال Danial ضمن الرحالة الذين زاروا الأراضى المقدسة فى بلاد الشام فى الفترة الصليبية فى أوائل عهد الصليبيين ، وهو روسى الأصل وكان راهبا ورئيسا على بعض أديرة وطنه ، وكانت رحلته إلى مدينة القدس فى سنة ١١٠٦م / ١١٠٧م، وقام دانيال بزيارة فلسطين والأردن ، ومعظم مدن الشام، واهتم بزيارة الأديرة والكنائس، وتحتوى الرحلة على وصف مدينة القدس، ووصف الآثار المقدسة، كما تناولت الرحلة تفاصيل عن أحوال بلاد الشام تحت الحكم الصليبى، وقد ذكر معلومات أفادت البحث فأشار إلى اهتمام الصليبيين بالزراعة ، وأشار إلى مناطق الإنتاج الزراعى وبساتين الفاكهة، ومزارع قصب السكر، ولم يذكر أنواع العملات التى كانت متداولة فى الأسواق الصليبية ويرجع ذلك إلى كونه من رجال الدين، ومما يذكر أن دانيال دون مشاهداته فى رحلته المسماة Pilgrimage of the Russian Abbot Danial in the Holy land , Cf. P.P.T.S., vol Iv, London 1895. وأشار دانيال إلى بعض الصناعات الهامة فى المناطق الصليبية، كصناعة الرخام، وأشار أيضا إلى وصف الطرق المؤدية إلى المزارات المقدسة وإلى استخراج عسل النحل، كما تناول أخبارا عن التجارة فى مدينة نابلس، وعلى الرغم من أن وصف دانيال جاء مختصرا فإنه يعطى صورة عن الأحوال الاقتصادية فى مدينة القدس بعد استيلاء الصليبيين عليها وازدياد حركة التصدير، كما تدل كتاباته على أن الفرنج شجعوا التجارة الداخلية بين مدن الشام بعضها وبعض.

والرحالة فيتلس Fettelus كان رئيسا للشمامسة فى أنطاكية قام برحلة إلى الشرق ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م، وترجمت رحلته من الأصل اللاتينى إلى اللغة الإنجليزية ونشرت بمجموعة P.P.T.S. vol , VI, London, 1897 وتعرض فيتلس للتجارة والأسواق، وذكر سياسة الصليبيين التجارية فى بلاد الشام وحرصهم على السيطرة على المدن الواقعة على طرق التجارة، وتعمير هذه المدن وإصلاح موانيها من أجل استمرار النشاط التجارى، وقد وصف أسواق الصليبيين فى بلاد الشام، وذكر أن الصليبيين كانوا يقيمون أسواقهم على مقربة من الكنائس الكبرى ببيت المقدس لأنها مركز وملتقى الحجاج والزوار الوافدين إليها ، وأغفل فيتلوس جوانب كثيرة، فلم يذكر أنواع العملات أو ضرائب الأسواق .

ويعتبر الرحالة الألمانى يوحنا فورزبرج[1] John Wurzburg من الرحال البارزين الذين زاروا المناطق الصليبية فى بلاد الشام، فكان يوحنا يعمل كاهنا فى فورزبرج ، جاء لزيارة الأراضى المقدسة فيما بين (٥٥٦ / ٥٦٦هـ) (١١٦٠-١١٧٠م) ، وللرحلة أهميتها ، فقد ورد بها اهتمام الصليبيين ببعض الصناعات ، وخاصة صناعة زيت البلسم فى منطقة عين جدى[2] وأريحا وذكر يوحنا ما قام به الصليبيون من تشجيع التجارة مع المسلمين، وأما فيما يتعلق بالأسواق، فقد تعرض يوحنا للحديث عن الأسواق فذكر سوق الميدان، كما ذكر السلع المتبادلة بين مدن الشام، ولم يشر يوحنا إلى أنواع العملات التى كانت متداولة بين الشرق العربى والغرب الأوربى، أو ضرائب الأسواق .

ويأتى الرحالة الألمانى ثيودوريتش[3] Theoderich أيضا ضمن الرحالة الذين زاروا بلاد الشام فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى، والرحالة ثيدوريتش ألمانى الأصل ، وقد ورد ذكره فى سجلات فورزبيرج فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى، وقد أوضحت مقدمة فورزبرج أن ثيودرويتش قد أصبح أسقفا لمقاطعة فورزبرج فى عام ١١٢٣م، وعلى أية حال فقد قام بزيارة الأماكن المقدسة فى عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، وأفادت الرحلة البحث كثيرا، وذلك خلال ما ذكره عن اهتمام الصليبيين بالزراعة والصناعة فى بلاد الشام كما أشار إلى بعض الصناعات المميزة وخاصة صناعة السكر وصناعة السفن والزجاج . ومن المعلومات التى أفادت البحث ما ذكره عن التجارة والأسواق فقد ذكر أن التجار الصليبيين كانت لهم محلات خاصة بهم فى أسواق بيت المقدس لبيع كافة أنواع المأكولات المطهية والملابس كما كانت لهم مستودعاتهم وكذلك أشار إلى اهتمام الملوك الصليبيين بتأمين التجار والحجاج وحمايتهم فذكر أن الحكام الصليبيين أسندوا للداوية مهمة حماية الطرق التجارية، ويلاحظ على ثيودريتش أنه أسهب فى وصف كنائس بيت المقدس ، ووصف أحوال مدينة القدس وأغفل بعض الجوانب الهامة التى كانت هامة للبحث وخاصة الضرائب ، وصناعة المنسوجات.

١- اعتمدت على الترجمة الإنجليزية للأصل اللاتينى فى مجموعة.

P.P.T.S., vol ., V, London , 1896 .

٢- عين جدى : تقع على الشاطىء الغربى من البحر الميت قرب مدينة أريحا أنظر

(Wurzburg, Description of the Holy land .

٣- اعتمدت على الترجمة الإنجليزية فى الأصل اللاتينى فى مجموعة :

Places, Cf. P.P.T.S. vol, V London , 1896 .

والحاج المجهول Anonymous Pilgrim ، على المرغم من أننا لانعرف الكثير عن حياته ، إلا أنه زار الشرق فى عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، ونشرت رحلته بمجموعة P.P.T.S. vol, VI, London, 1897 واهتم الرحالة بفلسطين وتحدث عن ثمارها ومزاراتها المقدسة، وتعرض الرحالة المجهول للحديث عن التجارة، فقد ذكر الإعفاءات والامتيازات التى منحها الحكام الصليبيون لأبناء الجاليات الإيطالية ، كما أشار إلى ازدياد ثروات الداوية والاسبتارية نتيجة نشاطهم التجارى.

والرحالة جونز فوقاس[٢] Joanns Phocas وهو راهب كريتى عمل فى خدمة الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين Manual Comenus (٥٣٨-٥٧٦هـ/ ١١٤٣-١١٨٠م) وقد زار الشرق سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، واهتم بزيارة الأديرة اللاتينية وذكر أيضا أهم الموانىء التجارية فى بلاد الشام وخاصة ميناء بيروت، كما ذكر النشاط التجارى فى صور وأنطاكية .

و الرحالة بنيامين التطلى الذى قام برحلة إلى الشرق فى عام (٥٦١هـ-٥٦٩هـ / ١١٦٠-١١٧٣م) ، فزار بلاد الشام فى الفترة الصليبية ودون ملاحظاته فى رحلته المسماة «رحلات بنيامين التطيلى» The Oriental travels of Rabbi Benjamin of Tudel (1160-1173) وقد اعتمدت على الترجمة الإنجليزية والترجمة العربية عن العبرية، وتحتوى الرحلة على معلومات هامة عن أحوال اليهود فى كل مدينة زارها وأحصى عددهم، كما تضمنت الرحلة مادة هامة عن أحوال العالم بصفة عامة وعن العالم الإسلامى بصفة خاصة ، بالإضافة إلى اهتمامه بالشئون الاقتصادية والأحوال التجارية للمدن التى زارها ، وقد أشار هذا الرحالة إلى ازدهار صناعة الزجاج فى مدينة صور وذكر أن اليهود احتكروا هذه الصناعة، كما أشار إلى اهتمام الملوك الصليبيين بالصناعات المختلفة، كما ذكر بنيامين أسواق بلاد الشام، والامتيازات التى حصلت عليها المدن الإيطالية فى بلاد الشام نظير مشاركتهم فى الحروب الصليبية، وقد أمدتنا الرحلة بمعلومات تدل على أن الصليبيين شجعوا على الاستمرار فى زراعة السكر والكروم وغيرها من المحاصيل لأهميتها الصناعية والتجارية ، وما كانت تدره من عائد كبير على المملكة الصليبية.

١- اعتمدت على الترجمة الإنجليزية للأصل اللاتينى فى مجموعة :

P.P.T.S, vol , V, London , 1896 .

ويعتبر الرحالة الألمانى بوركارد Burchard من أبرز الذين زاروا بلاد الشام ومصر فى عام ١٢٨٠م، وأقام عشر سنوات فى جبل صهيون فى فلسطين ، وألف كتاب وصف الأراضى المقدسة[١] Adescription of the Holy Land . وقد أمدنا هذا الرحالة بمعلومات قيمة عن ثروات المدن الشامية والمصرية التى كانت موضع اهتمام التجار الإيطاليين والتى ساعدت على ازدهار النشاط التجارى بها ، كما تحدث عن أهم الصناعات فى المدن الصليبية وخاصة صناعة السكر والزجاج والمنسوجات وغيرها ، كما تحدث عن أحوال التجار الإيطاليين فى الأحياء الخاصة بهم فى المدن الصليبية وقد أشار إلى تخطيط الأسواق وشكلها فى المدن الصليبية وإلى ظاهرة الشوارع المسقوفة والتى كانت مألوفة فى بلاد الشام فى هذه الفترة. كما ذكر تخطيط وشكل مدينة القدس من بوابات وشوارع وكنائس ومما يؤخذ على بوركارد أنه أغفل ذكر أنواع الضرائب ، ويمكن تعليل ذلك فى ضوء حقيقة أن بوركارد كان من رجال الدين ، وبالرغم من هذا فقد أفاد البحث.

ومن الرحالة المتأخرين يأتى لودولف سوكيم Ludolph von Suchem وقد وردت رحلته فى مجموعة P.P.T.S. vol , XII, London 1895 وكان لودولف قسيسا فى كنيسة سوكيم التابعة لأسقفية باديتون بألمانيا ، وزار الشرق وسجل مشاهداته فى الأراضى المقدسة فى رحلته المعروفة باسم وصف الأرض المقدسة Description of the Holy Land ، وترجع أهمية الرحلة إلى أنها خدمت جانبا كبيرا من هذا البحث، ومن المعلومات الهامة التى أفادت البحث ما أشار إليه لودولف إلى صناعة زيت البلسم وتصديره إلى الغرب الأوربى> وذكر لودولف صناعة الزجاج فى بلاد الشام. ومن المعلومات التى أفادت البحث وصفه لأسواق بلاد الشام، وخاصة أسواق عكا ، إذ ذكر أن كل سلعة من السلع كان لها سوق خاص بها ، وأن أسواق عكا كانت مظللة بالحرير، مما يدل على ازدهار النشاط التجارى فى المدينة فى الفترة الصليبية ، كما ذكر تنوع السلع فى الأسواق الصليبية. كما أشار إلى سلطة القنصل فى الشرق اللاتينى وواجباته فى حماية مصالح الجاليات التجارية فى البلاد التى يقيمون فيها ، وقد أغفل لودولف الضرائب التى فرضها الحكام الصليبيون على التجارة، كما لم يشر إلى صناعة السكر أو العملات المتداولة فى المناطق الصليبية ورغم ذلك فإن كتاباته خدمت الجوانب الاقتصادية وخاصة التجارة فى بلاد المشام عصر الحروب الصليبية، وكشفت عن حقيقة المعلاقات التجارية بين المسلمين والصليبيين فى ذلك الوقت .

١- اعتمدت على الترجمة الإنجليزية للأصل اللاتينى فى مجموعة :

P.P.T. S. vol, XI, London , 1896 .

ومن الرحالة المتأخرين أيضا فيلكس فابرى Filix Fabri والذى ألف كتابا عرف باسم الرحال The Book of Wandering Visit to the Holy Places and Egypt P.P.T.S. vol , IX,X, London , 1897 وكان فيلكس فابرى واحدا من أفراد جماعة الدومنيكان قام بزيارة الأراضى المقدسة مرتين وقد ذكر فابرى أسواق مدينة القدس وأنواع السلع والبضائع، كما وصف طريقة البيع والشراء فى أسواق مدينة القدس وفى أسواق مدينة اللد والرملة ، وقد أفاد البحث فى جوانب كثيرة منه هذا بالإضافة إلى رحلة أخرى هى رحلة بروكيير Proquiere الذى زار بلاد الشام فى القرن الخامس عشر الميلادى / ٩هـ. وقد وردت رحلة بروكيير فى Wrigh, T., Early travel in Palestine , London , 1884, pp. 288-388.

وذكر هذا الرحالة أنواع العملات الأجنبية المتداولة فى أسواق بلاد الشام

واعتمد البحث أيضا على عدد من المراجع الأجنبية المتخصصة أهمها كتاب مملكة بيت المقدس اللاتينية The latin Kingdom of Jerusalem للبروفيسور يوشع براور ، وقد ذكر فيه فصلا كاملا عن الأسواق والضرائب التجارية والميناء ، فى المملكة الصليبية ، وأيضا كتاب الحروب الصليبية The Crusades للبروفيسور ماير Mayer والذى تناول فيه المؤلف دراسة عن الأوضاع الاقتصادية فى المملكة الصليبية، وكذلك رايلى سميث Smuth فى كتابه النظام الإقطاعى فى المملكة الصليبية The Feudal Nobility and the Latin kingdom والذى خدم البحث فى جوانب عديدة ، والمؤرخ الاقتصادى الشهير برن Byrne فى مجموعة الدراسات الاقتصادية التى نشرت والتى أفادت البحث كثيرا وكتاب المؤرخ بنفنستى Ben-venist المعروف باسم الصليبيين فى الأرض المقدسة The Crusaders in the Goly land والذى تناول فيه فصلا عن الأسواق والميناء وقد أفاد البحث فى مواضع كثيرة ، وكتاب المؤرخ سميل Smail المعروف باسم الصليبيون فى الأراضى المقدسه The Crusaders in the Holy land وغيرهم ومجموعة الدراسات المتخصصة التى نشرت فى مجموعة Setton المجلد الرابع والخامس.

ومن المصادر العربية التى اعتمدت عليها البحث فى جوانب كثيرة «رحلة ابن جبير المعروفة باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» ويعتبر كتاب ابن جبير وثيقة تاريخية ذات أهمية فائقة فى إلقاء الضوء على النواحى التجارية والأسواق فى بلاد الشام فى الفترة الصليبية، فقد ذكر وصفا لأسواق بلاد الشام، كما ذكر أنواع الضرائب التى كان يدفعها التجار المسلمون

فى الأسواق الصليبية كما أوضح اجراءات الديوان أو الفندق وامتدح حسن معاملة الحكام الصليبيين للتجار المسلمين.

ومن المصادر العربية الهامة أيضا ما كتبه أسامه بن منقذ ، الذى ترك لنا وصفا لحياته الخاصة والعامة فى مذكرات دونها فى كتابه «الاعتبار» الذى يعد من أوثق الكتب التى تصور أحوال العالم الإسلامى فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى، وذكر ابن منقذ استمرارية العلاقات التجارية بين المسلمين والصليبيين، كما ذكر طرق البيع والشراء فى الأسواق الصليبية مما أفاد البحث.

واعتمد البحث أيضا على مصادر عربية أخرى أهمها كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للأدريسى والذى أوضح طرق التجارة الداخلية فى بلاد الشام، وكذلك كتاب تقويم البلدان لأبى الفدا ، ورحلة ابن بطوطة ، وناصر خسرو فى كتابه الشهير سفر نامه كما اعتمد البحث أيضا على مصادر إسلامية أخرى مثل كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، وكتاب مفرج الكروب لابن واصل، وكتاب الروضتين لأبى شامة، وسيرة صلاح الدين لبهاء الدين بن شداد ، وقوانين الدواوين لابن مماتى، ومعالم القربة فى معالم الحسبه لابن الاخوة والأحكام السلطانية للماوردى وكتاب الحسبة للشيزرى كما اعتمد البحث أيضا على كتاب السلوك للمقريزى، وكتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى، وبدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس، ومرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لابن الجوزى وغيرهم من المصادر العربية الأخرى.

الفصل الأول

النشاط التجارى للصليبيين وتأثيره على أسواق بلاد الشام

- المقدمة - إنشاء الأحياء الإيطالية فى المدن الساحلية التى استولى عليها الصليبيون وتطورها التاريخى حتى نهاية الوجود الصليبى - فتح أسواق جديدة أمام منتجات بلاد الشام التقليدية، وازدهار حرف وصناعات معينة- طرق التجارة الداخلية ومراكزها فى بلاد الشام ، وتأثرها بالدور التجارى للكومونات الإيطالية ، وبالوجود الصليبى عموما- حرص المسلمين والصليبيين على تأمين التجارة فى بلاد الشام ، وجهودها فى هذا المجال - الخاتمة

ارتكز الوضع الاقتصادى لمملكة بيت المقدس الصليبية فى المقام الأول على دعامة أساسية هامة هى التجارة، لذا حرص الملوك الصليبيون الأوائل على تطوير التجارة والاهتمام بها، لكى تصل إلى وضع جديد، وبذلوا جهودا ضخمة فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، ولكن هذه الجهود لم تستمر طويلا، فقد أصبحت غير مثمرة ، ولاسيما إبان فترة الضعف السياسى التى مرت بها المملكة الصليبية.

وعلى أية حال ، فإن ثمة عوامل ساعدت الحكام الصليبيين على تنشيط التجارة فى المناطق التى احتلوها فى بلاد الشام إبان فترة الاستقرار السياسى ، ومن أبرز هذه العوامل ، الوجود الإيطالى فى المدن الساحلية ، الأمر الذى أدى إلى تنشيط التجارة ، وفتح أسواق جديدة لمنتجات المستعمرات الصليبية فى بلاد الشام، ليس فى بلاد الشام فقط ولكن فى مناطق عديدة من العالم، وخاصة أوربا، وكان لتوافر طرق التجارة الداخلية فى بلاد الشام دور هام فى تنشيط التجارة فى المناطق الصليبية كما كان للعلاقات التجارية المستمرة بين المسلمين والصليبيين أثر كبير فى إحداث مثل هذا النشاط التجارى، وهكذا ساهمت هذه العوامل جميعا فى اعطاء دفعة جديدة لتجارة المستعمرات الصليبية ليس بلاد الشام فقط، ولكن فى

مناطق عديدة من العالم، وخاصة أوربا، ومنطقة الشرق الأقصى[١]، وقد أثرت هذه الحركة التجارية النشطة على أسواق بلاد الشام جميعا.

لقد ارتبطت قصة استطيان أبناء المدن التجارية الإيطالية (جنوا، بيزا، البندقية) فى المدن التى استولى عليها الصليبيون فى بلاد الشام، بالامتيازات التجارية والإقليمية وغيرها من الامتيازات الأخرى التى منحها لهم الملوك والأمراء الصليبيون مقابل المساعدات الحربية والمالية التى قدمتها هذه المدن للكيان الصليبى خلال صراعه مع المسلمين، وقد ساهمت هذه المساعدات الإيطالية فى توطيد الوجود الصليبى فى منطقة الشرق العربى الإسلامى واعتمد التطور التاريخى للمستوطنات الإيطالية على الامتيازات التجارية والإقليمية كما اعتمد على الظروف السياسية والاقتصادية للصليبيين، وكذلك على العلاقات التى قامت بين المستوطنين الإيطاليين فى المدن الصليبية.

وعلى أية حال فقد تدفق التجار الإيطاليون إلى منطقة الشرق العربى حيث استقروا فى الأحياء التى خصصت لهم فى المدن الساحلية، وكونوا لأنفسهم جاليات فى هذه الأحياء، وقد تمتعت هذه الجاليات بالاستقلال السياسى والاقتصادى والقضائى فى قلب المجتمع الصليبى، فكانت بمثابة «شكل من أشكال الكوميونات فيما وراء البحار»[٢]، فقد كفلت المعاهدات المبرمة بين الكوميونات[٣] الإيطالية وبين الحكام الصليبيين منذ الفترة الباكرة من الوجود

1- Rey , Les Colonies Franques De syrie Aux XII ME et XIII Siecles, Paris, 1883, pp. 189-190 .

2- Rey , Op. cit., p. 69 .

٣- الكوميونات : أصلها اللاتينى Communitas وحتى نهاية القرن الحادى عشر كانت تعنى مجموعات رجال الكنيسة مثل جماعات القانونيين الكنسيين، وفى القرن الحادى عشر أيضا كانت تشير إلى جماعات الحفاظ على «سلام الرب» التى كان أعضاؤها من رجال الكنيسة والنبلاء والبورجوازيين يقسمون على الاخلاص لمواد السلام، وفى أواخر القرن ١١، ١٢ أصبح المصطلح يطلق على الكنسيين والاقطاعيين فى سبيل الحصول على الحكم الذاتى داخل المدن وخلال القرن الثانى عشر اعتادت مثل هذه الجماعات شراء اعتراف الملك بامتيازات المدن وموافقته على الحكم الذاتى بها عن طريق المال أو المعاهدات وبذلك كانت تعتمد علية مباشرة، والفرق بين الكوميون والمدن الأخرى ذات الامتيازات لاتكمن فى طبيعة الامتيازات الممنوحة ولكن فى مدى صلابتها، فقد كان الكوميون Communio Jurata أى قائم على القسم والإيمان التى تلزم كل عضو من أعضائها بالولاء للكوميون .

الصليبى ، حرية الإقامة فى الأحياء الخاصة بهم فى الموانىء الصليبية وحرية ممارسة التجارة فى هذه الموانىء وحق امتلاك أسواق خاصة بهم [١] ، وذلك فى المدن التى استولى عليها الصليبيون فى بلاد الشام بمساعدة هذه الكوميونات، وهكذا حاز كل من البنادقة والجنويين شوارع فى بيت المقدس ذاتها ، وكفلت المعاهدات للجنوين إقامة منشآت فى يافا وعكا ، وقيسارية وأرسوف وبيروت وطرابلس وجبيل، واللاذقية ، والسويدية ، وأنطاكية ، بينما اقتصرت مؤسسات البنادقة على المدن الكبيرة ، ونزلت جاليات بيزا فى صور وعكا وطرابلس والبترون، واللاذقية ، وانطاكية ، وحل الأمالفيون فى عكا واللاذقية، ومما يذكر أن المستعمرات التجارية الإيطالية فى كل المدن الصليبية باستثناء عكا ، لم يتجاوز عدد أفراد الواحدة منها بضع مئات من الأشخاص[٢] .

وإذا كانت فترة السنوات العشرين الأولى من تاريخ المملكة الصليبية قد شهدت الخطوات الأولى للاستيطان الإيطالى فى المدن الشامية التى احتلها الصليبيون، فإن البداية الحقيقية لهذا الاستيطان ترتبط أساسا بمعاهدة عام ٥١٩هـ/ ١١٢٣م التى أبرمت بين كوميون البندقية وبين الحكام الصليبيين والتى وضعت الخطوط العريضة للاستيطان فقد منح البنادقة بمقتضى هذه المعاهدة حيا تجاريا بكامل مرافقة فى مدينة صور، وفى كل مدينة يتم استيلاء الصليبيين عليها

= راجع :

C. Petitt. Dutaillis, Les Communes Francaises au Moyoa Agee, (1948) .

J.M. Tait, Borough and Town, (1935).

1- William of Tyre , A history of Deeds Done Beyond the Sea, Eng. by Emile Atwater Babcock and A.C. Kery. New York , 1976. vol , I, pp. 454-56 ; Smith- Riley, The Feudal Nobility and The latin Kingdom , (1174-1277) London, 1973, p. 67 .

٢- ستيفان رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، (ترجمة د. السيد الباز العرينى ط٢، بيروت ١٩٨٢) ، ص٤٧٠-٤٧١ .

Cander, The Latin kingdom of Jerusalem, (1099-1291), London , 1897, 208; Byrne , "The Geneese Colonies in Syria " CF The Crusades and Other Historical Essays, (ed.) by Louis, J. Baeton , New York , 1968, 142 .

بمساعدة البنادقة (١)، وقد أشارت هذه المعاهدة فى بنودها إلى الشكل الجديد لحياة الكوميانات «فيما وراء البحار» فلم تمنح هذه المعاهدة الامتيازات التجارية ، وثلث مدينة صور للبنادقة فقط ، بل أعطتهم نوعا من حق الحكم الذاتى فى هذه الأحياء، والتى كانت تمثل دولة داخل دولة، وفى عام ٥١٨هـ/ ١١٢٥م أثناء فترة حكم الملك بلدوين الثانى، ثم الاتفاق بين البنادقة وبين السلطة الملكية على التزامات وشروط متبادلة بين الكوميون والمملكة الصليبية، منها أن يقدم البنادقة ثلاثة فرسان لخدمة الملك، وبموجب هذه المعاهدة أيضا منح البنادقة حق الفصل فى القضايا التى تنشب بين سكان ثلث مدينة صور، بما فيه من بنادقة وغير بنادقة والسلطة الكاملة على ثلث المدينة فى الحى البندقى (٢)، كما منحت هذه المعاهدة البنادقة فى بيت المقدس حيا كاملا بمرافقة من فرن وحمام وسوق وطاحونة، بالإضافة إلى حرية استخدام الموازين والمكاييل الخاصة بهم والتى استعملوها بحرية مطلقة فى معاملاتهم التجارية(٣).

وعلى الرغم من الامتيازات التى منحت للإيطاليين فى المدن الداخلية ، مثل بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى، فإنهم فضلوا الاقامة فى المدن الساحلية، إذ أدرك الإيطاليون عدم جدوى الإقامة فى المدن الداخلية، مثل مدينة بيت المقدس لأن مصالحهم التجارية كانت تتركز أساسا فى الموانىء حيث كانت ترد إليها السفن لكى تنقل البضائع والسلع التصديرية إلى أوربا، ولذا تركزت الجاليات الإيطالية فى موانىء قليلة فقط ذات أهمية تجارية ، وفشلت محاولات الملوك والأمراء الصليبيون عن طريق المنح والامتيازات ، فى جذب الإيطاليين للاستيطان فى مدينة المقدس.

وهكذا وجد الإيطاليون بخبرتهم أن المناطق الساحلية هى التى ينبغى توسيع أحيائهم بها، والبعد عن المناطق الداخلية مثل بيت المقدس، وطبرية ، ونابلس ، بالرغم من حصولهم على

1- William of Tyre, Op. cit., vol, I, pp. 552-56 .

2- Rey , Les Colonies Franques. p. 192 Prawer "Social Classes in The Latin Kingdom : The Franks, CF. Setton, vol, V, p. 390 .

3- Prawer, "Social Classes"., p. 175; Idem , The Latin kingdom of Jerusalem ., London , 1973, p. 87 .

امتيازات فى هذه المدن، وتركزت إقامة التجار الإيطاليين فى المدن التجارية الهامة الواقعة على ساحل البحر المتوسط مثل أنطاكية، وطرابلس ، وصور ، وعكا وكانت لهذه المدن السيادة التجارية بفضل وجود هذه الجاليات فقد اعتمد اقتصاديات هذه المدن على النشاط التجارى للإيطاليين بها[١] .

ولاشك أن التطور التاريخى للاحياء الإيطالية فى المدن الصليبية قد مر بمراحل متعددة خلال فترة الوجود الصليبى، فلم تنشأ المستوطنات الإيطالية بعد الغزو مباشرة ، إذ لم يستقر هناك سوى عدد قليل جداً من التجار فى أوطانهم فى جنوا ، أو بيزا ، أو البندقية ، ولكن نواة النشاط الإدارى من الموظفين الذين تم إرسالهم من المدن الإيطالية لحماية حقوقها وامتيازاتها ، أصبحت شكلا ثابتا منذ ذلك الحين، حيث كانت بمثابة موضع للقدم[٢].

ومن المعروف أن الموانىء الصليبية فى بلاد الشام كانت بمثابة محطات توقف لرحلات التجار الإيطاليين العديدة، وتطلبت الضرورة التجارية إطالة مدة توقف السفن الإيطالية فى هذه الموانىء لشحنها بالبضائع ، وتزويدها بالمؤن، فقد كان الجنوية يشحنون سفنهم لتمخر عباب البحر من أوربا إلى الموانىء الصليبية فى بلاد الشام فى شهر سبتمبر فتصل إليها قبل عيد الميلاد ، وعادة ما كانت تستغرق الرحلة عدة شهور حتى عيد الفصح ، وكانت أعمالهم التجارية فى هذه الموانىء تستغرق من خمسة عشر يوما إلى ثلاثين يوما ، فى أعمال البيع والشراء واستطاع التجار الإيطاليون الذين كانوا يستقرون فى الشرق مدة الشتاء من ديسمبر حتى أبريل، أن يكونوا المستعمرات الإيطالية الباكرة فى الشرق[٣]. وشيئا فشيئا ازداد تدفق أعداد كبيرة من التجار الإيطاليين إلى المدن الصليبية وأخذت إقامتهم شكل الإقامة الدائمة ، وخاصة بعد أن ازدهرت الأعمال التجارية فى الربع الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى وتحول السوق الموسمى إلى سوق دائم ، ولاسيما بعد أن أعطى الصليبيون للبنادقة امتيازاً

1- Prawer, "Social Classes", p. 175 .

٢- يوشع براور : عالم الصليبيين (ترجمة د. قاسم عبده قاسم، د. محمد خليفة حسن ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١م) ص١٥٨، ١٥٩ .

3- Rey , Les ColoniesFranques., p. 192; Prawer " Social Classes p. 175 .

بامتلاك ثلث مدينة صور بعد سقوطها فى عام ٥٠٩هـ / ١١٢٤م ، وكان هؤلاء المستوطنون عبارة عن قادة البحر وتجار، وبحارة، وعمل هؤلاء المستوطنون فى البحر كملاحين وعملوا بالتجارة وتغيير العملات كصيارف ، وقاموا أيضا بأعمال التصدير والاستيراد كما عمل بعضهم فى أعمال القرصنة متى سنحت الظروف ، وهكذا شهد الربع الأول من القرن الثانى عشر الميلادى تحولا من الاقامة المؤقتة للإيطاليين فى المدن الصليبية ، إلى الإقامة الدائمة ، حيث ساعدت الظروف المستقرة للملكة الصليبية على انتعاش التجارة ونمو مستعمرات التجار[١].

لقد انتظم التجار الإيطاليون فى الذهاب إلى الشرق، وهم يعلمون مقدما أنهم سوف يمكثون هناك من ثلاثة إلى خمسة شهور ولذا كان بعض هؤلاء التجار يحضرون بصحبتهم زوجاتهم وأطفالهم، وقد أغرتهم وسائل الكسب المتوفرة فى هذه المناطق على الاستقرار ، وقد أظهرت العقود التجارية الجنوية والبندقية أسماء بعض الأشخاص الذين استقروا فى الشرق وكانت هذه الأسماء تحمل نسب العائلة أو المدينة، كما هى العادة فى الشرق فنجد مثلا أسماء برتراند الشامى، ويوحنا الطرابلسى، وجون العكاوى، ويونفسال الأنطاكى ، كما تضمنت افتتاحيات العقود التجارية فقرات تشير إلى استقرار الإيطاليين مثل فقرة «رذا مكثت فيما وراء البحار» أو «جنوية جبيل» وهذه الأمثلة تعكس حقيقة أن الكوميونات الإيطالية قد دخلت مرحلة جديدة فى القرن الثانى عشر الميلادى، فلم يعد التجار من المقيمين بصفة مؤقتة ، بل أصبحوا تجاراً مستقرين بصفة دائمة فى المدن الصليبية تابعين للمدينة الأم. لقد عاشت ثلاثة أجيال من الإيطاليون فى الأحياء المخصصة لهم فى المدن الصليبية الساحلية ، وبعد فتح صلاح الدين الأيوبى مدينة القدس ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م أصبحت مدينة عكا العاصمة السياسية والتجارية للملكة الصليبية وأصبحت محطة رئيسية للحجاج المسيحيين [٢]، ومركزاً هاما للجاليات الإيطالية ونشاطاتها التجارية ، وقد أشار الرحالة الأجانب الذين زاروا المناطق الصليبية إلى أهمية مدينة عكا وازدهار النشاط التجارى بها[٣]. ولذا تدفقت إليها جموع كبيرة من

1- Prawer, "Social Classes". p. 180 .

2- Anonymous, The City of Jerusalem ., CF. P.P.F.T.S. vol VI, London , 1896, p. 73 .

3- Theoderich, Description of The Holy Places, CF. P.P.T.S, vol. V, Londn 1896, pp. 59-60 .

الإيطاليين واستقروا فى الأماكن التى خصصت لهم وشكلوا فيها جاليات غنية ولاسيما بعد أحداث الحملة الصليبية الثالثة التى نجحت فى الاستيلاء على عكا فى عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م[١].

لقد أصبحت مدينة عكا أواخر القرن الثانى عشر وطوال القرن الثالث عشر من الميلاد ، المركز الرئيسى للأحياء الإيطالية ، ، واتسعت هذه الأحياء بفضل الامتيازات السخية التى منحها الحكام الصليبيون للإيطاليين إبان فترة الضعف الصليبى، وازدياد النفوذ السياسى والاقتصادى لهذه الجاليات ولاسيما البنادقة والجنوية والبيازنة وتزايدت فرص تأسيس المراكز التجارية فى أحياء الإيطاليين فى عكا وصور وأنطاكية[٢].

وقد شكلت الأحياء الإيطالية فى عكا ما يشبه نصف دائرة حول الميناء، فكان الحى المخصص للبنادقة يقع بالقرب من الميناء على امتداد الشاطىء الخارجى ، وكان شارع السلسلة يفصل الحى البندقى عن البحر ، ومما يذكر أن البنادقة قد استقروا فى عكا لأول مرة عام ٥٠٦هـ/ ١١١٠م، واتسع الحى البندقى فى المدينة بموجب المعاهدة التى عقدت بين البنادقة وبين الحكام الصليبيين فى عام ١١٢٣م [٣]. وكان الحى المخصص للجنوية فى عكا أقرب إلى وسط المدينة على الرغم من أن الحى الجنوى من أقدم الأحياء الإيطالية فى المدينة إذا حصل الجنوية على حق لهم فى عكا مقابل اشتراكهم مع الصليبيين فى احتلالها فى عام ٥٠٠هـ/ ١١٠٤م[٤]. وكان الحى الجنوى فى عكا يحده من جهة الغرب حى الداوية ومن الجنوب إلى البيزى، ومن الشرق منطقة الميناء وفى الشمال حى الاسبتارية [٥]. أما الحى البيزى فكان

1- Ludolph von suchem, Description of The Holy land and way Thiter (A.D.1350) CF. P.P.T.S, vol, XII, London , 1895, p. 53 .

2- Conder, The Latin Kingdom ., p. 208; Prawer, , " Social Classes"., p. 180 .

3- William of Tyre, Op. cit., vol, I. p. 454; Benvenisti, The Crusaders in The Holy Land, Jerusalem , 1972, pp. 102-104 .

4- William of Tyre, Op. cit ., vol , I. pp. 454-56; Benvenisti, Op. cit., p. 100 ; Rey, op. cit., pp. 73, 74 .

5- Benvenisti, Op. cit., pp. 101, 102 .

من أصغر الأحياء الإيطالية ، يقع فى أقصى المغرب ممتدا على طول الجزء الغربى من المدينة باتجاه المعبد، يحده غربا حى الداوية وشمالاً حى الجنوية ويرجع تأسيس هذا الحى إلى عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، وذلك حينما حصل البيازنة على وعد شخصى من الملك عمورى الأول[١] (١١٦٢-١١٧٤م)، وقد خصص لتجار مرسيليا شارع فى مدينة عكا وذلك فى سنة ٥١١هـ/ ١١١٥م، وقد تجدد هذا الامتياز من وقت لآخر إلى أن استطاع تجار مرسيليا منتأسيس حى لهم فى عكا فى الفترة من عام ١٢٥٣م- ١٢٥٥م، وكان شارع البروفنسالين (تجار مرسيليا) يمتد من شارع المدينة الرئيسى جهة الجنوب الشرقى حتى يصل إلى شارع الميناء أو السلسلة[٢].

ومما يذكر أن الحى البندقى فى عكا كان له الحظوة والتفوق على سائر الأحياء الإيطالية الأخرى فى القرن الثالث عشر الميلادى، وعلى الرغم من أن الأحياء الإيطالية فى عكا لاتجاور الميناء تمامًا ، فإنه كان بإمكان تجار هذه الأحياء جلب متاجرهم من سفنهم مباشرة إلى مخازن ومستودعات الكوميون صاحبة الامتياز ، وذلك لترتيبها وإعدادها للبيع[٣].

وكانت الأحياء الإيطالية فى عكا تشتمل على بيوت سكنية وفنادق وحمامات ، وأفران ومعاصر ، ومستودعات للبضائع ، وطواحين ومكاتب تجارية، وحوانيت وأسواق تجارية، ومحاكم خاصة بهم بالإضافة إلى كنائس تتبع كنائسهم فى المدينة الأم [٤]، وكان أكبر مبنى فى الحى الإيطالى يتألف من ثلاثة طوابق أو أربعة ، وكان يعرف بالقصر Palazzo وهو مقر إقامة الفيكونت أو قنصل الكوميون وكان هذا المبنى أيضا مقر المجلس الاستشارى (المحكمة)

1- Conder, The latin kingdom ., pp. 409, 10 ; Benvenisti, Op. cit., p. 98 .

2- Benvenisti, Op, cit., p. 104; Prawer, " Social Classes"., pp. 191, 192 .

3- Smith-Riley, " Government in Latin Syria and The Commercial privileges of Foreign Merchants" in The Relalions Between East and West (ed. by.D. Barker), Edinburg, 1973, p. 118 .

4- Byrne, " Genose Trade with Syria in the Twelfth Century" Amercan History Review XXV (1919-1920) , p. 195 ; Mayer, The Crusades. Trans, by John Gillingham, Oxford, 1972, p. 173 .

حيث قامت العدالة وفقا لقوانين المدينة الأم، (البندقية، أو جنوا أو بيزا أو مارسيليا أو برشلونة) ، وكان علم الكوميون يرفع فوق القصر ليعلن استقلاله السياسى والقضائى ، وكانت بعض القصور مجهزة بدهاليز مظلمة ، يحيى فيها المساجين أو يعدمون فى بعض الأحيان[١].

وكان الفندق أو السوق من أبرز سمات الحى الإيطالى فى عكا ويتكون من عدد كبير من الدكاكين والمحلات التجارية ، والعربات ومساكن للتجار فى الأدوار العليا، وكانت الخانات والفنادق التى تقدم الوجبات على الذوق الإيطالى تنتشر فى كل مكان بالإضافة إلى ذلك كانت هناك المناضد التى أقامها صرافو النقود وبائعات الأطعمة[٢] ، فقد كان الحى الإيطالى فى عكا يشكل مركزا تجاريا نشطا كما كان مركزا صناعيا أيضا، فقد انتشرت فيه الورش الحرفية والصناع وأرباب المهن المختلفة ، الذين سكنوا فى شوارع مخصصة لهم كما يذكر الرحالة لودولف[٣] Ludolph ، وبالإضافة إلى الأسواق كانت تبنى وسط الحى الإيطالى أبراج مرتفعة يضعون فوقها أدوات الحرب والدفاع، وذلك للتصدى لأى هجمات معادية وكانت هذه الأبراج تقليدا لما كان سائدا فى المدن الإيطالية فى العصور الوسطى[٤].

وقد شهدت الأحياء الإيطالية فى المدن الصليبية تطورا فى مجالات عديدة فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى بفضل الامتيازات السخية التى حصل عليها الإيطاليون ، فقد بدأت تتوافد على الحى البندقى فى عكا أفواج كبيرة من التجار للإقامة بالشرق ، كما كان لحالات التزاوج التى تمت بين البنادقة المستقرين ببلاد الشام وبين الفئات الصليبية الأخرى أثر كبير فى ازدياد نسبة الهبات والمنح، بل أن الحى البندقى قد حصل على أراض ومنازل تابعة للأراضى المحظورة داخل المملكة الصليبية[٤]. وقد ازداد توسع الأحياء الإيطالية فى المدن الصليبية

١- براور : عالم الصليبيين، ص١٦٠ ، ٢٢٢ ؛

Byrne, "Genoese Colnies., " pp. 141-42 .

٢- براور : المرجع السابق، ص١٦٠ ، ١٦١ ؛

Rey, Les Colonies Franques., p. 71 .

3- Ludolph, Op. cit., pp. 51-53 .

عفاف سيد صبره : العلاقات بين الشرق والغرب (علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠م) دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٨٣، ص٢٢٥ .

4- Prawer, The Latin kingdom., p. 88 .

أيضا نتيجة امتلاكهم ثلث الأراضى المجاورة للمدينة التى يحصلون فيها على امتيازات وهذه الأراضى كانت فى شكل دائرة نصف قطرها ميل واحد وكان هذا يتيح لأفراد هذه الطوائف الإيطالية أن يزرعوا فى أراض يملكونها الحبوب والخضر، وعلى هذا نمت الملكيات العقارية التى تكونت لصالح الجاليات ، وشهد القرن الثالث عشر الميلادى نمو هذه الملكيات العقارية لصالح البندقية فى صور، وخاصة فى عام ١٢٤٣م، حيث نجد فى أخبار البايل Bailo البندقى مارسيليو جورجى قائمة بأسماء حوالى ثمانين ضيعة Casaux حول مدينة صور، وكان أغلبها ملكا حقيقيا للمستعمرة البندقية، وكانت هذه الأملاك تمتد من ساحل البحر حتى الهضبة التى تتوج المرتفعات المجاورة للمدينة ، وترى فيها حقول وحدائق وبساتين فاكهة وكروم، ومزارع قصب السكر وأشجار الزيتون والتين[٢]. ونتيجة لهذا ازداد ثراء الإيطاليين فى المناطق الصليبية، مما أغرى العديد من العائلات الإيطالية العريقة وخاصة البندقية ، على الاستقرار فى الشرق، فقد عاشت فى الحى البندقى فى عكا أشهر العائلات البندقية مثل عائلة ميخائيل فالبير Michiel Falier الدوق البندقى الشهير، وعائلة مورسينى Morsini وغيرها من العائلات الأخرى[٣].

ومما يذكر أن معظم سكان الأحياء الإيطالية فى عكا كانوا من التجار الأثرياء بالإضافة إلى عدد كبير من الصناع والحرفيين الإيطاليين الذين استقروا فى وسط المدينة وكان لكل طائفة منهم شارع خاص بهم طبقا لنوع التجارة أو الحرفة[٤].

ولذا كانت التجارة من المهن الرئيسية التى مارسها أبناء هذه الأحياء طوال فترة الوجود الصليبى ، كما اعتاد بعض المستثمرين من أبناء المدن الإيطالية (البندقية ، جنوا ، بيزا) من تجار وصناع وحرفيين أن يقضوا بعض السنوات فى الأحياء الخاصة بجاليتهم فى الشرق قبل

1- Prawer , The Latin kingdom ., p. 88 .

٢- هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، (ترجمة أحمد محمود رضا، مراجعة د. عز الدين فوده، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥)، ص١٦٦ ، ١٦٧ ؛ Rey , Les Colonies Franques., p. 70 .

3- Prawer, The Latin Kingdom ., p. 90 ; Idem, " Social Classes" p. 182 .

4- Ludolph, Op. cit., pp. 51-53 .

العودة إلى أوطانهم فى إيطاليا[١]، كما ضمت الأحياء الإيطالية أيضا رجال الدين الذين قدموا من المدن الإيطالية للعمل فى الكنائس الموجودة فى هذه الأحياء ، وضمت الأحياء الإيطالية أيضا القناصل وأعضاء القناصل وأعضاء الجهاز الإدارى والقضائى ، الذين كانت تسند إليهم مهمة إدارة الحى الإيطالى فى المدن الصليبية فقط على الإيطاليين ولكن كان يسكنه أفراد ينتمون إلى أمم أخرى وجنسيات مختلفة ، فقد نص فى المعاهدة المبرمة فى عام ١١٢٣ بين حكام المملكة الصليبية وبين دوج البندقية على أن المستوطنين الذين ينتمون إلى جنسيات مختلفة يستطيعون الإقامة فى الحى البندقى فى مدينة صور ولذا وجد فى الحى البندقى فى صور سكان من الشوام واليهود، وكان هؤلاء السكان يدفعون إيجارا لسلطات الحى ويقدمون خدماتهم للتجار الأجانب ، كما كانوا عمالا مهرة ، لذا رأينا بالمدينة مصنعًا للحرير يديره عمال من الشوام، ومصانع للزجاج يستغلها يهود فى قلب حى البنادقة[١].

وعن نظام إدارة الأحياء الإيطالية فى المدن الصليبية فى بلاد الشام يمكن القول إن المعاهدات التى عقدت بين المدن الإيطالية والحكام الصليبيين قد حددت طبيعة العلاقات بين الجاليات الإيطالية والقوى الصليبية، كما أقرت هذه المعاهدات مبدأ تبعية هذه الجاليات إلى مدنها الأم، ومع ذلك فإن هذه الجاليات كانت تشارك فى الدفاع عن المدينة الصليبية التى عاشوا فيها ، إذا تعرضت هذه المدينة للخطر ، ولم يكن المستوطنون الإيطاليون مسئولين عن أى خدمات أخرى مهما كان نوعها وإذا طلب منهم الانضمام إلى أية حملة صليبية فإن هذا كان يتم فى ظل معاهدة خاصة بين الطرفين [٢]، وأقرت هذه المعاهدة أيضا مبدأ الحكم الذاتى للإيطاليين فى أحيائهم وحق الفصل فى القضايا التى تقوم بين سكان هذه الأحياء فكانت هذه الأحياء بمثابة وحدات إقليمية إضافية تدار بواسطة قوانين المدينة الأم فى أوربا وكان يدير شئونها عدد من الموظفين المشهورين مثل القنصل أو الفيكونت ، وكانت المدينة الأم تقوم بتعيين هؤلاء الإداريين وإرسالهم إلى الشرق [٣]. واستقر رؤساء الجاليات الإيطالية فى مدينة

١- هايد، تاريخ التجارة ، ص١٦٥ .

٢- عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٨٠م) ص١٥٨ .

3- Prawer" Social Classes" ., Benvenisti, Op. cit., p. 28 ; Smail, The Crusaders., p. 60 ; p. 190 .

عكا أو فى مدينة صور، فكان الممثل البندقى فى عكا يتخذ لقب القنصل ثم اتخذ بعد ذلك لقب بايلو Bailo وذلك فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى[١].

وكان القنصل يساعده موظف آخر اتخذ لقب الفيكونت Viscount[٢] وهو المشرف الإدارى والقضائى على الحى البندقى فى المنطقة التى يوجد بها الحى، وكان البايلو هو ممثل الكوميون البندقى فى المدن الصليبية كلها وكان مستقلا تماما عن حكومة بيت المقدس ومن مهامه الإشراف العام على شئون الجاليات البندقية فى «الإمارات الصليبية كلها» والحفاظ على المصالح التجارية للكوميون فى المدن الصليبية [٣]، ومما يذكر أن القنصل البندقى كان يعين فى وظيفته لفترة محددة تصل إلى عامين ، ويتقاضى راتبا شهريا يصل إلى مائتى دوكات بندقى بالإضافة إلى جزء من الهدايا التى كان يتلقاها من الأثرياء من بنى جلدته[٤].

وأما بالنسبة إلى إدارة الحى التابع لمدينة بيزا فى عكا، فيبدو أن رؤساء مستعمراتهم كان لهم فى الأصل لقب فيكونت ، ذلك أنه فى عام ١١٥٦م، منحهم الملك بلدوين الرابع (١١٧٤ / ١١٨٥م) امتيازا عبارة عن محكمة خاصة بهم فى مدينة صور وبعد ثلاث وعشرين سنة ظهر رئيس المستعمرة البيزية فى عكا حاملا لقب القنصل ، الذى استخدمه البيزيون من ذلك الحين فى بلاد الشام[٥]. وكان مقر القنصل البيزى فى مدينة عكا، حيث الحى البيزاوى، ومن أهم مسئولياته،إدارة شئون الجالية البيزاوية فى المدن الصليبية وكان يساعده مجموعة من الموظفين مهمتهم الإشراف على شئون المتجار البيازنة وتنظيم العلاقة بين الجالية البيزاوية والحكومات الصليبية [٦].

وكان القنصل الجنوى يمثل قمة السلطة الإدارية فى المستعمرة الجنوية فى بلاد الشام، فهو الممثل الرسمى لبلده أمام السلطات الصليبية وعليه تقع مهام جسام، مثل المحافظة على حقوق

1- Rey , Les Colonies Franques., p. 71 .

٢- عفاف صبره ، المرجع السابق، ص٢٣١ .

3- Rey , Les Colonies Franques., p. 71 .

4- Loc. Cit .

٥- هايد ، تاريخ التجارة ، ص١٧١ ؛ Rey , Op. cit., p. 71 .

6- Smith, Nobility., p. 70 ; Rey , Op. cit., p. 73 .

بلده من أطماع القوى المناوئة ، ومراقبة الحكام الصليبيين فى الشرق لتنفيذ كافة بنود المعاهدات المبرمة بين مدينة جنوا والمملكة الصليبية والمحافظة على الامتيازات التى كانت تمنح للتجار الجنوية ، وللمستوطنين الجنوية المقيمين فى بلاد الشام، كما كان عليه أيضا الفصل فى النزاعات التى تنشب بين أفراد الجالية الجنوية والجاليات الأخرى[١]. وقد ازداد نفوذ القنصل الجنوى فى مدينة صور ، وعندما تزايدت امتيازاتهم بها أصبح له الحق فى الفصل فى القضايا الجنائية والمدنية وبحلول عام ١٢٦٤م أصبح للقنصل الجنوى حق تنفيذ العقوبات على المجرمين، كالجلد والكى بالنار أو التشهير أو النفى والإبعاد ، كما أصبح له حق فرض عقوبة الإعدام وتنفيذها[٢].

ومما يذكر أن أسرة آل امبرياتشو Embriacus[٣] الجنوية الإقطاعية قد احتكرت إدارة الأحياء الجنوية فى المدن الصليبية حتى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى بالنيابة عن مدينة جنوا، وذلك لخبرتها الإدارية فى شئون الحكم وخبرتها الطويلة بشئون «فيما وراء عالم البحار»[٤]. وقد حدث تطور فى إدارة الأحياء الجنوية فى المدن الصليبية وذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى، فى عام ١٢٧٤م عين الكوميون الجنوى شخصا لإدارة أحيائه عرف باسم البودستا Podesta بدلا من القنصل ، وذلك لأهمية المستعمرات الجنوية فى الشرق واتخذ البودستا الجنوى من مدينة صور مقرا له[٥]، وذلك بعد أن طرد الجنوية نهائيا من عكا فى أعقاب حرب القديس سابا الشهيرة عام ١٢٥٨م، وقد استمر البودستا الجنوى فى منصبه حتى سقوط المملكة الصليبية فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى.

1- Byrne, "Genoese Colonies" ., p. 176; Rey, Op. cit., p. 73 .

2- Byrne, Op.cit., p. 178, 79 .

٣- لمعرفة المزيد عن النفوذ السياسى والاقتصادى لأسرة امبرياتشو الجنوية فى الفترة الصليبية ، انظر :

(Byrne, Genoese Colonies., pp. 146-156).

4- William of Tyre, Op. cit., Vol, I, pp. 476-79; Mayer, The Crusades, p. 175; Byrne, Op. cit., p. 145 .

هايد : تاريخ التجارة، ص١٧٠ .

5- Byrne, "Genoese Colonies", pp. 167, 68 .

وثمة مظهر آخر من مظاهر تطور الأحياء الإيطالية، وهو الاستقلال القضائى عن الملوك والأمراء الصليبيين، وكان هذا الاستقلال يعد انتصارا كبيرا للجاليات الإيطالية فى الإمارات الصليبية وقد ذكر وليم الصورى أثناء عرضه لبنود معاهدة ١١٢٣م التى أبرمت بين البنادقة والحكام الصليبيين طبيعة الاستقلال القضائى الذى تمتع به البنادقة فى المدن الصليبية وحق التقاضى أمام محاكمهم الخاصة [١]، وقد استمر هذا الامتياز معمولا به حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، وتمتعت به باقى الجاليات الإيطالية الأخرى، الجنوية والبيزية سواء كانوا تجارا مؤقتين أو مستوطنين دائمين[٢]. وقد شهد القرن الثالث عشر الميلادى اتساع الامتيازات القضائية ، بحيث شملت معظم القضايا الصغيرة ، فى حين أن الجرائم الجنائية الكبرى كالقتل أو الاغتصاب أو الخيانة التى يرتكبها أحد أفراد الجاليات الإيطالية، كانت تنظر أمام المحاكم الملكية الكبرى، أو المحاكم البرجوازية بالمدن الصليبية ، وكانت الأمور القضائية للمحاكم القنصلية الإيطالية فى المدن الصليبية من المهمات الرئيسية للبايلو البندقى والقنصل البيزى، والقنصل أو البودستا الجنوى أو لنوابهم [٣].

وعلى الرغم من الأهمية التجارية لمدينة عكا التى كانت مركزا رئيسيا الجاليا الإيطالية فى القرن الثالث عشر الميلادى فإن الإيطاليين وجدوا بكثرة فى المدن الساحلية الأخرى التى كان يحتلها الصليبيون ، مثل أنطاكية وطرابلس ، وصور ، وجبيل ، وبيروت ، وقد حصل الإيطاليون على امتيازات تجارية وإقليمية فى هذه المدن ، مما شجعهم على إنشاء جاليات تجارية لهم فيها ، فقد استقر الإيطاليون فى أنطاكية فى الأحياء المخصصة لهم وكانت هذه الأحياء تشتمل على فنادق ومستودعات وكنائس ، بالإضافة إلى بيوت سكنية ومحاكم خاصة بهم[٤]. وتركز النشاط التجارى للإيطاليين فى أنطاكية بنقل متاجر الشرق الأقصى التى كانت

1- William of Tyre , Op. cit., Vol., vol, I, pp. 554, 55 ; Benvenusti Op. cit., p. 82 .

2- Byrne, "Genoese Colonies in Syria"., p. 178, 78; Prawer, "Social Classes", ., p. 187 .

3- Rey, Les Colonies Franques., p. 72 .

4- Mayer, The Crusades. ,p. 173 ; Byrne, "Genoese Colonies", 178, 79 ;

شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ، (ترجمة د. أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف)، ص٣٣ .

تتدفق عليها عبر أنطاكية الطبيعية والصناعية [١]. وازدهر النشاط التجارى للجاليات الإيطالية فى مدينة أنطاكية منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادى، وربما يعود ذلك إلى أن عملية الاستيطان الإيطالى فى هذه المدينة لم تنقطع البتة بفعل أحداث حطين كما حدث فى بعض المدن الساحلية التى استردها صلاح الدين الأيوبى والتى تعرضت فيها المصالح التجارية للإيطاليين للخطر، فقد كانت أنطاكية الملاذ لكثير من المهاجرين الإيطاليين الذين هاجروا إليها، حيث بنى جلدتهم هناك، ويفسر هذا النشاط التجارى الإيطالى فى أنطاكية ، ما بلغته هذه المدينة من ثراء واسع النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى، فيذكر ابن عبد الظاهر ، أنه عندما فتحها المسلمون فى عهد الظاهر بيبرس فى عام ٥٦٤هـ١٢٦٨/م، وجدوا بها الكثير من الخيرات والأموال «... فأحضر الناس من الأموال والمصاغ والأمتعة شيئا كثيرا ، وأحضر القبان لوزن الأموال والمصاغ والذهب والفضتوطال الوزن، فقسمت النقود بالطاسات والشربات .. فلم يزل السلطان راكبا فرسه إلى المغرب ، وما ترك شيئا حتى قسمه من الأموال والقماش والمصاغ والدواب والمواشى... »[٢].

ومنح الإيطاليون فى طرابلس امتيازات تجارية وإقليمية وقضائية ، وقد بدأ الاستيطان الحقيقى للجاليات الإيطالية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى، وتركز النشاط التجارى للإيطاليين فى طرابلس، فى نقل المنتجات المحلية التى اشتهرت بها المدينة مثل الحرير ، والصناعات الزجاجية وقصب السكر[٣]، وفى نقل متاجر الشرق الأقصى التى كانت تأتى إلى طرابلس عبر حلب وحماه وحمص ، إلى أسواق الغرب الأوربى[٤].

1- Cahen- Claud., La Syrie Du Nord A L'Epoque des Croisades, Paris, 1940, p. 290; Byrne, Op. cit., pp. 141 , 42 .

٢- محيى الدين بن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، (تحقيق د. عبد العزيز الخويطر ، ط. الرياض ، ١٩٧٦) ، ص٣٢٣ ، ٣٢٤ .

3- Burchard, ADescription of The Holy Land, CF. P.P.T.S, vol, XI, London, 1896, p. 16; Ludolph, Op. cit., pp. 47, 48; Prawer "Social Classes"., p. 184 .

٤- هايد : تاريخ التجارة، ١٨٢ .

وبالنسبة لمدينة جبيل القريبة من بيروت، فقد تمكن الجنوية من امتلاك هذه المدينة منذ فترة باكرة من الوجود الصليبى وقامت أسرة أميرياتشو بادارة جبيل نيابة عن كوميون جنوا[١] ، وذلك مقابل مبلغ سنوى كانت تؤديه إلى المدينة الأم، وظلت هذه العائلة الإقطاعية فى إدارة جبيل واستثمارها حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى[٢]، وقد انصهرت هذه العائلة فى المجتمع الصليبى،نتيجة أعمال النسب والمصاهرة، مما أدى إلى ذوبان هذه الأسرة الجنوية فى المجتمع الصليبى[٣].

واستطاع الإيطاليون تكوين جاليات تجارية لهم فى مدينة بيروت، نتيجة الامتيازات التى منحها لهم الملوك والأمراء الصليبيون، وقد ازدهرت هذه الجاليات منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادى، ولاسيما بعد أن منحهم الحكام الصليبيون من أسرة ابلين الكثير من الامتيازات التجارية وغيرها [٤]، وتركز النشاط التجارى للإيطاليين فى بيروت، فى تصدير المنتجات المحلية للمدينة ، بالإضافة إلى سلع الشرق الأقصى ذات الأهمية التصديرية والآتية من أسواق دمشق[٥].

وكانت مدينة صور الساحلية ذات أهمية تجارية ،فهى تأتى فى المرتبة الثانية بعد عكا ، ولذا نجد استقرار الإيطاليين بها فى شكل جاليات ، فقد تواجد البنادقة فى صور وتدفقت أعداد كبيرة منهم بموجب معاهدة عام ١١٢٤م، حيث امتلكوا الأراضى والبساتين والحدائق حول المدينة[٦]، وكثر البنادقةفى صور منذ أواسط القرن الثانى عشر حتى أواسط القرن الثالث عشر

1- William of Tyre, Op. cit., vol, I, pp. 476,77;

هايد : المرجع السابق، ص١٥٣ .

2- Byrne, "Genoese Colonies", p. 154 ;

هايد : المرجع السابق ص١٨١ .

٣- عادل زيتون ، المرجع السابق ، ص١١٦ .

4- Smith, " Government"., p. 110; Idem, Nobility., p. 66 ; Rey, Op. cit., p. 73 .

٥- هايد : تاريخ التجارة ، ص١٨٥ ، ١٨٦ .

6- William Of Tyre, Op. cit., vol, I, pp. 454, 55; Rey, Les Colonies Franques., pp. 70, 71; Conder, The Latin Kingdom., pp. 409, 10 .

الميلادى ، ولعل أبرز نشاطات البنادقة فى صور كانت حق إصدار عملة ذهبية، وقد حصل البنادقة على هذا الامتياز بعد سقوط صور فى يد الصليبيين عام ١١٢٤م، فقد اقتضت المصالح التجارية للبنادقة سك مثل هذه العملة لجذب تجار الشرق[١]. ولقيت الدنانير التى سكها البنادقة والصليبيون رواجًا فى الأسواق الإسلامية ، والمتاجرة مع المسلمين[٢].

وبالإضافة إلى الجالية البندقية فى صور، كانت هناك الجالية الجنوية ، فقد ازداد أعداد الجنوية فى مدينة صور منذ عام ١١٨٧م، أى عندما حصل الجنوية والبيازنة على امتيازات تجارية سخية ، مقابل مساعدتهم لكونراد مونتفرات فى الدفاع عن صور ضد صلاح الدين الأيوبى، وازدهرت الجالية الجنوية فى صور بعد عام ١١٨٧م، وأصبحت أكثر نشاطا عن بقية الجاليات الإيطالية الأخرى[٣]، نتيجة مساعدة الجنوية لحكام صور الصليبيين ضد القوى الصليبية المناوئة لهم فى عكا، ذلك الصراع الذى امتد من أواخر القرن الثانى عشر الميلادى حتى نهاية القرن الثالث الميلادى .

وهكذا ساعدت الظروف السياسية والاقتصادية التى عاشها الصليبيون فى المنطقة العربية على تطور الأحياء الإيطالية فى المدن الساحلية التى استولى عليها الصليبيون وازداد النفوذ السياسى والاقتصادى للإيطاليين تدريجيا والذى كان مواكبا لحركة الضعف والانهيار السياسى والاجتماعى للصليبيين ، فقد أدت حاجة الحكام الصليبيين إلى المساعدات المادية والحربية إلى تقوية نفوذ الكوميونات والتجار الإيطاليين المستقرين فى الشرق، وقد حصلت هذه الكوميونات على امتيازات سخية إبان فترة الأزمات التى مرت بها المملكة الصليبية وقد اعتبر أعضاء الكوميونات أنفسهم فى وضع مساوٍ لسادة المدن الصليبيين[٤].

لقد تمخض عن استقرار الإيطاليين فى المناطق الصليبية، تزايد حركة النشاط التجارى فى بلاد الشام وانتشار المراكز التجارية فى أحياء الكوميونات فى أنطاكية وعكا وصور

١- عادل زيتون : العلاقات الاقتصادية ، ص١٦٧ .

2- Mayer, The Crusades., p. 163 .

3- Byrne, "Genoese Colonies in Syria"., pp. 142-152; Rey, Les Colonies Franques., pp. 72, 73 .

4- Anonymous Pilgrims, Op. cit., p. 29; Prawer, "Social Classes".. p. 188 .

وغيرها [١]، وكانت الأحياء الإيطالية تعج بالحركة والنشاط التجارى مرة أو مرتين فى العام وهى الفترات التى تواكب وصول قوافل السفن التجارية من أوربا إلى الموانىء الصليبية ، وكان تجار الترازنيت (تجارة العبور) يتوقفون فى هذه الأحياء لممارسة التجارة تحت حماية الحى الخاص بالكوميون التابعين له، وبعد الانتهاء من عملية التبادل التجارى، كان هؤلاء التجار ينطلقون بسفنهم التجارية بعد أن شحنوها بالسلع والبضائع الشامية والشرقية، إلى موان أخرى فى الشرق أو إلى إيطاليا [٢].

والواقع أن التجار الإيطاليين المستقرين فى بلاد الشام قد أدوا خدمات جليلة للجارة لايمكن إغفالها ، فكانوا يهتمون بألا تفرغ مخازنهم من السلع ، فتظل حوانيتهم مفتوحة، وتستمر حركة التبادل التجارى بين منتجات الغرب ومنتجات الشرق نشيطة طوال السنة. ومن الصحيح إذن أن نسلم بأن هؤلاء المستوطنين كانوا يؤدون لتجارة منطقة الشرق العربى من الخدمات أكثر مما يؤديه التجار الذين تقتصر مهمتهم على الذهاب والعودة مع الأساطيل التجارية [٣]. ولم يقتصر النشاط التجارى الإيطالى فى المدن الساحلية فقط ، بل تغلغلوا إلى الداخل ، حيث وصلوا الأسواق الغنية فى المدن الإسلامية الداخلية فى دمشق وحلب، ومن ثم أنشأوا اتصالات منتظمة فى كل أنحاء بلاد الشام، وذلك للبيع والشراء[٤].

لقد كانت بلاد الشام فى الفترة الصليبية منطقة ملائمة للمشاريع التجارية لأفراد الكوميونات التجارية ، واستثمار رؤوس الأموال وإظهار مهارة التجار الإيطاليين فى هذا المجال، ولم يقتصر النشاط التجارى على التجار الإيطاليين فقط ، بل شاكهم فيه القناصل والفكونتات الجنوية فى بلاد الشام، فقد شارك هؤلاء الرؤساء الإداريين فى مجال التجارة

1- Prawer, Op. cit., pp. 180-185 .

2- Prawer, " Social Classes"., p. 185 .

٣- هايد : تاريخ التجارة، ص١٩٢ ؛ The shorter Cambridge Medieval History , (ed) by C.W. Previte. Orton, vol, I, Cambridge, 1953, p. 359 .

4- Byrne, "Genoese Colonies"., p. 161;

هايد : المرجع السابق، ص١٨٨ .

بقسط كبير واستثمروا أموالهم فى تجارة الملابس والبهارات ففى عام ١٢٤٩، كان جيجليموا دى بلجارو من أهم المصدرين للفلفل والقطن إلى جنوا [١]، ومن جهة أخرى فقد ذكر بيرن Byrne أربعة من التجار الشرقيين الشوام واليهود المشاهير الذين مارسوا أعمالهم التجارية فى مدينة جنوا فى الفترة الصليبية، وقام هؤلاء التجار بدور كبير فى مجال التجارة الشرقية وهؤلاء التجار هم التاجر اليهودى سليمان من سالرنو ، والتاجر اليهودى سليمان بلانكاردو Blancardo والتاجر الشامى المدعو ريبالدو سارفيا، والتاجر بونجيافانى مالفى جلياسترو Buongiovanni Malfigiastro واستقر هؤلاء التجار فى مدينة جنوا ، وتخصصوا فى تصدير الكثير من البضائع والسلع إلى أسواق بلاد الشام وارتبط هؤلاء التجار بعلاقات نسب ومصاهرة مع العائلات الجنوية الشهيرة ، ولذا امتلك هؤلاء التجار الثروات والضياع الواسعة[٢].

وهكذا شهدت الفترة الصليبية نشاطًا تجاريًا واسعًا شمل الشرق العربى والغرب الأوربى معا، وساهم الإيطاليون بنصيب وافر فى هذا النشاط التجارى، الأمر الذى أدى إلى فتح أسواق جديدة أمام منتجات بلاد الشام التقليدية، الطبيعية والصناعية وازدهار حرف مهنية وصناعات معينة لمواجهة حاجة الأسواق المتزايدة لها، وخاصة الأسواق الأوربية .

من المعروف أن الوجود الإيطالى فى المدن التى احتلها الصليبيون فى بلاد الشام قد ساهم بقدر كبير فى تنشيط حركة التجارة الداخلية والخارجية، بفضل مهارتهم فى هذا المجال[٣]. كما كان من نتائج استقرار الإيطاليين فى الأحياء المخصصة لهم فى المدن الساحلية فى بلاد الشام فى الفترة الصليبية، تنشيط حركة الصادرات والواردات ، وتزايد عدد المستثمرين ، وفتح أسواق جديدة أمام المنتجات التقليدية لبلاد الشام فى مناطق عديدة من الشرق الأقصى وأوربا، وكانت هذه المنتجات تحملها القوافل التجارية البرية أو تحملها السفن التجارية[٤].

1- Byrne, "Genoese Colonies"., p. 171; The Cambridge Economic History of Europe. vol, II, (ed) by M.Poaren Cambridge, 1952, p. 306 .

2- Byrne , " Easterners in Genoa"., CF, Jounal of Economic and social History of Orient, vol XXXV III, (1918), pp. 179-185 .

3- Anonymous Pilgrims, Op. cit., p. 29; De Vitry, History of Jerusalem, Trans, by Stewart, Cf. P.P.T.S, vol, XI, London, 1896, p. 57 ; Mayer, The Crusades., p. 172 .

4- Rey, Les Colonies Franques., p. 189 .

ومما يذكر أن بلاد الشام قد عرفت منذ قديم الزمان انواعا مختلفة من المنتجات الزراعية الهامة ذات الصفة التجارية ، مثل الحبوب والبقوليات، والمحاصيل ذات الأهمية الصناعية مثل القطن والكتان والنيلة، وكانت كل منطقة من بلاد الشام تشتهر بانتاج نوع من هذه المحاصيل ، وأشار الرحالة الذين زارو بلاد الشام فى الفترة الصليبية إلى وفرة مثل هذه المحاصيل وتنوعها كما ذكروا مناطق الإنتاج الرئيسية لهذه المحاصيل(١) ، وبالإضافة إلى هذه المنتجات الزراعية اشتهرت بلاد الشام بانتاج الفواكه بأنواعها المتعددة وخاصة البرتقال والليمون، والزيتون. وقد انتشرت البساتين وحدائق الفاكهة فى مناطق متعددة من بلاد الشام فى الفترة الصليبية ، وقد أعجب الرحالة الأجانب الذين زاروا المناطق الصليبية من وفرة إنتاج الفاكهة (٢). وانتشرت فى بلاد الشام أيضا مزارع الكروم الواسعة واتسعت هذه المزارع فى الفترة الصليبية ، وذلك لاهتمام الصليبيين بصناعة النبيذ كما أشار الرحالة إلى انتشار زراعة نبات البلسم ذات الأهمية التجارية على ضفاف نهر الأردن، والبحر الميت، وفى أريحا وعين جدى(٣). وتتضح أهمية نبات البلسم فى استخدامه فى الكنائس للأغراض الدينية ، وقد ذكر الراهب الروسى دانيال Danial بخور البلسم وكيفية استخراج هذا البخور ومواعيد جمعه ونضجه فى المناطق الصليبية(٤)، كما انتشرت مزارع قصب السكر والسمسم بمساحات واسعة فى بلاد الشام ، خاصة نابلس، والمدن الساحلية مثل صور وطرابلس وغيرها(٥).

1- Danial, Danial's Pilgrimage To The Holy Land , Eng, by, W. Besant, CF, P.P.T.S, Vol, IV, London, 1895, p. 26; Wurzburg Description of The Holy Land , CF, P.P.T.S, vol, V, London 1896, p. 58 ; De vitry, Op. cit., p. 16 ; Burchard, Op. cit., pp. 99, 100 .

2- Burchard, Op. cit., pp, 16, 100 ; De Vitry, Op. cit., pp. 10,11; Danial, op. cit., pp. 25,26 .

٣- عين جدى : تسمى الآن عين جدى، على الساحل الغربى للبحر الميت

(Wurzburg, Op. cit., p. 58 , Note 1).

4- Danial, Op. cit., pp. 25,26 ; Wurzburg, Op. cit., 58; De Vitry, Op. cit., p. 110 .

٥- ناصر خسرو : سفر نامة ، (ترجمة د. يحيى الخشاب، جـ١ القاهرة ١٩٤٥م) ابن بطوطة ، الرحلة ، (ط٢، بيروت ١٩٦٤م) ، ص٣٥؛

Danial, Op. cit., pp. 25, 26; Burchard, Op. cit., p. 100; William of Tyre, Op. cit., vol, II, p. 6 .

وعلى آية حال فإن هذه المنتجات التقليدية لبلاد الشام فقد وجدت أسواقا رائجة فى مناطق متعددة من العالم، وخاصة أسواق أوربا خلال الفترة الصليبية ، فقد كان القطن والكتانوالحرير والصوف المنتج فى بلاد الشام يصدر إلى أسواق أوربا فى صورة مواد خام أو على هيئة منسوجات [١]. وعرفت المنسوجات المصنعة فى أنطاكية وطرابلس طريقها إلى أسواق أوربا، ودليل ذلك أن قائمة كنوز كاتدرائية سان باولو فى كانتربورى تشمل ضمن محتوياتها على أثواب وملابس كهنوتية من الجوخ الأنطاكى المطرز بخيوط ذهبية وفضية ، وذات الألوان المتعددة كما اشتملت قائمة كنوز كنيسة نوتردام فى باريس والتى ترجع إلى عام ١٣٤٣م، أيضا على أشكال متعددة من المنسوجات والقماش المصنوع فى بلاد الشام والذى كان يشبه تماما قماش وأثواب كهنة كنيسة القديس يوحنا فى عكا[٢]. وبالإضافة إلى المنسوجات القطنية كانت هناك المنسوجات الحريرية والكتانية المنتجة فى بلاد الشام، والتى كان يشتريها التجار الإيطاليون من بلاد الشام ومن أسواق مصر، فقد كانت أسعارها فى أسواق دمشق ومصر أقل من مثيلتها فى أسواق المدن الصليبية [٣].

وكان السكر من المنتجات الهامة فى بلاد الشام فى الفترة الصليبية نظرا لاتساع المساحات المنزرعة بقصب السكر[٤] ، وقد وجد السكر المنتج فى بلاد الشام أسواقا رائجة فى أوربا إذ كان يصدر إليها بكميات كبيرة ، ولذا كان معظم استهلاك أوربا من السكر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، يأتى من بلاد الشام[٥].

وتأتى الفواكهة بأنواعها المختلفة ضمن المنتجات التقليدية الهامة فى بلاد الشام، والتى وجدت لها سوقا جديدا فى أوربا فى الفترة الصليبية ، وكثيرا ما كانت فواكهة بلاد الشام

1- Rey, Les Colonies Franques.

2- Ibid, pp. 216 , 217 ; برارور : عالم الصليبيين، ص٢٣١ ؛

3- The Shorter Cambridge MedievalHist., vol, I, p. 353; Rey , op. cit., pp. 214-21 .

4- William of Tyre, Op. cit., vol, II, p. 6; De vitry, Op. cit., p. 30 ; Burchard, Op. cit., p. 100 .

5- Rey, Op. cit., pp. 248, 49 ;

هايد : تاريخ التجارة ، ص١٨٩ .

مثل البرتقال توجد على موائد الأثرياء فى إيطاليا [١]، وكانت بساتين الزيتون وحقول السمسم التى تحيط بالمدن الصليبية، تعطى محصولا وفيرا من الثمار الزيتية، ولذا كان زيت الزيتون يصدر بكميات صغيرة إلى الغرب الأوربى[٢].

ومن المؤكد أن عدداً من التوابل والبهارات والأعشاب الطبية كانت من منتجات التصدير ، وكان البلسم (بلسم الأراضى المقدسة من أهم هذه الصادرات فقد وجد زيت البلسم المنتج فى بلاد الشام والذى كان يعرفه الأوربيون باسم بلسم الأراضى المقدسة، أسواقًا رائجة فى أوربا ، وكان مألوفا فى أوربا ، حيث كان يستخدم فى الأغراض الكنسية والطبية [٣]. وبالإضافة إلى هذه المنتجات الطبيعية، كانت هناك منتجات صناعية فى بلاد الشام وجدت طريقها أيضا إلى أسواق عديدة فى العالم وخاصة أوربا.

لقد ساهمت الحركة التجارية النشطة فى المناطق الصليبية والتى قامت على أكتاف الإيطاليين، وفى تطور وازدهار حرف معينة وازدهار صناعات معينة وذلك لمواجهة النمط الجديد للاستهلاك الذى اتسم بالترف والرفاهية فى ظل ازدياد الثروة ، فقد كانت طبقة المهاجرين الصليبيين هى التى تؤلف الطبقة الوسطى فى المجتمع الجديد فى منطقة الشرق العربى، وكانت هذه الطبقة تضم الحرفيين والتجار، وهؤلاء كانوا يلبون حاجة المجتمع الملحة إلى الحائكين وصناع الأحذية، والصاغة والنجارين، والحدادين والطاحنين ، والطباخين ، والخبازين والحلوانية ، وصناع الشموع، وفى الموانى والأماكن الساحلية ظهرت وتطورت حرف تزويد السفن بالمؤن التى تكفيها طوال رحلة الأسابيع الثلاثة إلى أوربا ، كما ظهرت حرف أخرى جديدة مثل المكاوية ، وسائقى الجمال والسقائين، وباعة التوابل ، والبخور والعطور ، كما كان من الطبيعى أو تظهر حرف ومهن أخرى مثل حرف الأدلاء، وبائعى الذخائر المقدسة للحجاج، والخمارين أصحاب الحانات الذين كانوا معروفين فى شتى أنحاء العالم المسيحى[١].

١- هايد : المرجع السابق ، ص١٨٩ ؛ . The Shorter Cambridge Medieval Hist. vol, I, p. 353

2- S.C.M.H, vol, I, pp. 352, 53 .

3- Wurzburg, Op. cit., p. 58; Burchard, Op. cit., p. 62 .

٤- براور : عالم الصليبيين، ص١٥٧ .

وكانت بعض الخانات التى تستخدم كفنادق فى الموانىء تستخدم أيضا كبيوت للدعارة ، وقد ازدهرت حرفة الدعارة فى هذه الأماكن، وهى الحرفة التى أثارت استياء وغضب جاك دى فيترى أسقف عكا فى الربيع الأول من القرن الثالث عشر الميلادى حيث أشار إلى الفساد الخلقى ومظاهر هذا الفساد من دعارة وقتل الوالدين ولصوصية وقرصنة ومعاقرة الخمر وغناء ومجون، وقد عزى سقوط المملكة الصليبية إلى تلك المفاسد الأخلاقية التى انغمس فيها الصليبيون[١].

وكان بعض هؤلاء المستوطنين الصليبيين على قدر من الإلمام باللغة العربية، مثل وليم الصورى و غيره، مما جعلهم يعملون فى وظائف السفراء والتراجمة ، كما عمل البعض الآخر فى وظائف الكتبة [٢]. وقد ازدهرت أيضا حرفة السمسرة والوساطة لإتمام الصفقات التجارية فى الموانىء والأسواق التجارية[٣].

والواقع أن الصناع والحرفيين من الشوام واليهود هم الذين قامت على أكتافهم مختلف الصناعات فى بلاد الشام فى الفترة الصليبية فقد شهدت الفترة الصليبية ازدهار وتطور صناعات وفنون مختلفة ، وكانت هذه الصناعات تمثل مادة هامة من مواد التجارة، ومن أهم الصناعات التى ازدهرت ، صناعة المنسوجات ، وصناعة الأصباغ ، وصناعة الزجاج وصناعة السكر وصناعة السيراميك وصناعة المشغولات الذهبية والحلى والصناعات الحديدية[٤].

والحقيقة أن شهرة بلاد الشام فى صناعة المنسوجات ترجع إلى فترة ما قبل الوجود الصليبى، ففى الفترات البيزنطية والإسلامية شهدت بلاد الشام إنتاج أنواع متعددة من المنسوجات والأقمشة ، وقد بلغت هذه الصناعة قمة تطورها فى مدينة دمشق ، وكما يذكر الإدريسى فى القرن الثانى عشر الميلادى أن دمشق مدينة تعج بمختلف الصناعات وخاصة

1- De Vitry, Op. cit., pp. 90 . براور : المرجع السابق، ١٥٧ ؛

٢- براور : عالم الصليبيين، ص١٥٧ .

3- Smith, " Government"., p. 111 .

4- Rey, Les Colonies Franques., p. 211, 212 ;

رنسيمان : المرجع السابق، جـ٢ ، ص٢٣ .

المنسوجات الحريرية والوبرية ، ولاسيما نسيج البروكار المرتفع الثمن، والفريد فى نوعه وصنعته، والخالى من العيوب [١]. وكانت هذه المنسوجات تصدر إلى الأقطار القريبة من بلاد الشام والأقطار النائية أيضا، كما كانت هذه المنسوجات الشامية أكثر روعة وجمال من مثيلتها فى الإمبراطورية البيزنطية ووصل الإنتاج إلى درجة أكبر من إنتاج مدن شهيرة مثل أصفهان أو نيسابور فى بلاد فارس[٢].

وقد حازت مدن صور وطرابلس وأنطاكية وطرطوش شهرة عظيمة فى مجال صناعة النسيج سواء فى الشرق العربى أو الغرب الأوربى وخاصة صناعة الجوخ والأصواف ، فقد اشتهرت صور بصناعة الجوخ والأصواف ذات اللون الرمادى والأزرق[٣] كما كان يضع فى طرابلس نوع من النسيج الحريرى يشبه الأطلس الذى يستخدم فى تزيين الكنائس ، وقد ذكر بوركارد -Bur chard راهب دير جبل صهيون أثناء زيارته طرابلس فى عام ١٢٨٣م أنه شاهد بالمدينة ما يقرب دير جبل صهيون أثناء زيارته طرابلس فى عام ١٢٨٣م أنه شاهد بالمدينة ما يقرب من أربعة آلاف صنع يعملون فى صناعة المنسوجات الحريرية والصوفية بهمة ونشاط، ويلاحظ أن هذا الرقم الذى ذكره بوركارد ، يطابق تماما الرقم الذى ذكره المقريزى، فيقول المقريزى إنه فى الزمن الذى استعاد فيه السلطان قلاوون مدينة طرابلس وجد «لأهلها سعادات جليلة منها أربعة آلاف نول قزازة...»[٥].

وازدهرت صناعة الأقمشة فى أنطاكية ، فقد كان مصنع الحرير يوجد بالقرب من كنيسة القديس بطرس فى أنطاكية ، وكانت بياضات وحرائر أنطاكية مادة هامة من مواد

١- الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، (روما ، ١٨٧٨) ،ص٣١٣؛ Rey, Op. cit., pp. 214,15 .

2- Rey, Les Colonies Franques., pp. 214. 15 .

3- Loc. Cit.

4- Burnard, Op. cit., p. 16; Rey, Op. cit., p. 215 ;

هايد : تاريخ التجارة ، ص١٩٠ .

٥- المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٧٠) ، جـ١ ، ص٧٤٨؛ هايد : المرجع السابق، ص١٩٠ .

التصدير [١]. ويذكر الإدريسى أن مدينة أنطاكية تشتهر بصناعة المنسوجات البديعة الألوان والأقمشة الحريرية الغالية الثمن، ونسيج البروكار وكانت لمنسوجات أنطاكية شهرة واسعة فى الأسواق الأوربية ، فقد كانت تستخدم فى تزيين الكنائس ، وذلك لأنها مطرزة بالخيوط الذهبية والفضية [٢]، وكانت المنسوجات الحريرية المطرزة بالخيوط الذهبية والفضية تصنع فى مدينة عكا وبيروت، واشتهرت مدينة صور بانتاج نوع من الأقمشة يعرف باسم زندادو أو صندل ، وكانت الأقمشة التى يصنعها النساجون الشاميون فى حى البنادقة فى مدينة صور مطلوبة كثيرا، وكانت السفن البندقية تنتظر حتى الانتهاء من صنعها لتشحنها إلى أوربا[٣]، وانتشرت صناعة الأقمشة الكتانية والصوفية فى مدينة طبرية، فيذكرها المقدسى من بين منتجات طبرية[٤].

وكانت الصباغة صناعة مزدهرة فى المدن الصليبية ، ازدهار صناعة النسيج ، حيث كانت هذه الصناعة مزدهرة فى مدينة صور ، وخاصة الصباغة الأرجوانية ، وقد احتكرها الصناع اليهود، كما احتكر اليهود هذه الصناعة أيضا فى اللاذقية وطرابلس، وأنطاكية وجبيل ، وحبرون[٥]، وبيت المقدس ومدن أخرى، وقد ازدهرت صناعة الصباغة لمواجهة التوسع فى صناعة المنسوجات فى المناطق الصليبية، وأيضا لتصديرها إلى مصانع النسيج فى أوربا ،

1- Claud- Cahen, Op. cit., p. 475; Rey, Op. cit., p. 216 .

٢- الإدريسى : المصدر السابق، ص٣١٥؛

Cahen, La Syria Du Nord., pp. 475, 76; Rey, Op. cit., p. 216 .

3- Rey, Les Colonies Franques., pp. 274-21; S.C.M, vol, vol, I, p. 353 .

هايد : تاريخ التجارة ، ص١٩٠ .

٤- المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، (ليدن،١٩٠٩) ، ص١٨٠ .

٥- حبرون : من مدن فلسطين ، وبيت حبرون قبر إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وقد غلب على اسمها مدينة الخليل والمدينة فى وهدة بين جبال كثيفة الأشجار وأشجار هذه الجبال وسائر جبال فلسطين وسهلها ، زيتون وتين وخرنوب ، (أبو الفدا، تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م) ، ص٢٤٠؛ ياقوت الحموى، معجم البلدان، (دار صادر بيروت ، ب.ت) ، المجلد الثانى، ص٢١٢ .

6- Benjamin of Tudela , The Travels of Rabbi Benjamin of Tudela, (1160-1173) , (ed) by , Manuel Komroff, London, 1928, pp. 268-280; Rey , Op. cit. , p. 222 .

وكانت مواد الصباغة موجودة فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام، فينتج وادى الأردن نبات النيلة، وتنتج ضواحى دمشق ووادى نهر الأورنت (العاصى) نبات الفوه* [١] وكان البحر يلقى على شاطىء صور الأرجوان [٢].

وازدهرت صناعة السكر فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام، وذلك بفعل عوامل كثيرة منها زيادة مساحات قصب السكر ، وحاجة الأسواق الأوربية لهذه السلعة [٣]، وأشار الرحالة الأجانب الذين زاروا الأراضى المقدسة فى الفترة الصليبية إلى مصانع السكر فى مدينة صور وعكا وازدهار هذه الصناعة فى المدينتين السابقتين، وذكر أحد الرحالة أيضا طريقة صناعة السكر كما رآها فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام.

وبالإضافة إلى صناعة السكر، ازدهرت صناعة الزجاج فى المناطق الصليبية وحازت المدن الساحلية شهرة فائقة فى مجال هذه الصناعة فقد تألقت مدن صور وأنطاكية وطرابلس وحبرون وعكا ودمشق فى صناعة الزجاج والمصنوعات الزجاجية[٥] . ووصلت هذه الصناعة إلى درجة عالية من الدقة والروعة، فقد برع الصناع فى إنتاج لمبات زجاجية تثير الدهشة والإعجاب، وكذلك أكواب ، وكاسات ، وأقداح ، وأوانى زجاجية مزينة برسوم على جدارها، ومطلية بالميناء، وكانت هذه الزخارف والزينات تثير الإعجاب لروعتها وفخامتها[٦] وقد احتفظ زجاج مدينة صور بشهرته القديمة ، وذكر وليم الصورى، أن مدينة صور لها شهرة واسعة بصناعة

---

* الفوة : عشب معمر، يستخرج من جذوره ، مادة تستعمل فى صباغة الصوف والحرير (هايد : تاريخ التجارة، ص٠١٩٠، هامش ٩).

١- هايد › المرجع السابق ، ص٠١٩٠ .

2- Benjamin of Tudela, Op. cit., p. 271 .

3- Rey, Op. cit., p. 222 .

4- Burchard, Op. cit., p. 99; De Vitry,Op. cit., p. 28 .

5- William of Tyre, Op. cit., vol, II p. 6 ; De Vitry, Op. cit., p. 93; Rey , les Colonies Franques p. 224; Cahen, La Syrie Du Nord., p. 473 .

6-Rey, Les Colonies Franquesy, p. 224 . 224 .

الزجاج ، والمصنوعات الزجاجية المختلفة والتى كانت تصدر للخارج ، وتجنى من ورائه الأرباح الطائلة ، وكان يقصد مدينة صور عدد كبير من التجار من مختلف الجنسيات لشراء هذه المصنوعات الزجاجية [١]. وأعجب بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا المناطق الصليبية بصناعة الزجاج وشفافيته وروعته فى مدينتى صور وعكا وأشاروا إلى احتكار الصناع اليهود لهذه الصناعة، وشهدت الفترة الصليبية أيضا ظهور الصناعات الزجاجية الشرقية والتى كانت تتناسب مع ازدياد الثروة وارتفاع مستوى المعيشة للمجتمع الصليبى فى بلاد الشام وخاصة الملوك والأمراء الصليبيين، فقد اشتهرت مدن دمشق والموصل وحلب وصور وطرابلس وأنطاكية بصناعة الزهريات المرصعة بالذهب والأباريق والشمعدان ، والمحابر ، والأطباق الفاخرة والمباخر بالإضافة إلى الأدوات الزجاجية التى كان يستخدمها عامة الناس فى حياتهم اليومية [٣].

ومما يذكر أن صناعة الخزف والسيراميك ذات الأشكال البديعة والزخرفة بواسطة الطلاء بالميناء ، قد ازدهرت فى مدن مثل يافا وبيروت وصور ودمشق [٤]، وأثبتت مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس أن السيراميك كان يمثل سلعة تجارية هامة فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام[٥]، وثمة دليل أيضا على ازدهار صناعة الخزف والسيراميك فى المناطق الصليبية وذلك من خلال المعاهدة التى أبرمت عام ٦١٩هـ/ ١٢٢٣م بين جان دى ابلين أمير بيروت، وجنوا والتى ذكرت الخزف والسيراميك ضمن الصادرات التى تنتجها بلاد الشام [٦]، فقد كانت مدينة صور ودمشق من أشهر المدن الشامية فى إنتاج السيراميك فى العصور الوسطى ، وذلك

1- William Of Tyre, Op. cit., vol, II, p. 6 .

2- Benjamin of Tudela, Op. cit., p. 271; De Vitry, Op. cit., p. 25 ; Burchard, Op. cit., pp. 99, 100 ;

هايد المرجع السابق، ١٩١ .

3- Rey,Op. cit., p. 226 .

٤- الإدريسى : المصدر السابق، ص٣٥٢ ؛ هايد : المرجع السابق، ص١٩١؛

Rey, Op. cit., pp. 211, 212 .

5- Beugnot ," Assises De Jerusalem"., CF. R.H.C, Tome, Paris, 1883, p. 179 .

6- Rey, Les Colonies Franques., 212 .

من حيث روعة الصنعة وغزارة الإنتاج ، واشتهرت مدينة يافا أيضا بصناعة المسيراميك . ومم يذكر أن الصناع اليهود قد احتكروا هذه الصناعة وكان هذا الإنتاج من السيراميك والخزف الشامى يصدر إلى أسواق أوربا ، فكانت السفن التجارية الإيطالية تحمل على متنها الخزف الدمشقى المشهور، فى طريقها إلى أوربا[١]. وكانت مصنوعات السيراميك عبارة عن لمبات أو جرار أو أطباق ، وأباريق ، وطاسات ، وقنينات وغيرها ، ومما ساعد على تطوير هذه الصناعة فى بلاد الشام فى الفترة الصليبية هو استمرار عملية استيراد البورسلين من الصين[٢].

وقد ازدهرت صناعة المشغولات والحلى الذهبية فى المناطق الصليبية وآية ذلك وجود شارع خاص بتجار المصوغات فى مدينة القدس[٣]، وتذكر مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس ، أن أعمال الذهب والفضة كانت تخضع لمرسوم وقانون ملكى[٤].

La Titre Le'or et de L'argent etait Regeler par une Ordonance du Roi.

ولاشك أن ازدهار صناعة الحلى وأدوات الزينة من الأحجار الكريمة ومن الذهب والفضة فى المناطق الصليبية جاء لمواجهة احتياجات الأمراء والأثرياء فى المجتمع الصليبى، وذلك نتيجة لتزايد الثروة ، وقد تعددت أنواع هذه الحلى وأدوات الزينة والمقتنيات التى حرص عليها ثراة القوم وتوضع قائمة كاتدرائية أنطاكية التى يرجع تاريخها إلى عام ١٢٠٩م كثيراً من هذه الأنواع، فكانت تشمل ضمن محتوياتها ، كأسًا مصنوعًا من الأحجار الكريمة وصندوقا مزينا بالجواهر والأحجار الكريمة لحفظ مجلدين من الإنجيل وأربع علب قربان من الفضة ومشطين من العاج ، وزهرية للقديس شريم Chreme ، وأيقونة من الفضة ، وخواتم ذهبية ذات فصوص من الياقوت الأصفر وغيرها [٥].

1- Loc. Cit.

هايد : تاريخ التجارة، ص١٩١ .

2- Rey, Op. cit., p. 214 .

3- Anonymous, The City of Jerusolem., CF. P.P.T.S, vol, London, 1896, pp. 6,7 .

4- "Abrege des Assises des Bourgeoise"., p. 375; Rey, Op. cit., p. 229 .

5- Rey , Les Colonies Franques., p. 230 .

ويرتبط بالصناعات الذهبية والفضية أيضا صناعة الهدايا التذاكارية ذات الأغراض الدينية، فقد ازدهرت هذه الصناعة فى المناطق الصليبية، وكانت هذه الهدايا تباع للحجاج المسيحيين وكانت تصدر إلى أوربا كذخائر مقدسة، وكانت هذه الهدايا عبارة عن صلبان وميداليات ، وشمعدان ، وصناديق مزينة بالذهب ومطعمة بالعاج لحفظ الكتاب المقدس (الإنجيل) [١].

وكانت الصناعات المعدنية ، الحديدية والنحاسية ، من الصناعات التى ازدهرت فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام، فقد كان معدن الحديد يوجد بكثرة بالقرب من بيروت فى جبال لبنان[٢]، وقد تم استغلاله فى القرن الثانى عشر الميلادى، وقد ذكر ابن بطوطة أن الصناعات الهامة كانت تصدر من ميناء بيروت [٣]. وبالإضافة إلى الحديد، كانت توجد عروق النحاس فى امانوس وفى مداخل حلب، وكانت تستغل بشكل غيرمنتظم كما كانت محاجر الرخام تستغل بالقرب من اللاذقية [٤]، واقتصرت الصناعات المعدينة على الصناعات الحديدية والنحاسية ، وكانت الصناعات الحديدية تشمل الأسلحة ، والآلات الحديدة المستخدمة فى الأغراض المنزلية كالسكاكين وغيرها، وتذكر المصادر المعاصرة أماكن وجود آثار الصناعات النحاسية فى قيسارية، وثمة دليل على وجود الصناعات النحاسية فى مدينة القدس فقد وجدت شبكات معدنية تحيط بقبة الصخرة ، وما تزال هذه الآثار محفوظة فى متحف الفن الإسلامى فى جبل المعبد فى القدس[٥].

وثمة صناعة هامة ازدهرت فى الموانىء الصليبية فى بلاد الشام نتيجة النشاط التجارى الصليبى، الذى شهدته هذه المنطقة، وهى صناعة السفن وإصلاحها، فقد ذكر الرحالة ثيودوريتش Theoderich أن الداوية والاسبتارية أسسوا داراً ضخمة لبناء السفن وإصلاحها

1- Benvenisti, The Crusaders in the Holy Land., p. 387 .

2- Rey, Les Colonies Franques., p. 223; S.C.M.H., vol , I, p. 354 .

٣- ابن بطوطة ، الرحلة، ص٦٢ .

4- Cahen, la Syrie Du Nord., p. 475 .

5- Benvenisti, Op. cit., p. 487; Rey, Op. cit., p. 223.

فى مدينة عكا، وقد أقيمت هذه الدار على شاطىء البحر، ومما يذكر أن السفن التجارية وسفن الحجاج كانت ترسو فى ميناء عكا، حيث يتم لها عملية الصيانة والإصلاح، وبعد أن تتم عملية الصيانة ، كانت تقل الحجاج العائدين إلى بلادهم فى أوربا(١).

وبالإضافة إلى الصناعات السابقة، ازدهرت صناعة أخرى ، هى صناعة الورق وقد انتشرت هذه الصناعة فى إقليم الجليل، وراجت تجارتها خارج الإقليم ، حيث كانت تنتج على نطاق واسع بقصد التصدير إلى الأسواق الخارجية (٢)، وازدهرت صناعة النبيذ فى المدن ذات الصبغة المسيحية، وقد عمل الصليبيون والشوام فى هذه الصناعة والتى كانت تعد موردا ثابتا من موارد الدخل المالى للمدن الصليبية، وأشار الرحالة بوركارد Burchard إلى شهرة نبيذ الأراضى المقدسة وجودته ، والذى كان يتفوق على جميع أنواع النبيذ فى العالم (٣).

وازدهرت صناعات ذات صبغة محلية مثل صناعة الصابون والتى تركزت بصفة رئيسية فى أنطاكية وطرطوس وصور وبيت المقدس وعكا (٤)، وبالإضافة إلى هذه الصناعات، ازدهرت أعمال أخرى مثل الجزارة والدباغة وصناعة الطحن ، والزيوت واستخراج الملح ، وصناعة الحصير(٥).

وهكذاساهم النشاط التجارى الصليبى فى منطقة الشرق العربى فى تطوير عدة حرف وصناعات لمواجهة الاحتياجات الملحة لنمط الاستهلاك المتزايد الذى أحدثته الثروة والثراء الواسع نتيجة الرواج التجارى فى كل من أوربا والشرق العربى، ولذا وجدت منتجات الشام الطبيعية والصناعية طريقها إلى أسواق أوربا ، ونشطت حركة التجارة بين الشرق العربى

1- Theoderich, Op. cit., p. 59 .

٢- ليلى طرشوبى: اقليم الجليل فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد (دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة،١٩٨٨) ، ص١٣٨ .

3- Burchard, Op. cit., pp. 16 , 89 , 101 ; Rey , Op. cit., 221; Conder, The Latin Kingdom., p. 241 .

4- Rey, Op. cit., p. 222; Benvenisti, Op. cit., p. 387 .

5- Rey, Op. cit., pp. 222, 23; Mayer, The Crusades., p. 151 .

والغرب الأوربى، وازدادت حركة تداول سلع وبضائع الإمارات الصليبية فى مناطق عديدة من العالم، وقد قام التجار الإيطاليون بهذا الدور التجارى سواء فى الداخل أو فى الخارج، ولذا يتبلور أهمية طرق التجارة الداخلية فى بلاد الشام فى تنشيط حركة التجارة، وقد تأثرت هذه الطرق بالدور التجارى للكوميونات التجارية وبالوجود الصليبى عموما .

فمن المعروف أن طرق التجارة الداخلية تساهم فى تنشيط حركة التجارة بين المدن والأقاليم بعضها مع بعض، وقد ارتبطت المدن والقرى والحصون فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام بشبكة متعددة من الطرق والمسالك واهتم الحكام الصليبيون بحراسة هذه الطرق وصيانتها ، وقد انقسمت هذه الطرق والمسالك إلى طرق رئيسية وهى الطرق الملكية (Vioe Regales) وطرق عامة (Vioe Magna, Communes au Puplicae وكانت الطرق العامة تعرف باسم الطرق القروية (Vioe Vicinales) وأن معظم هذه الطرق كانت موجودة قبل قدوم الصليبيين ، وحلت الطرق الملكية فى المناطق الصليبية محل الطرق الرومانية القديمة[١]، وساعدت هذه الطرق على سهولة حركة الاتصال بين القرى والمدن التابعة للنفوذ الصليبى فى بلاد الشام، فقد كانت الطرق الرئيسية تسلكها القوافل التجارية، ومن هذه الطرق طريق دمشق- عكا، الذى كان يمر ببادية طبرية بشمال الجليل مارا عبر شمال الأردن حيث مدن أربد فالقصير فطبرية وقد ذكر ابن جبير هذا الطريق أثناء رحلته إلى بلاد الشام فى عام ٥٧٩هـ ١١٨٤م ، وقد وصفه ابن جبير بأنه كان الطريق المطروق أكثر من غيره لسهولته [٢]، ولذا كانت تسلكه قوافل الجمال التى يتعذر عليها السير فى الطرق الوعرة الضيقة.

وثمة طريق آخر كانت تقصده القوافل التجارية من دمشق إلى عكا عبر مدن بيت جن ونابلس، حيث كانت تصل القوافل التجارية التى تمر عبر هذا الطريق إلى مكان تمكيس القوافل عند حصن تبنين[٣] ، ثم تصل بعد ذلك إلى عكا على الساحل ، وقد ذكر ابن جبير هذا

1- Rey, Les Colonies Franques., pp. 251-54 .

٢- ابن جبير : الرحلة، ص٢١٥ ؛ Rey, Op. cit., 251, 52

٣- تبنين : أوشقيف تورون، أو تيرون ، وهى قلعة منيعة ناقلة عن البحر وعلى مسيرة يوم من صفد وهى تقع على جبل عال تحيط بها السهول وهى بالقرب من صور وشيد الفرنج هذا الحصن عام ١١٠٥م (أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٣٤٥) .

الطريق ، ووصفه بأنه كان وعرا ضيقا من الصعب سلوكه أو وروده، ولذا كانت تقصده البغال ، لأنها تتحمل السير فى مثل هذه الشعاب الضيقة[١]. فقد كانت بانياس أيضا بمثابة نقطة الحدود بين المناطق الصليبية وبين المدن الإسلامية مثل دمشق ، وكانت بانياس أيضا تربط دمشق بمدينة صور بواسطة الطريق الذى كان يمر عبر تورون وحصن هونين وتبنين حتى يصل إلى مدينة صور[٢].

ومن الطرق الرئيسية للتجارة الداخلية أيضا ذلك الطريق الذى ذكره الرحالة ثيودوريتش الذى كان يربط عكا بمدينة المقدس، وهو الطريق الذى كان يمر عبر مدن الناصرة وجبنين ونابلس، وكان يسمى الطريق العلوى كما ذكر ثيودوريتش طريقا آخر كان يربط عكا بمدينة القديس ويمر عبر قيصرية واللد، وكان يسمى طريق الساحل[٣]، وكان هناك طريق يربط الناصرة بعكا عن طريق صفورية [٤].

وكانت هناك طرق تجارية أخرى تربط مدينة القدس بالمدن الساحلية الأخرى فقد ذكر سيولف Saewulf أثناء رحلته إلى الأراضى المقدسة فى أوائل القرن الثانى عشر من الميلادى، الطريق من يافا إلى مدينة بيت المقدس، وهو الطريق الجبلى الذى كان يستغرق مسير يومين، وكان يسلكه الحجاج والتجار من يافا إلى المدينة المقدسة[٥].

وكانت الكرك[٦] طريق القوافل التى تسير إلى أريحا وبيت المقدس وقد اعتمد النشاط التجارى لميناء يافا على هذا الشريان التجارى الهام[٧].

١- ابن جبير : المصدر السابق، ص٢١٥ ؛ .Rey, Les Colonies Franques., p. 254

2- Rey , Op. cit., p. 254 .

3- Theoderch, Op. cit., p. 69; Rey, Op. cit., p. 254.

4- Rey, Op. cit., 254 .

5- Saewulf, Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem and the Holy Land Cf. P.P.T.S, vol , VI, London , 1896, p. 8 .

٦- الكرك : وهو بلد مشهور وله حصن عالى المكان ، وهو أحد المعاقل بالشام وتحت الكرك واد فيه بساتين كثيرة ، وهى على أطراف الشام من جهة الحجاز وبين الكرك والشوبك نحو ثلث مراحل. (أبوالفدا، تقويم البلدان، ص٣٤٧).

7- Rey, Les Colomies Franques., p. 202 .

وإذا كانت الطرق التجارية السابقة هى الطرق الممتدة من الشمال إلى الجنوب والتى خدمت التجارة الداخلية لبلاد الشام فإن الطريق التجارى الممتد من الشرق إلى الغرب والذى كان يصل إلى مدينة الرقة ماراً بساموساطة والرها وحران [١]، ومن مدينة الرقة يمتد الطريق التجارى عبر مجرى نهر الفرات حتى إلى الغرب من بالى[٢] Balis ثم يبتعد وينحرف طريق القوافل لكى يصل إلى حلب فى أربع مراحل، وعند حلب يتفرع هذا الطريق التجارى إلى فرعين رئيسيين يصلان إلى البحر المتوسط عند أنطاكية من جهة ، واللاذقية من جهة أخرى[٣]، ولم تكن أنطاكية ثغراً على البحر ، وإنما كانت متصلة بالبحر بطريق طوله من عشرة إلى اثنى عشر ميلا، ينتهى إلى ميناء سان سيمون (السويدية) الواقعة على مصب نهر الأورنت (العاصى) على الضفة الشمالية منه[٤]. وأما اللاذقية ، فإنها تقع على شاطىء البحر وميناؤها من أجمل موانىء الشام، فقد كانت اللاذقية ميناء تصدير رئيسى لسوق حلب[٥]، وكان ميناء جبلة الذى يبعد عن حلب نفس المسافة التى تبعد عنها أنطاكية واللاذقية، يتلقى جزءاً من البضائع الواردة من الفرات ، وكان استيطان الجنويين بها أكبر دليل على أهمية جبيل التجارية ولذا كان هناك طريق تجارى من حلب إلى ميناء جبيل على البحر المتوسط[٦].

وثمة طريق تجارى آخر، كانت القوافل التجارية تسلكه من الرقة عبر الرصافة[٧] وسلمية

١- الإدريسى : نزهة المشتاق، ص٣٣٥، هايد : تاريخ التجارة ، ص١٨٠ ، ١٨١ .

٢- بالس : من جند قسرين ، ومدينة بالس كانت مسكونة وهى صغيرة على شط الفرات الغربى على بعد أربعة أميال منه، وهى أول مدن الشام من العراق وفى شرقيها الرقة، (أبو الفدا ، المصدر السابق، ص٣٤٩؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان، المجلد الأول، ص٣٢٨) .

3- Rey , Op. cit., p. 200;

هايد : تاريخ التجارة، ص١٨٠، ١٨١ .

4- De Vitry, Op. cit., p. 11 .

5- De Vitry , Op. cit., p. 21; Rey, Les Colonies Franques., pp. 199, 200 .

هايد : تاريخ التجارة، ١٨١ .

٦- هايد : المرجع السابق ، ص١٨١ .

٧- الرصافة : من جند قنسرين أحد أجناد الشام، وهى على أقل من مسافة يوم عن الفرات، فى الجانب الغربى منه، (أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٣٧١) .

لتصل إلى مدن حماه وحمص الواقعتين على وادى نهر الأورنت (العاصى) ، ثم تأخذ القوافل التجارية طريقها من حمص إلى ميناء طرطوس على البحر المتوسط، فقد ذكر الاصطخرى أن ميناء طرطوس هو مرفأ حمص[١].

ولاشك فقد ازدهرت هذه الطرق التجارية فى بلاد الشام إبان الفترة الصليبية وذلك بسبب نشاط القوافل التجارية وتعددها وازدهار تجارة السلع الشرقية التى حرص التجار الإيطاليون على حملها من الأسواق الإسلامية المجاورة إلى أسواق أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، ونظرا لأهمية الطرق التجارية فقد حرص الحكام الصليبيون على صيانتها وحمايتها، وقد شهدت فترات السلم والهدنة بين المسلمين والصليبيين عبور العديد من القوافل التجارية الآتية من مصر ودمشق إلى المناطق الصليبية أو إلى المدن الإسلامية الواقعة فى شمال بلاد الشام، وكانت هذه القوافل تستخدم الطرق التجارية فى المناطق الصليبية، مقابل دفع رسوم على هذه المتاجر، وكان الأمراء الصليبيون يقومون بجباية هذه الرسوم والتى كانت مصدراً من مصادر الدخل للحكام الصليبيين[٢].

وقد تمخض عن النشاط التجارى المزدهر الذى شهدته منطقة الشرق العربى فى الفترة الصليبية ، ظهور بعض المراكز التجارية الهامة فى بلاد الشام مثل عكا وصور وطرابلس وأنطاكية واللاذقية ، وقد لعبت هذه المدن دورا هاما فى المجال التجارى، وتأتى مدينة عكا فى مقدمة هذه المراكز التجارية التى تبوأت مكانة مرموقة فى النشاط التجارى بالقسطنطينية[٣]، وقد ساعدها على ذلك عوامل عديدة منها: حسن موقعها، ومينائها المزدوج الحصين ، ووجود الجاليات الإيطالية بكثرة فى الأحياء المخصصة لهم فى المدينة، وخاصة فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى المخصصة لهم فى المدينة، وخاصة فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى، بعد أن أصبحت العاصمة السياسية والدينية للمملكة الصليبية بعد استرداد المسلمين مدينة القدس بعد معركة حطين الشهيرة فى عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٧م.

١- الاصطخرى : المسالك والممالك ، (تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحينى ، القاهرة ١٩٦١م) ص٤٧؛ هايد، المرجع السابق ، ص١٨٢ .

٢- ابن جبير، الرحلة ، ص٢٠١ ؛ Rey , Op. cit., pp. 251-54 .

٣- نفس المصدر ، ص٢١١ .

كانت عكا من أهم موانىء المملكة الصليبية، فكان ينزل هناك أعداد كبيرة من التجار والحجاج ، وكان الميناء الفسيح الآمن يأوى عددا من السفن المخصصة لنقل البضائع والحجاج ، فقد ذكر الرحالة ثيودوريتش أنه أحصى ثمانين سفينة فى ميناء عكا أثناء رحلته بالإضافة إلى السفينة التى جاء على متنها[١]. ولذا كان التجار يجدون فرصا كثيرة لتصدير المنتجات الشامية والشرقية إلى أوربا، وقد شهدت عكا نشاطا تجاريا عظيما ، ويشهد بذلك الرحالة ابن جبير الذى زارها، فوصفها بأنها « ... قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحط الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، مرفأ كل سفينة ... وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق سككها وشوارعها تغص بالزحام ... » [٢]. ولعبت مدينة عكا دورا هاما فى التجارة الداخلية بين مدن الشام ، فقد كانت الميناء الطبيعى لدمشق ، حيث كانت منفذا هاما لتصريف منتجات دمشق، فضلا عما كان يخرج منه من السفن لتزويد أسواق آسيا وأوربا بما يلزمها من الإمدادات والمؤن والسلع [٣]، وظلت مدينة عكا كذلك حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، ويلى عكا فى الأهمية التجارية مدينة صور، وهى مدينة تجارية زاهرة ، يذهب إليها التجار من جميع الأنحاء ، ومستودع فسيح تتيح للسفن الوطنية والأجنبية مأوى أمينا ، بفضل مينائها المزدوج الواسع، وحصونها المنيعة فقد أشار الرحالة المسلمون والأجانب إلى اتساع ميناء صور بدرجة تسمح لاستقبال السفن الكبار، فكان يفوق ميناء عكا اتساعا وأمنا[٤].

ولابد أن نشير هنا إلى أهمية صور فى التجارة الداخلية لبلاد الشام فقد كانت ميناءا هاما للمدن الداخلية فى بلاد الشام وخاصة بالنسبة لبعض المدن التجارية الهامة مثل دمشق :

1- Theoderich, Op. cit., p. 60 ; Burchard, Op. cit., pp. 9,10 ; Joannes Phocas; Abrief Description, CF, P.P.T.S, vol, V London, 1896, p. 11 ; Danial, Op. cit., p. 55 .

٢- ابن جبير : المصدر السابق، ص٢١١ .

3- Danial, Op. cit., p. 55 .

٤- ابن جبير ، المصدر السابق، ص٢١٢، ٢١٣ ؛

Benjamin of Tudela , Op. cit., p. 270 ; Theoderich, Op. cit., p. 73 ; De Vitry, Op. cit., pp. 16,17 Burchard, Op. cit., pp. 11,12 ;

ناصر خسرو : سفر نامه، ص١٦١٥ .

والتى كانت مركز تتجمع فيه معظم منتجات الشرق. وكانت دمشق؛ تستخدم المنافذ البحرية الهامة مثل صور وعكا وصيدا، فقد كانت هذه المدن البحرية لاتبعد كثيرا عن دمشق، ثلاثة أيام من بيروت وصيدا وأربعة أيام من صيدا وعكا[١]، وإذا كان التجار الإيطاليون قد أقاموا وكالات تجارية لهم فى بعض مدن الشام الساحلية، فإنهم أيضا مدوا هذا النشاط التجارى إلى داخل البلاد، فكانوا يذهبون إلى أسواق دمشق وحلب ولذا انشأوا فروعا تجارية لهم فى هذه المدن الداخلية، وقد استخدموا ميناء صور فى تصدير السلع والبضائع إلى أسواق أوربا، ومن هنا برزت أهمية مدينة صور كمركز تجارى تأثر بالدور التجارى الإيطالى، وبالوجود الصليبى بشكل عام .

ومن المراكز التجارية الهامة فى بلاد الشام والتى تأثرت بالنشاط التجارى الصليبى، مدينة بيروت، وذلك بفضل موقعها الساحلى، وميناءها الرائع الذى كان يستقبل السفن التجارية الأوربية[٣]. وقد برزت أهمية بيروت التجارية فى الفترة الصليبية، إذ كانت فى سوق بيروت الفلفل والبخور والنيلة (مادة صباغة) وخشب البقم، واللآلىء[٤]. ولذا كان يتردد عليها التجار فى موسم التجارة محملين بالسلع الشرقية ويعودون محملين بالسلع الغربية، وقد لعبت مدينة بيروت دورا هاما فى التجارة الداخلية لبلاد الشام، وذلك لأنها كانت ميناء دمشق على البحر المتوسط[٥]، حيث كانت تمر به السلع التى تصل إلى دمشق من البحر المتوسط، أو التى تخرج منها إلى أوربا، كما أن ميناء بيروت كان السوق الطبيعى

١- الاصطخرى : المسالك والممالك، ، ص٤٨ ، ٤٩ ، هايد : تاريخ التجارة، ص١٨٥ .

2- Thompson, J.W., Economic and Social Gistory of Middle Ages, vol , I, new York, 1959, p. 404 ,

هايد ، المرجع السابق ، ص١٨٥ .

٣- ابن شاهين : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (تصحيح بولى راوين ، باريس، ١٨٩٢م) ص٤٨ ؛ Phocas, Op. cit., pp. 9,10 ; De Vitry, Op. cit., pp. 5,6 .

٤- هايد : تاريخ التجارة ، ص١٨٦ .

5- Anonymous Pilgrims, Op. cit., Op. cit., pp. 49,50 .

لمنتجات دمشق المحلية، ولذا كانت بيروت المركز الرئيسى للجنويين والبيزيين [١]، وقد استطاع أمراء بيروت الصليبيون توسيع المرفأ التجارى للمدينة ، مما جعل لها مركزا حسنا فى تصدير البضائع الشرقية المطلوبة بإلحاح إلى أسواق أوربا، وأهمها التوابل والبهارات والتى كانت مرتفعة الثمن فى أوربا آنئذ[٢].

ويأتى ميناء طرابلس فى المرتبة الثانية بعد بيروت بالنسبة لتجارة الشام فى الفترة الصليبية، الخارجيةمنها والداخلية [٣]. فهو مخرج حلب، كما أنه صلة التجار الأجانب من آسيا وأوربا والتجار الشاميين من حمص وحلب ودمشق وحماه وبعلبك [٤]، فقد كانت مخازن طرابلس مكتظة بالبضائع الثمينة، وميناؤها الواسع يجذب إليه السفن من كل البلاد ، وسكانها خليطًا من جنسيات مختلفة يمارسون التجارة والصناعة بنشاط [٥]، وكان الميناء هو المركز التجارى والصناعى الهام للمدينة، كما كان مركزا النشاط السماسرة ، والوسطاء التجاريين[٦]. وقد أشار الرحالة الأجانب إلى أهمية موقع طرابلس وثروتها المتزايدة إبان الفترة الصليبية[٧].

وهكذا توافرت لمدينة طرابلس معظم المقومات التى ساعدتها فى إبراز الدور التجارى لها ، وكان أهم هذه المقومات جميعا ، الوجود الإيطالى بها ، حيث مارس التجار الإيطاليون نشاطهم التجارى بالمدينة، ولذا أصبحت مركزا تجاريا هاما فى الفترة الصليبية .

١- هايد، المرجع السابق، ١٨٦ ؛ محمد كرد على، خطط الشام،(مطبعة الترقى دمشق ، ١٩٢٦م) ، جـ٤، ص٢٦٨ .

٢- الأب لامنس اليسوعى: الحياة فى بيروت على عهد الصليبيين (مجلد المشرق مجلد ٣١ ، بيروت ١٩٣٣) ، ص٨٥٥ .

٣- ناصر خسرو: المصدر السابق، ص١٣ ؛ . De Vitry, Op. cit., p. 11

٤- هايد : تاريخ التجارة، ص١٨١، ١٨٢ ؛ نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها فى العصور الوسطى (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣)، ص١٥١ .

5- Burchard, Op. cit., p. 16 .

هايد : المرجع السابق، ص١٨٢، ابن بطوطة، الرحلة ، ص٥٠ .

6- Holmest U.T., "Life Among The Europeana in Palestine and Syria in The Twelfth and Thirteenth Century, CF, Setton, vol, IV, NewYork, 1976, p. 14 .

وتعتبر مدينة أنطاكية ضمن المراكز التجارية الهامة فى بلاد الشام فى الفترة الصليبية وقد ازداد نشاطها التجارى بفضل موقعها الفريد فهى تقع على ضفاف نهر الأورنت (العاصى) ، وترتبط بالبحر عن طريق ميناء سان سيمون (السويدية) ، وقد أتاح لها هذا الموقع الاتصال الدائم والمستمر بمدينة حلب المتصلة بالرقة وغيرها من مدن الفرات، كما كانت على اتصال دائم بالمدن التجارية الواقعة على نهر دجلة كالموصل وبغداد والبصرة، فقد كانت أنطاكية منفذا لتجارة حلب، وكان يتردد على مينائها الواقع على البحر السفن التجارية الإيطالية ، ومما ساعد على ازدهارها التجارى أيضا خلال الفترة الصليبية وجود التجار الإيطاليين فى الأحياء المخصصة لهم فى المدينة، بفضل الامتيازات التى حصلوا عليها بالإضافة إلى شهرتها الصناعية وخاصة الحرير والبسط والزجاج والفخار والصابون مما جعل القوافل التجارية القادمة من حلب والجزيرة من اجتياز أبوابها وهى فى طريقها إلى البحر[٣]. كما استطاع الإيطاليون المستقرون فى مدينة أنطاكية الذهاب بمحاجرهم إلى أسواق حلب الشهيرة عبر الطريق التجارى الذى يربط بين المدينتين فقد كان البيزيون فى أنطاكية فى حوالى عام ١٢٠٠م يتاجرون ببضائعهم فى داخل البلد، وأن وجهتهم كانت حلب لأنهم يدفعون رسوما على متاجرهم لأمير أنطاكية عند مرورهم على جسر نهر الأورنت (العاصى) وهو الآن جسر الحديد على طريق أنطاكية -حلب[٤].

وهكذا تأثرت مدينة أنطاكية بالدور التجارى الذى قام به التجار الإيطاليون خلال الفترة الصليبية وازدهرت تجارتها ووصلت إلى درجة عالية من الثراء كما ذكر ابن عبد الظاهر[٥].

1- De Vitry, Op. cit., p. 11; Burchard, op. cit., p. 16;

ابن شاهين : المصدر السابق، ص٠٥ .

٢- هايد : تاريخ التجارة، ص١٨٠ .

٣- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢ ، ص٢٣ .

٤- هايد : تاريخ التجارة، ص١٨٠ .

٥- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص٣٢٤ .

ومن المراكز التجارية الهامة فى بلاد الشام فى الفترة الصليبية مدينة اللاذقية تلك المدينة التى كانت فى اتجاه أنطاكية ، وذات الموقع الفريد على البحر المتوسط، وقد امتدحها دى فيترى De Vitry وامتدح موقعها ، ومنتجاتها الغنية[1]، ومما ساعد على إبراز دورها التجارى موقعها الساحلى واستقبالها للمتاجر الشرقية الآتية من أسواق حلب، حيث كانت السفن الإيطالية تحملها من ميناء اللاذقية إلى أسواق أوربا[2]. فقد كان ميناء اللاذقية من أجمل موانىء الشام، وكانت آنئذ حصينة مفتوحة لكل السفن ، وظلت اللاذقية على نشاطها التجارى حتى بعد فتور الصراع الإسلامى الصليبى ودليل ذلك ما ذكره الأنصارى الدمشقى إذ قال «والميناء الذى باللاذقية من أعجب الموانى فى البحر وأوسعهم، ولايزال حاملا للسفن الكبار وعليه سلسلة من حديد حاصرة المراكب مانعة من مراكب العدو[3].

وبالإضافة إلى اللاذقية ، فإن مدينة جبيل كانت مركزا تجاريا هاما فى بلاد الشام خلال الفترة الصليبية، وذلك بفضل مينائها الجميل الذى يقع على البحر المتوسط ، وعلى الرغم من صغر ميناء جبيل فانه كان يتلقى جزءاً من البضائع الواردة من مناطق الفرات وقد ساهم التجار الإيطاليون وخاصة الجنوية فى تطوير ميناء جبيل وازدهار النشاط التجارى فى المدينة [5]، ويؤكد بوركارد على الأهمية التجارية لميناء جبيل بقوله إن معظم السفن التجارية كانت تقصد هذا الميناء لكى تمارس نشاطها التجارى فيه [6].

وثمة مراكز تجارية أقل أهمية على طول الساحل الجنوبى لبلاد الشام ومن أبرز هذه المراكز مدينة صيدا، فقد كانت صيدا «ميناء دمشق على البحر المتوسط ترد إليها المراكب»[7].

1- De Vitry, Op. cit., p. 21; Phocas, Op.cit., p. 8 .

٢- هايد : تاريخ التجارة، ص١٨٠، ١٨١ .

٣- الأنصارى الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، (طبع مدينة ليبزج، ١٨٦٥)، ص٢٠٩ ؛ ابن بطوطة : المصدر السابق، ص٦٠ .

٤- ناصر خسرو : المصدر السابق، ص١٤ .

٥- هايد : المرجع السابق، ص١٨١ .

6- Burchard, Op. cit., p. 15 .

٧- ابن شاهين : المصدر السابق، ص٤٧ .

وكان ميناء يافا أقرب من وسط المملكة الصليبية، ومن مقصد الحجاج[١]، لذا كان يستقبل كثيرا من سفن الغرب طالما بقى الصليبيون سادة بيت المقدس، وحتى بعد سقوط المدينة المقدسة، وعلاوة على ذلك كان ميناء يافا تستجمع فيه التجارة الداخلية من نابلس وغزة والرملة وبيت المقدس[٢]، وذلك لبيعها للحجاج المسيحيين الذين يصلون المدينة وهم فى طريقهم إلى مدينة بيت المقدس .

وكانت مدينة طبرية أهم مدن وادى نهر الأردن فمنها إلى صور يوم ومنها إلى بيسان يومان، ومنها إلى عكا يوم [٣]، كما كانت طبرية تبعد عن دمشق مسيرة أربعة أيام، وهذا الجوار جعل من مدينة طبرية مدينة تجارية هامة ، وكانت البضائع التى تصدرها المدينة ترسل عن طريق ميناء حيفا الواقع عند سفح جبل الكرمل[٤].

ويجب ألا ننسى مدينتى دمشق وحلب كمركزين من المراكز التجارية الهامة ببلاد الشام فى الفترة الصليبية، فقد كانت دمشق من أشهر المراكز التجارية فى بلاد الشام وكانت تحفل بالأسواق العديدة والمليئة بشتى أنواع البضائع والسلع وقد أشار ابن جبير إلى ازدهار النشاط التجارى بها أثناء رحلته إلى بلاد الشام فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى[٥]. فقد كانت دمشق مستودعا لمتاجر الشرق الأقصى تتلقى توابل الهند من جهتين عن طريق الخليج العربى ونهر الفرات، وعن طريق عدن ومكة ولهذا راجت التجارة فيها، واكتظت بالسلع وقد استفادت دمشق أيضا من الحركة التجارية النشطة خلال الفترة الصليبية وأصبحت سوقا رائجة للتجارة الداخلية والخارجية [٦]. كما كان سكان دمشق بارعين أذكياء، ينتجون مواد ذات قيمة

١- هايد : المرجع السابق، ص١٨٦ ، ١٨٧، . Saewulf, Op. cit., pp. 5,6

2- Danial, Op. cit., pp. 9,53 .

٣- الاصطخرى: المسالك والممالك ، ص٤٩ .

٤- الإدريسى: نزهة المشتاق، ص٣٢٥؛ هايد : تاريخ التجارة، ص١٨٥ .

٥- ابن جبير : الرحلة ، ص٢٠٢، Wurzburg, Op. cit., p. 65 ; Anonymous; Pilgrims, Op. cit., p. 50 .

6- De Vitry, Op. cit., p. 23 ; هايد : تاريخ التجارة ، ص١٨٢ .

تجارية عالية مثل الأقمشة الحريرية على اختلاف أنواعها، وبخاصة الديباج المطرز بخيوط ذهبية ، كما اشتهرت دمشق بصناعة الأسلحة وكان لسيوف دمشق شهرة عالمية[١]. وقد شهدت فترة السلم بين المسلمين والصليبيين تردد التجار الإيطاليين إلى أسواق دمشق، مما أدى إلى ازدياد النشاط التجارى بها، فقد كانت قوافل التجارة من دمشق إلى عكا أو بالعكس مستمرة لاتتوقف [٢]، مما يثبت أهمية دمشق كمركز تجارى هام فى بلاد الشام.

وكانت حلب من مراكز التجارة الداخلية الهامة فى بلاد الشام مثلما كانت دمشق ، حيث كانت حلب تمثل نقطة التقاء القوافل التجارية الآتية من الموصل والرقة وبالس Balis وهى فى طريقها إلى أنطاكية أو إلى مملكة أرمينيا الصغرى، وكانت حلب مستودعا لبضائع الشرق الأقصى والتى كانت تصدر إلى أوربا وقد استفادت حلب من هذا الموقع الهام، وأصبحت مكان التقاء التجار من كل الأجناس وكان هؤلاء يلقون الترحاب[٤]. وقد زار حلب كثير من الرحالة وأشاروا إلى اتساع المدينة وازدحامها بالتجار، وامتلاء حوانيتها بالسلع والمنسوجات والزجاج وغيرها، «وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة »[٤]. كما لعبت مدينة حلب دورا تجاريا هاما فى تجارة أنطاكية الصليبية يماثل الدور الذى لعبته مدينة دمشق فى تجارة مملكة بيت المقدس الصليبية[٥].

لقد كانت التجارة تمثل أهمية حيوية بالنسبة للمسلمين والصليبيين معا، وذلك نظرا لما كان يجنيه الطرفان الإسلامى والصليبيين من موارد مالية من عائد هذه التجارة فى صورة ضرائب ورسوم جمركية على قوافل التجارة، ولذا حرص الطرفان على الاهتمام بالتجارة واستمرار النشاط بينهما فى أوقات السلم، وتقديم كافة التسهيلات للتجار ومساعدتهم للقيام بعملية البيع والشراء داخل أسواق المملكة الصليبية، وحرص المسلمون على تقديم المساعدات للتجار

1- Rey, Les Colonies Franques., pp. 214, 15; هايد : تاريخ التجارة، ص١٨٢ .

٢- ابن جبير ، الرحلة ، ٢٠١ .

3- Rey , Op. cit., pp. 199,200 .

٤- ابن جبير : المصدر السابق ، ص١٨٧ ، ناصر خسرو: المصدر السابق، ص١٠ ، ابن بطوطة، ص٣٥ .

5- Rey, Op. cit., p. 198 .

والحجاج الأجانب لضمان زيارة الأماكن المقدسة، لما يعود عليهم من إيراد فى مواسم الحج فى الفترة الصليبية[١].

لقد حرص الحكام الصليبيون منذ فترة باكرة من الوجود الصليبى فى بلاد الشام على الاهتمام بتشجيع التجارة فى المملكة الصليبية فقد قام الملك بلدوين الثانى(١١١٨-١١٣١م) فى عام ١١٢٤م، بإعفاء كافة سكان المملكة والتجار من الضرائب والالتزامات على الصادرات، والمواردات التى كانت ترد إلى مدينة بيت المقدس ، كما أعطى امتيازا للمواطنين بالبيع والشراء دون دفع ضرائب وأتاح لهم جلب كافة أنواع المتاجر من القمح والشعير وأنواع أخرى من السلع ، وإعفاء المواطنين جميعا من الصليبيين والشوام من دفع الرسوم المستحقة على الموازين والمكاييل وكان من نتيجة هذه السياسة أن توافرت السلع فى المدينة وانخفض سعرها وأقبل عدد من التجار للإقامة والاستقرار فى مدينة القدس[٢].

والواقع أن الحروب الصليبية التى اشتد أوارها بين المسلمين والصليبيين لم تؤثر على حركة التجارة بين الطرفين ، ولكن استمرت التجارة بينهما على الرغم من هذه الحروب [٣]، وقد دلل ابن جبير على ذلك بما شاهده من نشاط تجارى بين دمشق الإسلامية وعكا الصليبية[٤]، وعلى الرغم من قيام أرناط صاحب حصن الكرك الصليبى باعتراض القوافل التجارية الإسلامية ونهبها وهى فى طريقها من مصر إلى الشام، كان القوافل التجارية لم تتوقف بين الطرفين، واعتادت القوافل التجارية الإسلامية السير من دمشق إلى عكا، وقد التحق ابن جبير باحدى هذه القوافل ، وقد صور النشاط التجارى بين الطرفين الإسلامى والصليبى رغم كثرة الحروب بينهما بقوله: «ومن أعجب ما يحدث فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين ... وأهل الحرب مشغولون بحربهم والناس فى عافية والدنيا لمن غلب» [٦].

1- Anonymous, The City of Jerusalem., p. 3 ; Wurzburg, Op. cit., p. 46 .

2- William of Tyre, Op. cit., vol , I, pp. 537, 38 ; Benvenisti, Op. cit., p. 39 .

3- Runciman, S., A History of Crusades, vol , II, Cambridge, 1954, p. 319.

٤- ابن جبير : الرحلة ، ص٢١١ ؛ Rey,Op. cit., p. 254 .

٥- بهاء الدين ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، (تحقيق د.جمال الدين الشيال، ط١، القاهرة ١٩٦٤)، ص٦٦ .

٦- ابن جبير : الرحلة، ص٢٠٨ .

وقد ذكر أسامة بن منقذ أيضا استمرار النشاط التجارى بين مدن الشام بالرغم من الحروب الصليبية [١]. وكانت قوافل التجار المسلمين من دمشق إلى عكا أمرا مألوفا وليس طارئا، «... واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك، وتجار النصارى أيضا لايمنع أحد منهم ولايعترض ...»[٢]. وكانت القوافل التجارية الإسلامية التى تمر بالمناطق الصليبية تدفع رسوما معلومة للسلطات الصليبية كما كان التجار الصليبيون يدفعون الضرائب على متاجرهم فى المناطق الإسلامية[٣].

وأكد الرحالة الذين زاروا الأراضى المقدسة فى الفترة الصليبية العلاقات الطيبة التى قامت بين التجار المسلمين والتجار الصليبيين ، فقد كان التجار الإيطاليون فى سلام ووئام مع المسلمين بصورة أكبر من السلام فيما بينهم[٤].

ويذكر ابن الأثير مثالاً حيًا على استمرارية العلاقات التجارية بين المسلمين والصليبيين وهو قيام التجار المسلمين بالاتجار مع الصليبيين منتهزين فرصة غلاء أسعار الحبوب والسلع وذلك لتحقيق أكبر قدر من الأرباح ، إذ راحوا يهربون الغلال إلى الصليبيين بأثمان مرتفعة، ومن أولئك التجار رجل يدعى سليمان ، نقل إلى إمارة أنطاكية الصليبية كمية من الغلال والحبوب، وباعها لحسابه الخاص، وكذلك قيام مستحفظ بيروت، وسيف الدين ابن المشطوب مستحفظ صيدا يحمل الطعام والغلال لبيعها إلى الصليبيين ببلاد الشام[٥]، كما ذكر المقريزى فى حوادث عام ٥٧٧هـ/ ١١٨٢م أن تجاراً من مصر من عرب الشرقية ومن قبيلة جذام وثعلبة فى البحيرة كانوا يحملون الغلال إلى بلاد الإفرنج بالشام[٦].

١- أسامة ابن منقذ : الاعتبار، (تحقيق د. فيليب حتى، برنستون، ١٩٣٠م)، ص٧-١٢ .

٢- ابن جبير : المصدر السابق، ص٢٠١ .

٣- نفس المصدر والصفحة .

4- Anonymous Pilgrims, Op. cit., 29 ; Burchard, Op. cit., p. 103 ; Ladocph, Op. cit., p. 55 .

٥- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ (بيروت ، ١٩٦٦) ، جـ١٢ ، ص٣٥ .

٦- المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٩٤ .

وبالإضافة إلى ذلك فقد ذكر ابن جبير أن الموانىء الصليبية فى بلاد الشام كانت تشهد نشاطا تجاريا إسلاميا ، ففى عام ١١٨٤م قام تاجران من تجار دمشق المياسير بممارسة نشاطها التجارى مع الصليبيين وكانت لها وكالات ومكاتب تجارية فى مدينة عكا الصليبية وكان أحدهما يعرف بنصر الدين بن قدام، والثانى كان يعرف بأبى الدر ياقوت مولى العطافى، وكانت قوافلهما التجارية المنتظمة تغدو وتروح بين دمشق وعكا فى حرية تامة، واكتسب هذان المتاجران ثقة حكام دمشق وبيت المقدس ، «... وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير... »[١].

ولاشك أن النشاط التجارى بين المسلمين والصليبيين كان نتيجة طبيعية من نتائج سياسة التسامح التى انتهجها كل من الحكام المسلمين والصيبيين إزاء التجار وقيام السلطات الإسلامية والصليبية بحماية التجارة وتأمينها ، كالإشراف على الطرق التجارية وتوفير الأمن والراحة للقوافل التجارية التى ترتاد كلا من الأقطار الإسلامية والمناطق الصليبية. وقد بذل المسلمون والصليبيون جهدا كبيرا فى توفير هذا الأمن.

لقد وجد الصليبيون فى الحروب الصليبية فرصة طيبة لتحقيق أكبر مكاسب تجارية لهم فى منطقة الشرق العربى، ولذا حرص الحكام الصليبيون منذ الوهلة الأولى على إنعاش التجارة مع المسلمين ، مما يؤكد أهمية العامل الاقتصادى وقوته كدافع من دوافع الحروب الصليبية ولذا اهتم الحكام الصليبيون بتأمين طرق سير التجار والحجاج فى بلاد الشام وأسند الملوك الصليبيون هذه المهمة إلى فرسان الداوية[٢]، الذين قاموا بانشاء الأبراج والقلاع على طول الطريق من القدس إلى باقى بلاد الشام ، وكان فرسان الداوية يقومون بمهمة حماية الحجاج الذين يرغبون فى الذهاب إلى نهر الأردن ، وحماية الرحلات التجارية التى كانت تسير ليلا، وذلك من إخطار قطاع الطرق الذين كانوا يعترضون التجار ويسلبون أموالهم[٣]، والذى

١- ابن جبير : المصدر السابق، ص٢١٤ ، ٢١٥ .

٢- الداوية : إحدى الهيئات الدينية العسكرية اللاتين، وقد أخذ أعضاء هذه الهيئة من الفرسان على عاتقهم مهمة حماية الحجاج المسيحيين الذاهبين إلى بيت المقدس، وعرف أعضاء هذه المهيئة باسم الهيكليين وكان لها دور كبير فى تاريخ الوجود الصليبى فى المنطقة العربية، (De Vitry, Op. cit., pp. 48-51)

3- Theoderich , Op. cit., pp. 46-48 ; Danial , Op. cit., p. 26, Mayyer The Crusades., p. 151 .

وصفهم ابن جبير بأنهم « ... يغفل الحكام الصليبيون مسألة توفير الأمن للتجار والحجاج على طول الطرق التجارية فى المناطق الصليبية، حيث ذكر أن قوافل المسلمين التجارية كانت تسلك الطريق من دمشق إلى عكا وكانت هناك شجرة بلوط تفصل الحدود بين الأقطار الإسلامية وبين المناطق التابعة للصليبيين وقد ذكر ابن جبير شجرة البلوط بشجرة الميزان، وكانت تقع بين قرية بيت جن وبانياس ، وفى ذلك يقول ابن جبير « ... ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت إلى مدينة بانياس واعترضنا فى الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم ، متسعة التدويح، أعلمنا أنها تعرف بشجرة الميزان ، فسألنا عن ذلك ، فقيل لنا هو حدّ بين الأمن والخوف فى هذه الطريق لحرامية الإفرنج ، وهم الحراسة والقطاع .. » [١] فقد كان الحراس الصليبيون مسئولين عن حماية الطريق التجارى الممتد من شجرة الميزان سالفة الذكر إلى مناطقهم وكان كل أمير صليبى مسئولا عن حماية القوامل التجارية التى تمر فى مناطق نفوذه نظير تحصيل الرسوم والضرائب المقررة على هذه المتاجر، وكانت هذه الرسوم تمثل موردا هاما من موارد الدخل المالى لهؤلاء الأمراء [٢].

وقد شارك ملوك بيت المقدس أيضا فى حماية التجارة وتأمينها فى مناطق نفوذهم ومثال ذلك ما قام به الملك الصليبى بلدوين الأول (١١٠٠-١١١٨م) من القضاء على أوكار اللصوص وقطاع الطرق على طول الطريق الممتد من بيت لحم إلى بيت المقدس، فقد أضرم النار فى مخائبهم ، مما سهل مهمة القبض عليهم وإعدام مائة منهم عقابا لهم على أفعالهم فى الحاق الأذى بالتجار والمارة من الحجاج [٣].

وقام الملوك الصليبيون أيضا ببناء الحصون والقلاع على امتداد طرق التجارة الداخلية لأغراض تجارية وعسكرية معا، مثل قلعة الشوبك الذى أطلق عليها الصليبيون قلعة مونتريال تكريما لمؤسسها الملك بلدوين الأول [٤]. وقد ساهمت هذه القلاع والحصون فى تأمين طرق التجارة الداخلية فى المناطق الصليبية والسيطرة على هذه الطرق.

١- ابن جبير : الرحلة ، ٢٠٩

Rey, Les Colonies Franques., pp. 251,52

2- Rey, Op. cit., pp. 251-53 .

3- William of Tyre, Op. cit., vol, II, p. 58 .

4- Ibid, vol, I, pp. 506, 514; Idem, vol, II, pp. 81, 132, 133 .

وبالإضافة إلى تأمين التجارة وحمايتها على طول الطرق التجارية والتى أدت إلى تنشيط التجارة بين المسلمين والصليبيين، فطن الصليبيون أيضا إلى أهمية معاملة التجار معاملة حسنة ولاسيما أثناء تحصيل الضرائب والمكوس . وذلك تشجيعا لهم على ارتياد أسواق المناطق الصليبية. ولذا كان موظفو الجمرك فى عكا يعاملون التجار المسلمين بلطف ولين، دون حمل أو تعنيف ، كما ذكر ابن جبير[١] عند زيارته إلى مدينة عكا الصليبية وقام الملك الصليبى بتكليف الفيكونت بالمحافظة على حقوق العامة فى الأسواق، ومراقبة المعابير التجارية المستخدمة فى الأسواق من مكاييل ومقاييس وموازين وغيرها[٢]. واهتم الصليبيون أيضا بالأسواق وزودها بوسائل الراحة، فرصفوا أرضيتها وسقفوا شوارعها بالقماش المتين لحماية رواد السوق من حرارة الصيف ومطر الشتاء[٣].

وإذا كان الحكام الصليبيون قد حرصوا على تأمين التجارة فى بلاد الشام، وقاموا بجهود كبيرة فى هذا الصدد من أجل استمرار النشاط التجارى مع المسلمين ، فإن الحكام المسلمين أيضا قد حرصوا على توفير الحماية لقوافل التجارة التى كانت ترتحل من مكة أو التى كانت ترتحل من بغداد أو الموصل أو من بلاد ارمينية الصغرى المسيحية، وهى فى طريقها إلى بلاد الشام أو إلى المناطق الصليبية[٤]، وذلك من إخطار قطاع الطرق ، وقد قام الملك الكامل الأيوبى بتخصيص الخفراء لحماية التجار من اعتداء هؤلاء اللصوص، وهذا خير دليل على حرص المسلمين على تأمين التجارة وحمايتها[٥].

وبالإضافة إلى توفير الأمن على امتداد الطرق لتجارية فى الأقطار الإسلامية، حرص الحكام المسلمون أيضا على توفير أماكن الإيواء والراحة للتجار الأجانب ، فقد حفلت المدن الإسلامية التجارية الشهيرة مثل دمشق وحلب وحماه وبغداد والموصل بعدد كبير من النزل والخانات لراحة التجار، وقد أشار ابن جبير إلى هذه الخانات والنزل وأعجب بها لروعتها

١- ابن جبير : الرحلة، ص٢١١ .

2- Runciman, Op. cit., vol, II, pp. 167, 168 .

3- Prawer, The Latin Kingdom of Jruslem. , p. 410 .

4- Conder, The Latin Kindom of Jursalem., p. 410 .

٥- المقريزى : السلوك ، جـ١، ص٢٦٠ .

ومتانتها [١]، كما اهتم المسلمين بأسواق فى المدن الإسلامية فيذكر ناصر خسرو مدى اهتمام المسلمين بأسواق طرابلس بأن جعلوا لها «مشرعة خاصة ذات خمسة صنابير، يخرج منها ماء كثير، يأخذ منه الناس حاجتهم»[٢]. كما قدم المسلمين التسيرات والعون للتجار والرعايا ، فقد مدح ابن جبير حسن معاملة أهل دمشق للتجار المارين بيلادهم بغض النظر عن ديانتهم أو جنسهم[٣]، فقد كان حرص المسلمين على تقديم المساعدات والعون للتجار والحجاج فى الفترة الصليبية بقصد ضمان زيارة الأماكن المقدسة ، لما يعود عليهم من موارد مالية فى مواسم الحج، وهكذا كانت بلاد الشام فى الفترة الصليبية كثيرة التقدير والمراعاة للتجار ، واتسمت سياسة الحكام المسلمين والصليبيين باللين والتسامح إزاء التجار نظرا للأرباح والعائدات المالية التى تعود عليهم من عائداتهم التجارة .

لقد كانت فترات السلم بين المسلمين والصليبيين أطول من فترات الحرب، ولاشك أن التجارة بينهما كانت تتوقف نتيجة اندلاع الحروب بينهما بشكل عنيف، ولهذا كان يجرى عقد الهدنة والمعاهدات بينهما لإنعاش التجارة بينهما، وما تلبث أن تعود التجارة بينهما إلى سابق نشاطها. وكانت بنود هذه المعاهدات تتضمن مسألة تأمين التجارة بينهما وحمايتها وقد شهدت الفترة الباكرة من الوجود الصليبى فى بلاد الشام مثل هذه المعاهدات التى كانت تقر حماية التجارة وتأمينها، فيذكر ابن القلانسى فى عام ٥٠٧هـ/ ١١١٨م أن الملك بلدوين الأول أرسل إلى الأمير مسعود وإلى صور، يلتمس منه المهادنة والموادعة ، وانعقد الأمر بينهما على الصلح، وأمنت السابلة للمترددين والتجار والسفار والواردين من جميع الأقطار»[٥]، وفى صلح الرملة الذى عقد بين صلاح الدين الأيوبى وريتشارد قلب الأسد فى ٢ سبتمبر ٥٨١هـ/ ١١٩٢م ، صار للمسلمين والصليبيين الحق فى أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الآخر، وقد أدى ذلك إلى تنشيط التجارة بين الطرفين وأدى زيضا إلى إقبال عدد كبير من الحجاج المسيحيين

١- ابن جبير : الرحلة، ص٢١١ .

2- Runciman, Op. cit., vol, II, pp. 167,168 .

3- Prawer, The latin Kingdom ., p. 408 .

4- Conder, The Latin Kingdom of Jrusalem., p. 410 .

٥- ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، (نشرة امدروز ، بيروت ١٩٠٨م) ، ص١٨٩ .

على بيت المقدس ، وذهب جماعة من المسلمين للتجارة فى يافا ، وقد ضمنت سلطات الجانبن توفير الأمن والحماية للتجار من الطرفين[١].

والواقع أن بنود الهدن والمعاهدات قد نظمت العلاقات التجارية بين الطرفين الإسلامى والصليبى، وضمنت تأمين التجارة بينهما، وقد تضمنت المعاهدات بنوداً خاصة بحسن معاملة التجار الأجانب والعمل على رفع الظلم عن كاهلهم، ونشر العدل بنيهم، وتأمينهم على أنفسهم وبضائعهم وأموالهم [٢]. كما نصت بنود هذه المعاهدات أيضا على تأكيد حرية التجارة، وحرية انتقال التجار من البلاد الإسلامية إلى المناطق الصليبية والعكس، وتأمين أموال وممتلكات التجار وحمايتهم فى البلاد الموقعة على هذه الهدن، ونجد هذه البنود واضحة فى المعاهدة[٣] التى عقدت بين الظاهر بيبرس وبين الاسبتارية على قلعة المرقب ببلاد الشام فى عام ٦٦٠هـ/ ١٢٧١م ، كما كان هناك بنود خاصة بالرسوم الجمركية، والإبقاء على الرسوم الجمركية القديمة والذى كان معمولا بها دون زيادة، « ... وعلى ألاتجدد على أحد التجار والمترددين رسم لم تجر به عادة ، كما يجرون على العوائد المستمرة والقواعد المستقرة من الجهتين... »[٤].

وقد نظمت المعاهدات أيضا كيفية نقل إرث التاجر المتوفى فى بلد الطرف الآخر إلى ورثته فى بلده ، فجاء فى أحد بنود معاهدة المنصور قلاوون مع الصليبيين فى عكا فى عام ٦٧٢هـ/ ١٢٨٣م، أنه « ... ومتى توفى أحد التجار الصادرين والواردين والمترددين على اختلاف

١- ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٣٣٦؛ مجير الدين الحنبلى : لانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، (مكتبة المحتسب ، عمان ، ١٩٧٣م) جـ١ ، ص٢٨٩، ٢٩٠ .

٢- القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، (ط القاهرة ب-ت) ، جـ١٤، ص.ص ٣١ ، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ٤٧ .

٣- تضمنت بنود منها : البند « ... وعلى أن يتردد التجار والسفار والمترددين من جميع الجهات المذكورة، يكونون آمنين من الجهتين الإسلامية والجهة الفرنجية والنصرانية فى البلاد التى وقعت الهندة عليها، على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم يحميهم السلطان ونوابه ... وتحميهم بيت الاسبتارية فى بلادهم...» (القلقشندى : المصدر السابق، ص١٤ ، ص٣٧) .

٤- القلقشندى : صبح الأعشى، جـ١٤ ، ص٤١ ، ٤٦ .

أجناسهم وأديانهم من بلاد السلطان وولده فى عكا وصيدا وعثليت ، ويحتفظ على ماله إلى أن، يوصل إلى نوابها وكذلك التجار الصادرين والواردين من عكا صيدا وعثليت ... إذا توفى أحد فى البلاد الإسلامية يحتفظ على ماله إلى يسلم إلى كفيل المملكة بعكا والمقدمين... »[١]. وقد ذكرت بنود المعاهدات أيضا المدة التى يكون فيها التجار آمنين بعد انقضاء الهدنة الموقعة بين الطرفين ، وهى أربعين يوما[٢].

وثمة بنود هامة فى المعاهدات التى أبرمت بين المسلمين والصليبيين بشأن ضمان حق امتلاك المراكب المحطمة نتيجة الكوارث الجوية ، أو أعمال القرصنة ، لأصحابها وحسن معاملة من عليها من التجار ، وقد ورد هذا البند ضمن بنود المعاهدة الموقعة بين السلطان منصور قلاوون والحكام الصليبيين بمملكة عكا وصيدا وعثليت فى عام ٦٧٣هـ/ ١٢٨٣م[٣].

وفيما يتعلق بالسلع المحظور التعامل التجارى بها ، فقد وضعت مواد خاصة فى المعاهدات بشأن منع تداول بعض السلع والتى كانت تشمل الأسلحة والأخشاب[٤].

وعلى أية حال فإن المعاهدات التى عقدت بين المسلمين والصليبيين وما تضمنتها من بنود ساعدت على تأمين التجارة وتنشيطها بين الطرفين وقد استمرت العلاقات التجارية بينهما طوال فترة الوجود الصليبى فى بلاد الشام، وهكذا اعتمد النشاط التجارى الصليبى فى بلاد الشام على الدور التجارى الهام للإيطاليين فى الأحياء التى خصصت لهم فى المدن التى استولى عليها الصليبيون، كما ارتكز النشاط التجارى الصليبى أيضا على طرق التجارة المتعددة فى بلاد الشام والمراكز التجارية الهامة التى ساعدت على ازدهار التجارة، كما تعتبر استمرارية العلاقات التجارية بين المسلمين والصليبيين من المقومات الأساسية لازدهار النشاط التجارى الصليبى ومما يذكر أن هذا النشاط التجارى الصليبى تركز بصفة أساسية فى مؤسسة السوق فى المدن الصليبية ذات الأهمية التجارية وفى الموانى البحرية أيضا، وقد اشتهرت المناطق الصليبية ومدنها بالأسواق المتعددة والرائجة والمليئة بالبضائع المختلفة ولاسيما إبان فترة الاستقرار السياسى والاقتصادى للمملكة الصليبية، وهذا ما سنتناوله فى الفصل الثانى.

١- المقريزى : السلوك (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط٢، القاهرة ١٩٧٠م) ، جـ١ ، ص٩٩٢ .

٢- القلقشندى : المصدر السابق، جـ١٤ ، ص٥٩ .

٣- نفس المصدر ، ص٥١-٦٣ ، المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٩٩١ .

٤- المقريزى : المصدر السابق، جـ١ ، ٩٩٠ .

الفصل الثانى
أسواق المدن التى استولى عليها الصليبيون
فى بلاد الشام ومظاهر الحياة اليومية

- تخطيط المدينة العربية الإسلامية وشكلها ومدى انطباق هذا التخطيط على المدن العربية التى احتلها الصليبيون - الإضافات الجديدة التى أضافها الصليبيون لبنية المدينة - المراكز الاقتصادية الهامة فى المدينة (سكان السوق، الأفران ، الحمامات) - أهمية الأسواق للمجتمع الصليبى وتخطيط الأسواق - التقسيم النوعى للأسواق (تقسيم الأسواق حسب مواعيد انعقادها ، التقسيم حسب نوع السلعة) - أسواق مدينة القدس الصليبية ومظاهر الحياة اليومية - أسواق مدن أخرى مثل (رام الله - بيسان - الجليل - صور - طرابلس - انطاكية- عكا) - الأسواق والنظم التجارية (الأسعار - طريقة البيع والشراء- وسائل نقل البضائع من وإلى الأسواق- المعايير التجارية من موازين ومقاييس ومكاييل) - التجار ونزلهم فى المدن العربية التى استولى عليها الصليبيون من خانات ووكالات وقياسر وفنادق .

الحقيقة أن الصليبيين لم يشيدوا مدنا جديدة فى المناطق العربية المحتلة فى بلاد الشام طوال فترة وجودهم فى هذه المناطق والتى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان ، وذلك لأن المدن العربية الإسلامية التى استولى عليها الصليبيون والتى يرجع تأسيسها إلى فترات سابقة قبل الوجود الصليبى قد قامت بتلبية احتياجاتهم السكانية والاقتصادية والدينية والإدارية والعسكرية، بالإضافة إلى أنه لم تكن هناك زيادة سكانية صليبية فى هذه المدن، فقد كانت مشكلة نقص السكان الصليبيين فى بلاد الشام من الأسباب التى أقضت مضاجع الحكام الصليبيين والتى أثرت بشكل كبير فى انهيار الكيان الصليبى فى المناطق العربية، فقد ظل الصليبيون يمثلون أقلية سكانية فى المناطق العربية المحتلة طوال فترة وجودهم بها[1].

1- Prawer, " Crusader Cities"., CF. The Medieval City (editd) by Harry A. Miskimin, David Herlihe, A.L. Udovitch, London 1977, p. 180 .

وعلى أية حال فإن الصليبيين احتلوا مدنا عربية ، وينبغى علينا أن نوضح تخطيط المدينة العربية الإسلامية ومدى انطباق هذا التخطيط على المدن العربية التى استولى عليها الصليبيون فى بلاد الشام.

لقد تأثرت المدينة العربية الإسلامية فى شكلها وتخطيطها بالمؤثرات المصرية والاغريقية والرومانية القديمة، من حيث تخطيط الشوارع وطرق المدينة والأسوار التى تمثل أهم جوانب تخطيطها ، والمنشآت والمرافق الأخرى كالقصور والأسواق وغيرها ، كما تأثرت المدينة العربية الإسلامية فى تخطيطها بمؤثرات العقيدة من حيث وسطية المسجد الجامع بها ، ومصليات العيد وميادين استعراض الجند والمقابر، كما روعى فى تخطيط المدينة الإسلامية أيضا وجود التحصينات كالأسوار والقلاع[١]. ومع نمو المدن وتحولها إلى مراكز حضارية وعمرانية زاد الاهتمام باتساع شوارعها الرئيسية، واعتبرت الشوارع الرئيسية فى المدن الإسلامية الأصل الذى تتفرع منه وتصب فيه جميع الشوارع الفرعية والسكك والأزقة الجانبية ، التى كان اتساعها أقل من اتساع الشارع الأعظم، وقد تأثرت الشوارع فى المدن الإسلامية بعامل المناخ، وخاصة الشوارع التى تتميز بنشاط تجارى خاص والتى غطيت لحمايتها من العوامل الجوية وحماية المارة[٢].

وإذا ما تأملنا رسما تخطيطيا للمدينة العربية الإسلامية التى استولى عليها الصليبيون فى بلاد الشام نجدها متطابقة تماما فى الشكل مع المدينة العربية التى كانت موجودة قبل الوجود الصليبى[٣].

وقد ظهرت الاستمرارية الحضرية للمدينة الإسلامية فى المدن التى استولى عليها الصليبيون فى بلاد الشام مثل مدينة بيت المقدس وعكا وعسقلان وغيرها ، وكانت هذه المدن تحتوى على الشوارع والكنائس والمساجد والأسواق والمبانى العامة التى تعرف بأسمائها الخاصة بها ، كما كان يحيط بها الأسوار والبوابات والقلاع إلى غير ذلك من وسائل التحصينات والدفاع[٤].

١- محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية ، (سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٨ الكويت، أغسطس١٩٨٨) ، ص١٦٩-١٧٨ .

٢- محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، ص١٨٨، ١٨٩ .

3- Prawer, "Crusader Cities"., p. 186 .

4- Benvenisti, The Crusaders in The Holy Land., p. 29 .

وكشفت الحفائر الأثرية التى أجريت عام ١٩٦٠م، فى مدينة قيصرية فلسطين ، عن تصور واضح لشكل المدينة العربية التى احتلها الصليبيون فقد كشفت هذه الحفائر عن سمات مدنية وعسكرية لهذه المدينة،كما كشفت عن وجود شارعين رئيسين فى هذه المدينة يمتد أحدها أسفل قناطر وقبوات حجرية، وهى القبوات التى كانت تمد الشارع بالظل وتحمى المارة من وهج الشمس، وكشفت الحفائر أيضا عن وجود دكاكين وحوانيت صغيرة، بالإضافة إلى عدد كبير من المنازل وأيضا بقايا الحصون ووسائل الدفاعاتالطبيعية كالأسوار والقلاع،ووجد أيضا مبنى للكنيسة الأسقفية، وتبين من الحفائر أن أسوار المدينة كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب على بعد ثلاثمائة متر من ساحل البحر، وكان السور الشرقى للمدينة موازيا لساحل البحر، كما كانت هذه الأسوار مزودة بأبراج أمامية للحماية والدفاع[١] ، ولاشك أن هذا التخطيط كان يلائم الظروف السياسية والعسكرية التى كان يواجهها الصليبيون.

وأما مدينة بيت المقدس ، فقد كان لها أربع بوابات تقع فى الجهات الجغرافية الأربعة ، وكانت هذه البوابات تواجه أربع مناطق رئيسية[٢] تؤدى بدورها إلى أربعة شوارع رئيسية[٢]، وكان هذا التخطيط يتمثل بصورة واضحة فى مدن بيت المقدس وعسقلان وقيسارية وأرسوف وعكا [٣].

وفى المدن البحرية العربية التى احتلها الصليبيون فى بلاد الشام كانت البوابة الغربية تفتح دائما للوصول إلى الميناء ، وكانت تعرف باسم بوابة البحر، وكان لبعض المدن بوابات ثانوية ، تكون بمثابة همزة وصل بين الشوارع وكل أحياء المدينة[٤]. كما كانت شوارع هذه المدن مستقيمة وممتدة يتفرع منها الكثير من الحارات والشوارع الضيقة ، وقد عرفت هذه المدن أيضا الشوارع المسقوفة بقباب حجرية ومن أمثلة هذه الشوارع شارع السوق فى مدينة القدس، فقد ذكر الرحالة بوركارد Burchard الشوارع المسقوفة فى معظم المدن العربية التى احتلها

1- Smail R.C., The Crusaders in Syria., p. 28 .

2- Anonymous,The City of Jerusalem., pp. 4.5 .

3- Benvenisti, Op. cit., p. 29 .

4- Loc. cit.

5- Burchard, Op. cit., 51 , 52; Benvenisti, Op. cit., p. 29 .

الصليبيون فى بلاد الشام، كما أشار إلى الأعمدة التى كانت تستخدم فى حمل العقود وسقائف الشوارع فى مدن الشام فى الفترة الصليبية[٥]، وكانت الشوارع مزدحمة بالمارة ، كما كان المرور فيها فى غاية الصعوبة ، إذ كان عرض الشارع لايزيد عن ثلاثة أمتار، وكانت أرضيته مبلطة بالاحجار [١].

وإذا كانت المدن العربية الإسلامية التى احتلها الصليبيون قد احتفظت بشكلها وتخطيطها طوال فترة الوجود الصليبى، فإن هناك إضافات جديدة أضافها الصليبيون إلى بنية المدينة ، وقد جاءت هذه الإضافات تلبية للظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية التى واجهوها طوال فترة وجودهم فى الأراضى العربية ، فعندما تم احتلال الصليبيين لمدينة القدس قاموا ببناء سور جديد حول المدينة لحمايتهم، بالإضافة إلى القلعة التى استولوا عليها إبان فترة الغزو ، وهذا لايعنى أن الصليبيين قد بنوا مدنا جديدة، ولكن يشير إلى ثمة تغييرات قد حدثت فى الحدود الطبيعية للمدينة العربية خلال فترة من الوقت، وقد حدثت مثل هذه التغييرات فى الحدود الطبيعية فى مدينة قيسارية على ساحل البحر المتوسط وكشفت الحفائر الأثرية الحديثة عن تحصينات صليبية هامة ترجع إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى والتى كانت ضمن التحصينات والقلاع التى أنشأها الصليبيون فى القرن الثانى عشر الميلادى فقد فرضت الظروف العسكرية التى مر بها الصليبيون بناء القلاع والتحصينات لحمايتهم[٢].

وقد شهد القرن الثالث عشر الميلادى توسعا وامتداداً للمدينة العربية التى احتلها الصليبيون ولاسيما عندما انحصر الصليبيون فى شريط ساحلى ضيق على البحر المتوسط فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى بعد أن فقدوا المناطق والمدن الداخلية ، فقد ظلت المدن البحرية الأماكن الوحيدة لاستقبال اعداد المهاجرين الصليبيين من المناطق التى استعادها المماليك ، وخاصة أبناء المدن الإيطالية وقد لوحظ مثل هذا التوسع والامتداد فى مدن يافا ، حيث أضيفت إلى المدينة القديمة مدينة جديدة أخرى مسورة كما أضيف إلى مدينة عكا حى جديد عرف باسم حى مونت مزار Mount Muzard وقد تطور هذا الحى واتسع حتى عرف باسم منطقة الساحات والشوارع ، وقد جاء هذا التوسع فى مدينة عكا نتيجة إعداد المهاجرين الصليبيين الوافدين إليها[٣].

1- Benvenisti, Op. cit., p. 29 .

2- Prawer , "Crusader Cities" ., pp. 180,81 ; Benvenisti, Op. cit., p. 29 .

3- Prawer, Op. cit., pp. 181, 82 .

وبالإضافة إلى اتساع المدن وامتدادها فى الفترة الصليبية فإن الصليبيين قد أسسوا مراكز عمرانية بجوار القلاع التى شيدوها وتعتبر مدينة عثليت نموذجًا لهذه المراكز الجديدة التى شيدها الصليبيون ، فقد اكتشفت الحفائر الأثرية هذه المدينة والتى كانت صغيرة المساحة نسبيا (حوالى ٩ هكتار أى ٩٠,٠٠٠ متر مربع) ، كما كشفت الحفائر الأثرية كنيسة المدينة ومكانا للسوق، واسطبلات وحظيرة للماشية ، وفى صفد أيضا حيث القلعة الجديدة والتى زودت بحامية عسكرية وجهاز إدارى وصل عدد القاطنين من السكان الصليبيين حول القلعة إلى حوالى ١٥٠٠ نسمة ، وهكذا نمت مدن صغيرة حول القلاع[١].

ومن دراسة الحفائر الأثرية التى أجريت فى مواقع المدن القديمة فى بلاد الشام والتى ترجع إلى الفترة الصليبية يمكننا أن نقرر حقيقتين هامتين هما : أولا أن مساحة المدينة العربية التى احتلها الصليبيين بقيت على حالها خلال الفترة الباكرة من الوجود الصليبى من عام (١٠٩٩-١١١١م) ثانيا : أنه بالرغم من أن الصليبيين استقروا فى البداية داخل أسواق المدن القديمة فانهم بمرور الوقت وتحت ضغط النمو السكانى وتزايد أعداد المهاجرين الأوربيين اضطر الصليبيون إلى توسيع أسوار المدينة واضافة مناطق سكانية جديدة إليها لمواجهة هذه الزيادة السكانية بشكل فعال [٢].

ومن الإضافات الجديدة أيضا التى أضافها الصليبيون إلى بنية المدينة، وهو تحويل المساجد إلى كنائس ، فقد تحول المسجد الأقصى فى مدينة القدس إلى هيكل سليمان، وقبة الصخرة إلى هيكل للسيد المسيح ، وفى طرابلس قام الصليبيون بتحويل المسجد الرئيسى للمدينة إلى كنيسة وذلك فى عام (١١٠٩م) ، وفى عسقلان تحول الجامع الأخضر إلى كنيسة للقديسة ماريا القبطية Maria Cathara ، وهكذا بمرور الوقت قام الصليبيون ببناء كنائس جديدة فى المدن العربية، أو استرداد المزارات المسيحية القديمة[٣].

وكانت الأحياء الإيطالية ضمن الإضافات الجديدة إلى بنية المدينة العربية، فقد كان الحى الإيطالى يشتمل على شارع أو حى، ومكان للسوق أو الفندق ، وكنيسة وحمام وفرن، ومنازل

1- Prawer, "Crusader Cities", pp; 181-83 .

2- Loc. Cit.

3- Ibid, pp. 184,85 .

سكنية بالإضافة إلى حصن وقلعة وقد لجأ الإيطاليون إلى بناء كنائس جديدة فى احيائهم [١]. ويمكن القول إن هذه الأحياء الإيطالية كانت بمثابة مدينة داخل المدينة.

وفى ضوء هذه المتغيرات فى المدن العربية الإسلامية التى حدثت نتيجة الوجود الصليبى بها، يمكن القول بأن الاختلافات الطبيعية الرئيسية بين المدينة العربية الإسلامية والمدينة العربية التى احتلها الصليبيون قد تطورت بصورة جلية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد وكانت هذه الاختلافات نتيجة طبيعية للمؤسسات الصليبية الهامة، فقد كان لوجود الكوميونات الإيطالية، ومؤسسات الداوية والاسبتارية أثر كبير فى بنية المدينة، إذ كانت الأحياء الإيطالية بمثابة مدن داخل المدينة لها أسوارها وتحصيناتها، وقد وجدت فى مدينة عكا فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ستة أحياء من هذا النمط، حى البنادقة وحى الجنوية وحى البيازنة وحى الداوية، وحى الاسبتارية، وحى البروفنساليين، ومن الواضح أن مثل هذه التغييرات كانت متميزة وواضحة وخاصة فى المدن البحرية مثل عكا وصور وغيرها.

ويمكن القول إن الصليبيين قد استخدموا نفس المنطق الذى كان متبعا من قبل فى اختيار أماكن المراكز الاقتصادية التى كانت تشمل أماكن السوق والأفران والحمامات، فقد ظلت هذه المراكز الاقتصادية فى أماكنها الثابتة فى بعض المدن، وإن كان هذا الوضع قد تغير فى مدينة عكا نتيجة تواجد أحياء المدن الإيطالية بها والتى كانت لها أسواقها الخاصة فقد حلت الأسواق المتخصصة من الناحية الاقتصادية محل الأسواق التقليدية فى مدينة عكا، وتعددت هذه الأسواق وأصبح لها موازينها ومكاييلها الخاصة بها، ولها أسلوبها الخاص فى تحصيل الضرائب [٢].

لقد كانت المدينة هى المركز الإدارى والاقتصادى للمستوطنين الصليبيين وقد تبلورت أهميتها فى كونها مكانا لتجمع أكبر عدد منهم، وأدت المدينة دورا هاما فى المحافظة على مصالح هؤلاء المحتلين، وتوفير الحماية والأمن الداخلى لهم [٣]، كما كانت المدينة المكان الملائم لممارسة التجار وانعقاد الأسواق للبيع والشراء بها.

1- Prawer, "Crusader Cities", p. 187 .

2- Prawer, "crusader Cities", p. 187 .

3- Benvenisti, Op. cit., p. 26 .

والحقيقة أن المعلومات السكانية المتعلقة بالمدن العربية التى احتلها الصليبيون يكتنفها الشك والغموض ، فقد أوردت بعض المصادر التاريخية المعاصرة لهذه معلومات فى هذا الصدد ، فذكرت بعض هذه المصادر الموثوق فيها أن عدد السكان فى المدن الرئيسية وهى مدينة القد وعكا وصور كان يصل إلى ثلاثين ألف نسخة فى كل مدينة ، واختلفت الكثافة السكانية من مدينة إلى أخرى ، فقد كانت المكثافة السكانية فى مدينة المقدس ٣٥ نسمة لكل دونم وكذلك فى مدينة صور ، وقد لوحظ أن الكثافة السكانية فى المدن البحرية أعلى من مثيلتها فى المدن الداخلية [١]. وذلك يرجع إلى استقرار أعداد كبيرة من التجار الإيطاليين فى المدن البحرية حيث تتركز مصالحهم التجارية بها ، وثمة معلومات سكانية تؤكد أن عدد سكان المملكة الصليبية من أهالى البلاد الأصليين كان يبلغ حوالى نصف مليون نسمة وأن نسبة السكان المسلمين كانت تصل من ٧٥-٨٠ ٪ من عدد السكان الإجمالى [٢]، ويمكننا معرفة عدد سكان كل مدينة من مدن المملكة الصليبية من خلال الجدول الآتى [٣]:

المـــديـــنـــة	المساحة بالدونم	عدد السكان	الكثافة السكانية	عدد أفراد الحامية العسكرية
القدس	٧٢٠ دونم	٣٠,٠٠٠ نسمة	٤٢ نسمة / دونم	٥٠٠
عكا	٦٠٠	٣٠,٠٠٠ نسمة	٥٠ نسمة / دونم	٥٠٠
قيسارية	١٢٠	٤٨٠٠ نسمة	٤٠ نسمة / دونم	٥٠
أرسوف	٩٠	٣٦٠٠ نسمة	٤٠ نسمة / دونم	٥٠
بانياس	٧٥	٢٦٢٥ نسمة	٣٥ نسمة / دونم	-
عثليت	٩٠	٣٦٠٠ نسمة	٤٠ نسمة / دونم	-
صيدا	١٤٠	٥٦٠٠ نسمة	٤٠ نسمة / دونم	-
صور	-	٣٠,٠٠٠ نسمة	- نسمة / دونم	١٠٠
طبرية	١٣٠	٤٥٠٠ نسمة	٣٥ نسمة / دونم	٢٠٠
يافا	-	٥٠٠٠ نسمة	- نسمة / دونم	١٠٠
حيفا	-	٣٥٠٠ نسمة	- نسمة / دونم	٥٠
عسقلان	٢٠٠	١٠,٠٠٠ نسمة	٢٠ نسمة / دونم	١٥٠
رام الله / اللد	-	٣٠٠٠ نسمة	- نسمة / دونم	٥٠

1- Loc . cit.

2- Ibid, p. 18 .

3- Ibid, p. 27 .

ونستنتج من الإحصائية السابقة أن عدد السكان الصليبيين فى مملكة بيت المقدس كان يصل إلى حوالى ١٢٠ ألف نسمة ، وذلك خلال الفترة الزاهرة للملكة الصليبية قبل استرداد المسلمين مدينة القدس عقب معركة حطين الشهيرة فى عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م.

ويمكننا أن نقرر من ضوء الحقائق السكانية لملكة بيت المقدس الصليبية أهمية الأسواق لهذا المجتمع ، فقد كان المجتمع الصليبى ذا بنيان اجتماعى أكثر تحضرا وتمدنا من مثيله فى الغرب الأوربى ولم يكن للنبلاء أن يحصلوا على غذائهم كلية من أراضيهم وأملاكهم الإقطاعية ، ومن ثم اشترى أغلبية هؤلاء النبلاء احتياجاتهم من الطعام من أسواق المدينة ، وقد انطبق هذا الوضع أيضا على مواطنى المدن الصليبية ، ورجال الكومونات التجارية الذين كانوا ممنوعين قانونا من امتلاك ضياع اقطاعية باستثناء بساتين الفواكه ، وهكذا كان كل السكان الصليبيين مستهلكين، كما .كانت أسواق المدن المصليبية مكانا ملائما لبيع الفلاحين فائض منتجاتهم الزراعية مثل الحبوب حيث كان سكان المدن يعتمدون فى غذائهم على ما ترسله إليهم ضياع النبلاء[١]، كما كانت أسواق المدن الصليبية مكانا ملائما للنشاط التجارى لأبناء الكومونات الإيطالية الذين استقروا وكونوا جاليات لهم فى هذه المدن، وعلى الرغم من أسواق الإمارات الصليبية كانت أقل أهمية من الأسواق الإسلامية والبيزنطية فإن هذا لم يقلل من دورها الهام فى تجارة الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوربى على السواء [٢]، فقد فتحت آفاقا أرحب للتبادل التجارى بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، وقامت الأساطيل التجارية الإيطالية بدور هام فى هذا المجال.

وكانت بعض هذه الأسواق تعقد بصفة دائمة والبعض الآخر تعقد فى أوقات منتظمة من أيام الأسبوع أو شهور السنة [٣]، وقد أشار بيجلوتى إلى أهم الخصائص الرئيسية التى تميز الأسواق الصليبية وهى استمرارية هذه الأسواق، أى أن هذه الأسواق كانت ذات صفة دائمة[٤].

1- Prawer, The Latin kingdom, pp. 413,414 .

2- Praer , The Latin Kingdom, pp. 353 .

3- Ibid., p. 407 .

4- Ibid, p. 408 .

وقد زخرت المدن الصليبية فى بلاد الشام بالأسواق العديدة التى كانت تفى بحاجة السكان المحليين من ضروريات الحياة اليومية وتشابهت هذه الأسواق من حيث شكلها وتخطيطها .

فقد كانت الأسواق عبارة عن مجموعة من الشوارع المتوازية الطويلة تقفل بأبواب فى مداخلها وكانت هذه الشوارع مسقوفة ، أما بالعقود الحجرية أو سقائف من القماش ، وكانت هذه الأسقف تحمى رواد السوق والباعة من حرارة الشمس والأمطار، فضلا عن وجود بعض المصاطب المنخفضة بداخل كل سوق ، وكانت هذه المصاطب المنخفضة تمتد على جانبى السوق وتستخدم كمقاعد للجلوس عليها وربما كان يستخدمها الباعة لعرض سلعهم وبضائعهم عليها(١). وكانت الشوارع المخصصة للأسواق فى المدن الصليبية تمتد من الشمال إلى الجنوب ومزودة بجنسيات تنتهى بقباب تصل ارتفاعها إلى ستة أمتار(٢) وكان اتساع ممر الشارع تغطى بقماش متين يسهل تركيبه أو نزعه حسب ظروف المناخ والأحوال الجوية (٣). وقد ذكر بعض الرحالة أن أرضية شوارع الأسواق كانت مرصوفة بالأحجار (٤).

وكانت الدكاكين توجد على جانبى الشارع وإن اختلفت فى أحجامها ، وذلك وفقا لنوع السلعة التى تبيعها، كما كانت هذه الدكاكين ضيقة ومظلمة تشبه فتحات الكهف، فلاتزيد مساحة الدكان عن أربعة أمتار مربعة وكان الدكان يواجه رصيف الشارع ، وفى عام ١١٣٢م تم بناء مصطبة أمام كل دكان وتبرز هذه المصطبة عن حائط الدكان بمسافة متر واحد، وترتفع عن مستوى الشارع بحوالى ٦٠ سم وكان التجار يستقبلون زبائنهم أمام هذه المصاطب(٥).

ومما يذكر أن ثمة نقوشا حفظت على معظم أسقف شوارع الأسواق وعلى القبوات وكانت تحمل حروفا مثل "SCA ANNA" ، وهذا يدل على أن بعض هذه الدكاكين كانت تجاور دير القديسة « أنا » ، وبعض الحوانيت كان مدونا عليها حرف "T" وهذا يدل على أن هذه الحوانيت

1- Anonymous, "The city of Jerusalem"., pp. 6,7; Theoderich, Op. cit., p. 5 ; Prescat, Once to Siani, The Further Pilgrimage of Frair Felix Fabri, London, 1957, p. 174 .

2- Benvenisti, Op. cit., p. 55 .

3- Prawer, The Latin kingdom of Jerusalem , p. 408 .

4- Theoderich, Op. cit., p. 5 .

5- Benvenisti, Op. cit., p. 55; Smail, The crusaders., p. 79 .

كانت ملاصقة لأملاك الداوية[1]. فقد كان فرسان الداوية يمتلكون بعض الحوانيت التجارية فى المدن الصليبية ويقومون بتأجيرها للباعة والتجار ، وكان ذلك أحد الأمتيازات التى حصلوا عليها من الملك الصليبى نظير الخدمات العسكرية التى يقدمها هؤلاء الفرسان لمملكة بيت المقدس الصليبية.

وكان سوق البنادقة فى الحى الخاص بهم فى المدن الصليبية عبارة عن شارع ضيق تحيط به مبان غير منتظمة ، اتخذت من أسفلها حوانيت للبيع بينما استخدمت الأجزاء العليا من الحوانيت لسكن التجار وأرباب الحرف، كما كان يخصص جزء منها كمخازن لبضائع التجار وكانت شوارع السوق الضيقة مسقوفة لحماية التجار والباعة ورواد السوق وهج الشمس والأمطار، واستخدم بعض التجار الإيطاليين مظلات مصنوعة من القماش تفرد وترفع طبقا لفصول السنة [2]. وكانت كل منطقة من السوق تختص ببيع نوع معين من السلع، فهناك سوق الفاكهة والتوابل الذى يعتبر من أهم الأسواق ثم سوق الأعشاب الطبيةوسوق الدواجن وأسواق الماشية[3].

كان الصيارفة الشوام يجلسون فى الجهة الشمالية من الأسواق الصليبية، بينما كان يجلس الصيارفة اللاتين فى الجهة الجنوبية منها[4]، وذلك يرجع إلى التخصص فى استبدال نوع معين من النقود لكل منهما، وكان لهؤلاء الصيارفة حوانيتهم الخاصة بهم، وكانت هذه الحوانيت عبارة عن مبنى مسقوف وسط شارع السوق كما خصصت لهم شوارع خاصة فى مدينة القدس وصور وأنطاكية . وقد تبين ذلك من تقرير الحاج المجهول الذى كتب كتابا عنوانه مدينة بيت المقدس [5]. فكان الصيارفة يقومون بعمليات تغيير العملات واستبدالها للحجاج الوافدين إلى الأراضى المقدسة فى موسم الحج وكان صرافو النقود من سكان المدن ، وغالبا ما كانت هذه المهنة ترتبط بإقراض النقود ، كما كانت هى أول مهنة يحتك بها الفرنجى فى عالم المال[6].

1- Benvenisti, Op. cit., p. 55 .

2- prawer, The Latin kingdom., p. 408 .

3- Ibid, pp. 408 , 409 .

4- Anonymous, "The city of Jerusalem" pp. 17, 18 .

5- Loc. Cit; Benvenisti, Op. cit., p. 56 ; Prawer, Op. cit., p. 384 .

٦- يوشع براور : عالم الصليبين، ص١٥٧ ، ص١٥٨ .

والواقع أن المدن الصليبية حفلت بالأسواق العديدة ، وتخصص كل سوق فى بيع نوع خاص من البضائع ، فكانت هناك أسواق لتجارة الجملة، وأخرى لتجارة التجزئة [١]، وقد ارتبطت تجارة الجملة بالتجار الإيطاليين وغيرها من التجار الأوربيين، بالإضافة إلى التجار المسلمين الذين كانوا يرتادون الأسواق الصليبية من الأقطار الإسلامية المجاورة ، وكانت تجارة التجزئة تجد مكانها فى الأسواق المحلية التى كانت سمة من سمات المدن فى منطقة الشرق العربى والتى كانت فى بداية أمرها أسواقا أسبوعية تقام فى أيام معينة من الأسبوع ، فمثلا كان السوق بشرقى بغداد يقام يوم الثلاثاء وكان سوق القيروان يعقد فى يومى الأحد والخميس[٢].

وقد عرفت المدن الصليبية الأسواق المحلية الخاصة بها، والتى لم ينقطع فيها البيع والشراء على مدار السنة، جريا على التقليد الشرقى وقد غلب على السوق الأسبوعى صفة التخصص ببيع أصناف معينة من البضائع فوق الشماعين كان يختص ببيع الشموع وسوق الدجاجين كان يختص ببيع الدجاج والبيض والطيور الداجنة ، وسوق السلاح كان يختص ببيع القسى والنشاب والسيوف ، وهكذا ومن إيجابيات هذا النظام أن التاجر على مقربة منه وأن المشترى يستطيع أن يحصل على ما يحتاجه من سلع من أى تاجر يروق له بضاعته، وعيوب هذا النظام هو أن الفرد إذا أراد أن يشترى عدة أصناف مختلفة من البضائع ، كان عليه أن يذرع المدينة جيئة وذهابا عدة مرات حتى يقضى حاجاته، لأنه لن يجد فى السوق الواحد سوى نوع معين من البضائع[٣].

وكان الهدف من انعقاد الأسواق المحلية هو توفير الاحتياجات الضرورية لحياة السكان اليومية الذين يقطنون القرية، أو ضاحية ، وهذا يفسر لنا الانعقاد الدورى الأسبوعى لهذه الأسواق، وكانت السمة المميزة لهذه الأسواق أيضا هو إجراء العمليات التجارية الصغيرة داخله والبيع بالتجزئة [٤]، فقد كانت التجارة المحلية تتعامل مع المأكولات والأطعمة ومنتجات

1- Benvenisti,OP. cit., p. 29 .

٢- آدم متز : الحضارة الإسلامية ، (ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة، دار الكتاب العربى اللبنانى، ط٤ ، بيروت ، ١٩٦٧) ، جـ٢ ، ص٣٨٦ .

٣- سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة العربية ، ط١ ، ١٩٦٢) ، ص٨٦ ، ٨٧ .

4- Pirenne , H., Economic and Social History of Europe, Eng . Trans. by I.E.Clegg, London, 1973. p. 97 .

الحرفيين، وكانت أطعمة الحبوب والزيت والخمر تنقل من الشوارع الضيقة (شارع السوق) إلى أماكن كثيرة مفتوحة [١].

وقد ذكر ابن شداد أنواعا متعددة من الأسواق المحلية التى كانت موجودة فى عصره وأهمها «سوق الطرايفيين» ويترجم سوفير ذلك بأنه سوق لباعة التحف الثمينة وسوق الشرايحين، وسوق البز «القماش» ، وسوق الصوف وسوق القمح وسوق الغنم وسوق السلاح، وسوق الغزل العتيق »[٢]. ويتبين من ذلك أن الأسواق المحلية أخذت أسماءها من اسم السلعة التى تخصصت فى بيعها ، كما يمكن القول بأن هذه الأسواق انتشرت فى كافة القرى والمدن على السواء فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام، وانتشرت بجوار القلاع أيضا .

وإذا كانت الأسواق المحلية قد لعبت دورا هاما فى حياة الناس فى العصور الوسطى سواء فى منطقة الشرق العربى الإسلامى أو فى الغرب الأوربى، فإن الأسواق الموسمية كانت تعتبر أهم سمة من سمات المؤسسات الاقتصادية فى العصور الوسطى أيضا ، فقد قامت بدور حيوى فى التجارة العالمية وخاصة فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وكان كل سوق له سمة رئيسية تميزه عن غيره من الأسواق الأخرى، ويمكننا أن نقرر أن مؤسسة السوق الموسمية كانت بمثابة ظاهرة عالمية[٣]، فقد انتشرت هذه الأسواق فى الشرق والغرب على السواء وكانت تعقد فى العام مرة أو مرتين ، وذلك لجذب أكبر عدد ممكن من التجار وأكبر كم من البضائع والسلع المختلفة ، ويمكن مقارنة الأسواق الموسمية بالمعارض الدولية التى تقام فى الوقت الحاضر كما كان من المتعذر إقامة مثل هذه الأسواق الموسمية أكثر من مرة أو مرتين فى العام فى نفس المكان، وذلك لأن فترة إعدادها كانت تتطالب مجهودات ضخمة فى توفير الأمن والنظام [٤].

وقد عرفت أوربا مثل هذه الأسواق الموسمية فى بداية القرن التاسع الميلادى، وكانت أسواق شامبانى وسوق سان دنيس القريب من باريس من أشهر هذه الأسواق [٥]، كما كان للعرب فى

1- Prawer, The Latin Kingdom ., p. 409 .

٢- عز الدين ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة، (تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٥٦م) ، ص٩٦-١٠٠ .

3- Pirenne , Economic and Social Hist., p. 97 ; Lopez, Medieval Trade in the Mediterranean World , London , 1955. p. 79 ; Thompson, Op. cit., p. 297 .

4- Pirenne, Op. cit., p. 98 .

5- Pirenne, Op. cit., pp. 97, 98 .

الجاهلية أسواق موسمية يقيمونها فى شهور السنة، من أشهرها سوق عكاظ فى بلاد الحجاز، وسوق هجر بالبحرين، ودومة الجندل على مشارف الشام[١]، وما زال يقام فى الشام إلى اليوم فى أماكن مختلفة أسواق لبيع المصنوعات والحاصلات أشبه بمعارض هذه الأيام فى الغرب الأوربى[٢].

وهكذا عرفت المناطق الصليبية الأسواق الموسمية، فكانت الأسواق نصف السنوية تعقد فى المدن الصليبية فى بلاد الشام وقت وصول الأساطيل التجارية من الغرب الأوربى إلى الموانىء الصليبية ، حيث كان يحتشد هناك عدد كبير من التجار والحجاج[٣]. كما كانت هذه الأسواق تعقد فى مواسم ورود التوابل من الشرق الأقصى لأسواق الشام، وكانت هذه الرحلات التجارية الشرقية تخضع لهبوب الرياح الموسمية ، وتصل فى مواعيد سنوية لاتتغير وكان وصول هذه الرحلات يتزامن مع وصول السفن الأوربية لحمل هذه التوابل ، حيث تعقد الصفقات والمزادات[٤]. وقد أشار بنيامين إلى الأسواق التى تعقد فى بلاد الشام فى مواسم الحج وأعياد المسيحيين حيث يتجمع التجار من كل صوب وحدب لبيع سلعهم للحجاج[٥].

ولاشك أن الأسواق الموسمية فى المدن الصليبية فى بلاد الشام اعتمدت اعتمادا كبيرا على موسم الحج وعلى موسم وصول السفن التجارية الأوربية كما اعتمدت أيضا على وصول القوافل التجارية للمسلمين من الأقطار الإسلامية المجاورة، وقد استفادت السلطات الصليبية من إقامة مثل هذه الأسواق بما كانت تحصله من رسوم وضرائب على التجارة، وكانت المدن الصليبية تشهد رواجا تجاريا إبان انعقاد مثل هذه الأسواق على أرضها .

وكانت الأسواق الموسمية فى مدينة القدس ترتبط ارتباطا وثيقا بوصول الحجاج المسيحيين والذين يكثر عددهم لحضور عيد الفصح بالمدينة والحج، وكان هذا الاحتفال يتم فى فصل الربيع

١- القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، (تحقيق إبراهيم الإبيارى، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٨٠م، ص٢٦٤ .

٢- محمد كرد على: خطط الشام، جـ٤ ، ص٢٥٨ ، ٢٥٩ .

3- Byrne, “The Genoese Colonies in Syria”., p. 180 .

٤- نعيم زكى فهمى: طرق التجارة الدولية ، ٢٨٣ .

٥- بنيامين التطيلى: رحلة بنيامين التطيلى، (ترجمة عزرا حداد، بغداد ١٩٤٥) ، ص.

من كل عام ، وقد أشار الرحالة ثيودوريتش إلى أنه كان يقام سوق موسمى كبير أمام الباب الرئيسى لكنيسة القيامة ، وكان هذا السوق مليئا بمختلف أنواع البضائع حيث كان يقصده جميع الأهالى من المناطق المحيطة بالمدينة، وكان هذا السوق عبارة عن شارع مسقوف وسط فناء واسع[١] . وكان يباع فيه الحلى والمسابح والصور الخاصة بالقديسين والتحف الشرقية[٢].

وقد وصف لنا الرحالة فيلكى فابرى هذا السوق المتعلق بوصول الحجاج بقوله «وبعد أن فرغنا من تأدية شعائر الحج فى كنيسة المقيامة دخل علينا عدد من المتجار من المسيحيين الشرقيين ليعرضوا على الحجاج متاجرهم ، وظل البعض منا يساوم التجار فترة طويلة من الليل، فكان التجار من المسيحيين الشرقيين يذهبون إلى كل مكان يتواجد فيه الحجاج ليبيعوا لهم، إذ كانوا يفترشون الأرض ببضائعهم أمام كنيسة القيامة ، وعندما كان يحين موعد عودة الحجاج إلى أوطانهم كانوا يقضون الليل كله فى المساومة مع التجار لشراء مختلف البضائع والسلع مثل المسابح والأحجار المعدنية والأقمشة الحريرية الدمشقى والمخامل ويصحب عمليات البيع والشراء الضجيج والصخب ، وقد رأيت بعض النبلاء من الحجاج ذوى المكانة الاجتماعية الراقية يساومون التجار أثناء الشراء مع أنهم لم يعتادوا على مثل هذا السلوك فى أسواق بلادهم ترفعا وحفاظا على مكانتهم ، فقد كانت المساومة لاتتوقف البتة فى معظم أسواق الأراضى المقدسة، وأقبل جميع الحجاج على شراء أشياء كثيرة لكى يحملوها معهم إلى أوطانهم ويبيعوها بأثمان مرتفعة ، وقد اشترك بعض رجال الدين فى أعمال البيع والشراء وهكذا أصبح الحجاج المسيحيون تجارا وتسابقوا فى طلب متاع الدنيا »[٣]، وقد استاء الرحالة فابرى أيضا من تجمع المتجار حول كنيسة القيامة واعتبر ذلك فضيحة مخزية للمسيحيين

1- Theoderich, Op. cit., p. 22 ;

بيروطافور : رحلة طافور فى القرن الخامس عشر الميلادى، (ترجمة د. حسن حبشى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٨) ، ص٤٥ .

٢- على السيد على : القدس فى العصر المملوكى ، (دار الفكر للدراسات ، ط١ القاهرة ١٩٨٦م)، ص٢٠٩ .

3- Felix Fabri, "The Book of The Wanderings of Brother Felix Fabri" (Circa 1480-1483 A. D.) Trans, by Aubrey stewart, Cf. P.P.T.S, vol, IX, London , 1897 , pp. 84 , 85 .

الحجاج» [١]. فقد كان هذا السوق بمثابة عيد دينى يشهده الحجاج المسيحيون من أوربا أثناء زيارتهم مدينة القدس.

وقد ارتبطت بالأعياد المسيحية والاحتفالات الدينية لدى المسيحين فى مدينة القدس فى الفترة الصليبية، وجود بعض الأسواق السنوية التى تخصصت فى بيع بعض السلع المستخدمة فى هذه المناسبات ، ومن ذلك وجود شارع خصص لبيع سعف النخيل وقد وجد هذا السوق فى مدينة المقدس فى فترة باكرة من الوجود الصليبى وخاصة فى عهد الملك بلدوين الأول (١١٠٠-١١١٨م) ، وكان هذا السوق يرتاده الحجاج المسيحيون ليشتروا منه سعف النخيل الذى كانوا يحملونه على صدورهم على شكل صليب عند عودتهم إلى أوطانهم بعد الانتهاء من مراسم الحج، وكان هذا السوق يقع فى شارع السعف فى الشمال الشرقى من كنيسة القيامة[٢]، كما وجد بالقرب من شارع السعف هذا شوارع أخرى تخصصت فى بيع الشموع للحجاج التى كانوا يستخدمونها أثناء تأدية الصلاة داخل كنيسة القيامة . وأثناء سماع القداس ، وذلك خلال المدة التى يمكثون فيها داخل الكنيسة [٣]، وقد حرص الحجاج أيضا على شراء كثير من المزامير التى كانت تصنع فى مدينة القدس، وكان لهذه المزامير شارع خاص لبيعها بالقرب من خان الزيت فى الطريق المؤدى إلى كنيسة القيامة، حيث كان هناك كثير من المحلات لبيع تلك المزامير[٤].

وقد صاحب موسم الحج أيضا إقامة بعض الأسواق السنوية فى مدينة القدس ويافا والرملة، فقد روى لنا فيلكى فابرى Fabri أحد هذه الأسواق التى ارتبطت بوصول الحجاج فيقول : «كان يحدث عقب وصول الحجاج إلى مدينة يافا أن يأتى بعض السكان يحملون قشًا رطبًا ليبيعوه إلى الحجاج وفعلا جاءنا هؤلاء التجار فاشترينا منهم هذا القش لننام عليه ... ثم حضر إلينا تجار من الرملة وبيت المقدس ، يحملون معهم العطور والبضائع المعطرة ، وأقاموا هناك سوقا ، لبيع القوارير المليئة بماء الورد التى أحضرها التجار من دمشق ... وكان بعض التجار يحملون

1- Loc. Cit.

2- Anonymous, The City of Jerusalem, p. 7 ; Conder, The latin kingdom. p. 200 .

3- Conder, The City of Jerusalem, London , 1909, p. 287 .

٤- على السيد على : القدس فى العصر المملوكى ، ٢٠٩ .

معهم البلسم والمسك والأحجار الكريمة والصابون والحرير والموسلين الأبيض وكان هؤلاء التجار ومرافقوهم معطرين تفوح منهم رائحة ذكية تعبق فى كل مكان، وقام هؤلاء التجار بإحراق البخور العربى فى المكان الذى كنا فيه، ثم جاء تجار آخرون يحملون الخبز والماء والثلج والفطائر الطازجة ، وفى المساء قمنا باستئجار اثنين من السكان ليقوما بحراستنا » [١].

وهذا يوضح بجلاء أن أبناء بيت المقدس والرملة ويافا كانوا يلازمون الحجاج منذ اللحظة الأولى التى تطأ فيها أقدامهم الأراضى المقدسة ، يبيعون لهم ما يلزمهم من طعام وشراب طوال رحلة الذهاب من يافا إلى بيت المقدس، كما كان بعضهم يقوم بحراسة الحجاج مقابل أجر يتقاضونه .

وانتشرت الأسواق الموسمية المرتبطة بموسم الحج والاحتفالات الدينية أيضا فى الجليل، ومنها سوق كنيسة جبل الطور ، وكان هذا السوق ينعقد مرة كل عام [٢]. وكذلك سوق الناصرة الذى كان يباع فيه للحجاج التماثيل وبقايا القديسين والذخائر المقدسة[٣].

وقد عرفت مدينة القدس سوقا سنويا هاما، وكان يقام فى الخامس عشر من شهر سبتمبر من كل عام، حيث تفد إليه أعداد كبيرة من تجار المدن الإيطالية والتجار المسلمين، كما كانت ترد إليه التجارة من آسيا بواسطة التجار الإيطاليين والفرنسيين ، وكان هؤلاء التجار يقومون بشراء القرنفل وجوز الطيب، والتوابل المجلوبة من الهند، والفلفل والبخور من عدن ، والحرير من الصين والكتان من مصر ، والزئبق والمرجان والمعادن والزجاج من صور ، واللوز والمصطكى والزعفران، والملابس الثمينة والأسلحة من دمشق ، وقد لعب التجار الإيطاليون دورا هاما فى تجارة هذا السوق السنوى [٤]. وفى هذا السوق كانت تعقد الصفقات التجارية والمزادات، وتشهد المدينة حركة ونشاطا خلال إقامة هذا السوق.

وثمة أسواق موسمية أخرى كانت تقام فى المناطق الصليبية ، فيذكر الرحالة الأجانب الذين زاروا المناطق الصليبية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث من الميلاد أحد أسواق

1- Fabri, Op. cit., pp. 226,27 , 270 .

٢- ياقوت الحموى: معجم البلدان، المجلد الرابع، ص٤٧ .

3- Prawer, The Latin Kingdom., p. 180 .

4- Conder , The City of Jerusalem., p. 268 .

بلاد الشام الموسمية ، وهو سوق الميدان [١]، والذى كان يعقد فى صيف كل عام فى الهواء الطلق على السهل شرقى الأردن، حيث كان يرتاده جموع كبيرة من الأهالى من جميع الأنحاء يحملون معهم السلع والبضائع المختلفة للبيع والشراء ومما ذكره الرحالة أيضا أن الأعراب كانوا يقومون بحماية رواد السوق طوال فترة انعقاده [٢].

وقد حدد السيد موتزارب Mauzarb حديثا موقع سوق الميدان بدقة تفوق من سبقوه ، فقد عين موقع موزرب Mauzarib فى الحوران Haruran ولما كانت موزرب مرحلة من المراحل الرئيسية فى طريق قافلة الحج السورية؛ فمن المفترض أن السوق كانت تقام هناك عند وصول القافلة القادمة من مكة . ولاشك أن التجار الصليبيين كانوا يقصدون هذا السوق للمتاجرة ، وهكذا فإنه فى مستهل الصيف كان يحتشد جمع غفير من المسلمين من جميع الأنحاء حتى من بلاد ما بين النهرين ويتدفق هذا الجمع من التجار على منطقة السوق فى سهل موزرب، يقضون هناك تحت الخيام فترة السوق، وكان يرتاد هذا السوق أيضا تجار من الغرب الأوربى وخاصة التجار الإيطاليين والبروفنساليين، كما كان الصليبيون يعرفون منطقة السوق هذه باسم سويتا Suete وكانت هذه المنطقة جزءاً من مملكة بيت المقدس الصليبية فى أقصى امتداد لها[٣]، وكانت حركة المبادلات التجارية فى سوق موزرب هذه لها تأثير محسوس على المدن التجارية الصليبية التابعة لمملكة بيت المقدس إذ كانت تعود بالنفع على هذه المدن وعلى اقتصادها .

يعتبر سوق العسكر من الأسواق المؤقتة التى شهدتها المدن الصليبية فى بلاد الشام وقد انفردت به بلاد الشام خلال الحروب الصليبية وكثيرا ما ورد ذكره خلال المعارك التى كانت تدور رحاها بين المسلمين والصليبيين على عهد صلاح الدين الأيوبى ، فقد اقتضت الأحوال العسكرية إقامة مثل هذا السوق، والتى كانت تقام فى ميادين الحروب لتزويد المحاربين بما يحتاجونه، نظر لأن جيوش تلك العصور لم تكن تعرف أسلحة الخدمات التى تعرفها الجيوش

١- من المحتمل أن كلمة الميدان تعنى المكان الرحب الواسع، أو أنها مشتقة من ماء الميدان إحدى فروع نهر اليرموك (Wurzburg, Op. cit., p. 66 , Nete 3.)

2- Wurzburg, Op. cit., p. 66 ; Theoderich, Op. cit., p. 65 ; Anonymous Pilgrims, Op. cit., p. 53 ; Conder, The Latin Kingdom., p. 210 .

٣- : تاريخ التجارة ، ص١٨٣ ؛ . Rey Les Colonies Franques. p. 191

الحديثة [١]. ففى المعارك التى دارت حول مدينة عكا (١١٨٩-١١٩٣م) شهدت تلك المدينة قيام معسكر للمسلمين ، وسار فيه النشاط التجارى جنبا إلى جنب مع النشاط الحربى، ونستدل على ذلك من الوصف الذى ساقه لنا الرحالة عبد اللطيف البغدادى عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م، قائلا «كان السوق الذى فى عسكر السلطان عظيما ذا مساحة فسيحة، فيه مائة وأربعون دكان بيطار ، وعددت عند طباخ ثمانيا وعشرين قدرا ، كل قدر تسع رأس غنم، وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق، وأظنها سبعة آلاف دكان ليست مثل دكاكين المدينة بل دكان واحد مثل مائة دكان ، لأن الحوائج فى الأعدال والجوالقات ويقال أن العسكر انتشت منزلتهم لطول المقام، فلما ارتحلوا غير بعيد ، وذلك سمّان أجرة نقل متاعه سبعين دينارا ، وأما سوق البز العتيق [٢]، والجديد فشىء يبهر العقل، وكان فى المعسكر أكثر من ألف حمام وأكثر ما يتولاها المغاربة ، ويجتمع منها اثنان أو ثلاثة ، ويحفرون ذراعين فيطلع الماء ويأخذون الطين فيعملون منهحوضا وحائطا ، ويسترونه بحطب وحصير، ويقطعون حطبا من البساتين التى حولهم، ويحمون الماء فى قدور ، وصار حماما يغسل الرجل بدرهم وأكثر »[٣]. وخلال تضييق الحصار على المدينة آتى رسل من قبل الملك ريتشارد قلب الأسد يطلبون فاكهة وثلجا ، بالإضافة إلى التفاوض من أجل الصلح وحدث إن دخل هؤلاء الرسل سوق العسكر، وتفرجوا فيه، وعادوا تلك الليلة إلى معسكرهم»[٤].

ولاشك أن سوق العسكر كان مؤقتا يجتمع فيه التجار لمدة معينة أثناء فرض حصار طويل أو معركة طويلة الأجل، وبعد أن ينتهى الغرض منه كانت تنتهى هذه السوق، ويرحل تجاره.

١- قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى عصر سلاطين المماليك (دار المعارف، ١٩٧٩م) ، ص٣٧ .

٢- يقصد به سوق الثياب والأمتعة والأسلحة (المقريزى: السلوك ، جـ١ ، ص١٩) .

٣- عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار، (نشره وعلق عليه دى ساسى ، ط القاهرة)، ص٨ ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص١١٩-١٢٠ .

٤- أبو شامة : الروضتين ، (دار الجيل ، بيروت)، ص ص١٨٧ .

ويبدو أن الهيئات العسكرية الدينية من الداوية والاسبتارية فى المدن الصليبية كانت لهم أسواقهم الخاصة بالإضافة إلى الأسواق الملكية وقد عرفنا ذلك من كلام بيجلوتى Pegolotti الذى ذكر أن(الداوية والاسبتارية كانت لهم مقاييسهم الخاصة ، وهذا يؤكد ما ذهب إليه بيجلوتى من وجود مثل هذه الأسواق الخاصة بالعسكريين ، ومن الطبيعى أن هذه الأسواق لم يعرض فيها جميع أنواع السلع والمتاجر الضرورية ، مما أدى إلى استمرار الأسواق المختلفة الأخرى فى المناطق الصليبية [١].

والحقيقة أن تعدد أسواق وتنوعها فى المدن الصليبية يرجع أساسا إلى تعدد القوى السياسية فى المملكة الصليبية واختلاف المصالح الاقتصادية والمالية فيما بينهم، ولذا عرفت المدن الصليبية الهامة مثل بيت المقدس وعكا وطرابلس وأنطاكية وصور وغيرها الأسواق الدورية والموسمية، وقد ازدهرت هذه الأسواق إبان فترة الاستقرار السياسى للملكة الصليبية، تلك الفترة التى امتدت إلى ما قبل ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وانحسار الوجود الصليبى فى شريط ضيق على ساحل البحر المتوسط، بعد معركة حطين الشهيرة.

ويمكننا تتبع حركة الأسواق وأنواعها ومظاهر الحياة اليومية من خلال أسواق مدينة القدس ، والتى كانت مركز تجاريا هاما قبل الوجود الصليبى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

كانت مدينة القدس العاصمة السياسية والدينية للمملكة الصليبية بها مقر الملك الصليبى، ويجلس على رأس كنيستها البطريرك اللاتينى وقد ذكر مؤرخ مجهول أن المدينة كانت لها أربع بوابات رئيسية تقع فى الجهات الأصلية ، وهى بوابة داود فى جهة الغرب والبوابة الذهبية فى الشرق، وبوابة جبل صهيون فى الجنوب وفى الشمال كانت توجد بوابة القديس جيمس [٢]. كما كانت منازل وبيوت مدينة القدس مرتفعة البناء ومبنية من الحجارة وذات أسقف مسطحة[٣]. فقد ذكر مجير الدين الحنبلى «أن بناء بيت المقدس غاية فى الأحكام والإتقان جميعه بالأحجار البيض النحت، وسقفه معقود، وليس فى بنائه لين، ولا فى سقفه خشب»[٤]،

1- Prawer, The Latin kingdom, p. 413 .

2- Anonymous The City of Jerusalem" pp. 4,5; Burchard, Op. cit., p. 80 .

3- Theoderich, Op. cit., p. 5 .

٤- مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (المطبعة الحيدرية النجف، الاشراف ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م) ، جـ٢ ص٥٥،٥٦ .

وأعجب الرحالة كازولا Casola الذى زار المدينة فى القرن الخامس عشر الميلادى (١٤٩٤م) بجمال بيوتها ومنازلها التى كانت تتكون من طابق أو أكثر وبأسواقها المسقوفة الممتدة على مرمى البصر[١].

كانت معظم شوارع مدينة القدس مرصوفة بالأحجار ، ومسقوفة يتخللها فتحات لإدخال الضوء[٢] ، وكانت هذه الشوارع مخصصة لانعقاد الأسواق فكانت هناك أسواق مخصصة لبيع الحبوب، وأسواق لبيع السمك وأخرى للطيور وأسواق للأعشاب الطبية والفواكهة ، وقد خصصت شوارع للصيارفة وشوارع لبيع المنسوجات والأقمشة وشوارع لبيع المشغولات الذهبية وأعمال الصاغة، كما خصصت شوارع للحجاج يغتسلون فيها ويحلقون ويشترون منها الأطعمة المطهية ، وكان هذا الشارع يسمى شارع الطهى الردىء أو شارع الطباخين [٣]، وقد أشار الرحالة فورزبرج Wurzburg إلى أسواق مدينة القدس ووصفها بأنها عبارة عن شوارع متشعبة الجوانب ومتعددة ، وكان يتوافر فيها شتى أنواع السلع والبضائع الهامة وكان شارع السوق يواجه كنيسة القيامة [٤]. وفى وسط هذا الشارع كان يوجد حجر قديم يمتد عبر الشارع على شكل قنطرة ، وكان هذا الحجر مقدسا[٥].

وهكذا عرفت بيت المقدس الصليبية العديد من الأسواق وتخصص كل سوق فى بيع سلعة معينة، وكان لكل سوق طريقة التعامل التجارى الخاصة به ، كما كانت هناك بعض الأسواق تبيع أنواعا مختلفة وهائلة من السلع والبضائع، حيث كان السوق هو المركز التجارى الهام فى المدينة واحتفظت الأسواق الصليبية فى مدينة القدس بالتقسيم الثلاثى التقليدى فكان سوق المدينة الكبير عبارة عن تقسيمات ثلاثة متوازية، وكانت هذه التقسيمات تضم عدة أسواق

1- Casola, Casola's Pilgrimage to Jerusalem, Eng. by Margrate, Newett, Manchester, 1907, p. 250 .

2- Theoderich, Op. cit.,p. 5 .

3- Smail, Op. cit., p. 71 .

4- Wurzburg, Op. cit., p. 48 .

٥- كان هذا الحجر مقدسا لأنه قيل إن السيدة مريم العذراء أم المسيح عليه السلام كانت تخلد إلى الراحة هى وطفلها تحت ظل هذا الحجر ، وكان هذا الحجر يحى هذه الذكرى، . (Wurzburg, p. 48)

نوعية فالتقسيم الأول وهو الغرب كان يضم سوق الأعشاب[١]، والذى كان عبارة عن شارع مسقوف فيه الأعشاب الطبية (العطارين) ، والبهارات ، والفواكهة والمواد الغذائية وكان سوق السمك يقع عند قمة شارع الأعشاب ، والذى تحول إلى ميدان خاص به، وكان يوجد خلف سوق الأعشاب سوق الطيور والذى درج الصليبيين على تسميته سوق الديك، وكان يباع فيه الطيور والبيض والجبن وكل المنتجات المحلية [٢]، وقام التجار الشوام والصليبيين ببيع المواد الغذائية والشموع فى هذه السوق[٣]. وانتشرت على جانب شارع سوق الأعشاب محلات الصاغة الخاصة بالتجار الصليبين ومحلات الصاغة والمجوهرات الخاصة بالتجار الشوام فى الجهة اليسرى والجهة اليمنى من الشارع على التوالى[٤]، فقد كانت سوق الصاغة عبارة عن حوانيت للتجار الشوام والصليبيين ممتدة على الشارع الذى يبدأ من باب المسجد الأقصى المعروف بباب السلسلة إلى باب المدينة المعروف بباب الخليل [٥]. ويرجع هذا التقسيم إلى تخصص كل من التجار الشوام والصليبيين فى نوع معين من المجوهرات.

كان سوق وسط المدينة يسمى سوق الطباخين أو سوق المأكولات المطهية، وكان هذا السوق يوجد فى شارع مال كويسينيات Quisinat وقد خصص هذا الشارع أو السوق لبيع الأطعمة المطهية للحجاج ، كما كانوا يغسلون فيه رؤوسهم ، لكى يذهبوا بعد ذلك إلى كنيسة القيامة[٦]، القريبة من الشارع ، ومما يذكر أن الملكة ميلزاند* (أم الملك بلدوين الثالث

١- شارع الأعشاب يسمى الآن سوق اللحم، وقد استمر هذا الشارع مسقوما طوال القرن الثانى عشر الميلادى .(Anonymous “ City of Jerusalem, p. 6, Note. 2)

2- Anonymous, The City of Jerusalem, pp. 6,7, Prawer, The Latin Kingdom, p. 409 ; Benvenisti, Op. cit., p. 55 .

3- Anonymous, Op. cit., pp. 17,18 .

4- Anonymous, The City of Jerusalem"., p. 7 .

٥- الحنبلى : المصدر السابق، جـ٢ ، ص٥٢ ، ٥٣ .

6- Anonymous, Op. cit., p. 11 .

* ميلزاند، الملكة ميلزاند هى أم الملك بلدوين الثالث والوصية على عرش مملكة بيت المقدس وكانت الملكة وصية على ابنها القاصر وعندما أتم بلدوين الثالث الثانية والعشرين أراد أن ينفرد بالحكم لكن الملكة الأم رفضت التنازل له عن السلطان ، وقامت حرب أهلية بين الملك وأمه فى سنة ١١٥٢م. انتهت بانتصار بلدوين الثالث (سعيد عاشور: الحركة الصليبية، (الأنجلو المصرية ، ط٢ ، ١٩٨٢م) ، جـ٢، ص٦٢٨ ، ٦٢٩) .

١١٤٤-١١٦٢م) قامت ببناء سوق الطباخين فى عام ١١٥٢م وذلك بواسطة طائفة من البنائين المسلمين الذين كانوا يسكنون منطقة البيرة [١]. وقد أعجب الرحالة كازولا من منظر سوق الطباخين فى مدينة القدس أثناء زيارته لها كما صرح بأنه قد أخبر من أهل المدينة بأنه لايوجد شخص فى مدينة القدس يطهى طعامه فى منزله ، وإذا أراد أى شخص الأكل فليذهب ويشترى من السوق ما يلزمه ، كما لاحظ الرحالة أيضا اعتدال أسعار الأطعمة المطهية مثل اللحم المطهى والبيض وكل الأشياء الضرورية، كما ذكر هذا الرحالة سوقا آخر فى مدينة القدس، كان مليئا بالتجار والمتاجر المختلفة التى يعرفها الناس وكان منظر هذا السوق جميلا[٣].

وضم التقسيم الأول للسوق الكبير فى مدينة بيت المقدس الصليبية أسواق الملابس والقماش[٤]، وكان هذا السوق عبارة عن طريق طويل ومسقوف ومختص ببيع الأقمشة بمختلف أنواعها، وكان هذا السوق يقع بجوار حارة مزربان من الغرب[٥]، كما كانت هناك سوق لبيع الفراء بأنواعه المختلفة والتى كانت تجلب من سيبيريا عبر أرمينيا كذلك وجدت أسواق يباع فيها ريش النعام وريش الدواجن والملح[٦].

وكانت منطقة السوق الثانية فى مدينة القدس تقع بالقرب من كنيسة القيامة عند تقاطع الشارعين الرئيسين للمدينة وكانت المنطقة الثالثة للسوق تقع بالقرب من منطقة المعبد ومجاورة لحائطالمبكى ، وكان يوجد مكان واسع فى شارع المعبد خصص للذبح وأعمال الجزارة وكان سوق اللحم يقسع فى هذا المكان[٧]، وفى هذه المنطقة أيضا وجد سوق الماشية التى كانت يباع فيه

1- Benvenisti, Op. cit., p. 55 .

2- Casola, Cosla, Pilgrimage to Jerusalem, p. 251;

رشاد الإمام : مدينة القدس فى العصر الوسيط، (تونس ، ١٩٧٢) ، ص١٥٢ .

3- Casola, Op. cit., p. 251 .

4- Prawer, The Latin Kingdom., p. 409 .

٥-الحنبلى : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص٥٣ .

٦- على السيد على : المجتمع المسيحى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية (ماجستير غير منشورة ، آداب القاهرة ، ١٩٧٩م) ص١٢٩، ١٣٠ .

7- Anonymous, " The City of Jerusalem"., pp. 11,12 .

الخراف والأبقار والثيران والخنازير ، وكان الجزارون والدباغون على مقربة من هذا السوق[١] لكى يكونوا قريبين من مصادر إمدادهم ، ومن الملاحظ أن سوق الماشية كان يعقد فى ميدان مفتوح واسع بالقرب من بوابة المدينة.

وقد كان سوق الحبوب والغلال يعقد فى ساحة واسعة مفتوحة على مقربة من برج داود أو منطقة الهيكل، وذلك على الجانب الأيسر من شارع داود [٢]، حيث القمح والشعير والشوفان وغيرها مما يقدمه الفلاحون والمسلمون والمسيحيين من أهل البلاد[٣] ولعل مدينة القدس كانت تستورد القمح من عمان التى يصفها المقدسى بأنها مورد الحبوب [٤].

ومما يذكر أن سوقى الحبوب والماشية كانا يعقدان فى ساحات واسعة مفتوحة بالقرب من بوابات المدينة ، وذلك لحاجتهما إلى مساحات كبيرة، وللمحافظة على الشوارع الداخلية للمدينة ونظافتها. وكانت توجد أيضا فى مدينة القدس سوق الزيت الذى كان يباع فيه زيت الزيتون وكان يوجد بها المصابن التى يصنع فيها الصابون [٥]. ومما يذكر أن هذه السوق كان كبيرة وهامة بسبب وجود أصحاب المصابن الذين كانوا يشترون الزيت بكميات كبيرة [٦]، وأما مصدر الزيت فكان من الجبال والسهول القريبة من القدس ومن جبل نابلس[٧].

وإذا كانت مدينة بيت المقدس قد زخرت بالأسواق العديدة لمرتبطة بوصول الحجاج والأعياد الدينية المسيحية والتى تكلمنا عنها ضمن الأسواق الموسمية السنوية ونصف السنوية [٨]، فإن المدينة أيضا كانت لها أسواقها الدورية الأسبوعية التى تقام كل أسبوع فكان يقصدها أهل الريف المجاورين للمدينة، يبيعون فيها منتجاتهم الزراعية والحيوانية، ويشترون من أسواقها

1- Prawer , Op. cit., p. 409 .

2- Anonymous, " The City of Jerusalem", pp. 5,6 ; Prawer, Op. cit., p. 408 .

٣- براور : عالم الصليبيين، ص٢٢٢ .

٤-المقدسى: المصدر السابق، ص١٧٥ .

5- Casola, Casola's Pilgrimage to Jerusalem., p. 251 .

٦- الحنبلى : الانس الجليل ، جـ٢ ، ص٥٣ ، ٥٤ .

٧- نفس المصدر والجزء ، ص٥٣ .

٨- ورد ذكر الأسواق المرتبطة بالحج والأعياد الدينية المسيحية فى مدينة القدس فى الصفحات رقم ١٤ ، ١٥ .

ما يحتاجون إليه من غذاء وكساء ، ولاتزال هذه الأسواق تقام إلى اليوم، وفى أيامها المعينة من الأسبوع ، كسوق الحمية فى القدس ويافا والخليل.

ومما يذكر أن الأسواق الأسبوعية كانت تقام بالقرب من بوابات المدينة، فى ساحات واسعة مكشوفة ، ويتم فيها أعمال المبادلات التجارية ، وكان المشترى يقضى بعض الوقت فى المساومة مع الباعة، كما هى عادة الشرقيين، وكانت هذه الأماكن تزدحم بالباعة والمشترين والمنادين على السلع وسط الضجيج ، كما كانت هذه الأسواق مكانا للمناداة عن فقد أحد الحيوانات، ويعلن المنادون مكافأة سخية لمن يعثر عليها أو يرشد عنه [١].

والمتأمل فى أسواق مدينة القدس الصليبية يجد أنها قد تخصصت فى بيع جميع أنواع المواد الغذائية ، كما أنها خدمت ولبت جميع مطالب الحجاج المسيحيين الذين كانوا يتوافدون إليها كل عام، ولم تذكر أسواق للسلاح أو للرقيق ضمن أسواق المدينة، وذلك يرجع إلى طبيعة المدينة الدينية ، وللفلاحين المقيمين فى القرى المجاورة لها ، فكان هؤلاء الفلاحون يترددون على هذه الأسواق لتصريف منتاجتهم وشراء ما يلزمهم من غذاء وكساء.

وكانت أسواق المدينة تشهد ازدهارا ورواجا فى موسم الحج السنوى، وأثناء الاحتفالات الدينية للمسيحيين ، فكانت شوارع الأسواق تضق بالمارة ، ويتزاحم خليط من الغوغاء الصليبيين والشوام، و هناك الفلاح الأسمر مرتديًا القميص الأبيض والخف الأحمر والعمامة البيضاء وفارس الصليب الأحمر فى الدرع ، والمسلمون فى حللهم، والأمراء النورمان فى فروهم والقرمزى راكبى خيولهم العربية يشقون شارع السوق وهناك زوجة الفلاح فى ملابسها الزرقاء تحمل السلة فى يدها والحاج من أرمينيا أو القوقاز أ من روسيا ، والتاجر الإيطالى والرجل الفرنسى يختلطون معا فى الشوارع، وكان البطارقة الصليبيون أو الشرقيون يمرون فى الشوارع أثناء الاحتفالات والمواكب الدينية[٢].

١- على السيد على : القدس فى العصر المملوكى ، ص. ٢١ .

2- Ludolph , Op. cit., pp. 52, 53 ;

عبد الحفيظ محمد على : الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، (ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة ، ١٩٧٥) ، ص١٩٧، ١٩٨ .

وبالإضافة إلى أسواق مدينة القدس الصليبية، فإن ثمة مدنا صليبية أخرى اشتهرت بأسواقها ، فقد كان لمدينة الرملة أربعة أسواق رائجة ، ويذكر مجير الدين الحنبلى أسواق مدينة الرملة وأنواعها فيقول : «كان لمدينة الرملة أربعة أسواق متصلة من أربعة أبواب إلى وسطها، فمن باب يافا يدخل فى سوق القماحين ، وهو متصل بسوق البصالين حتى يتصل بمسجد جامعها . وهى أسواق حسنة يباع فيها أنواع السلع ويتصل بباب القدس سوق القطانين إلى سوق المشاطين للكتان إلى سوق العطارين إلى المسجد الجامع، ويتصل بسوق الحبابين من باب بازور ، ثم سوق الجزازين ثم البقالين إلى المسجد الجامع ويتصل بباب آخر من أبوابها سوق الصياقلة ثم سوق السراجين إلى المسجد الجامع»[١].

ويتضح من كلام الحنبلى أن أسواق الرملة تخصصت فى بيع نوع معين من السلع واشتقت السوق اسمها من اسم السلعة التى تبيعها، كما هى عادة الأسواق فى العصور الوسطى.

وتعتبر مدينة رام الله من المدن التى اشتهرت بأسواقها ، فقد ذكر الرحالة كازولا أسواق مدينة رام الله أثناء زيارته الأراضى المقدسة ووصفها بأنها كانت عبارة عن شوارع جميلة مخصصة لبيع المأكولات المطهية والخضروات ، وكانت هذه الأسواق عبارة عن شارعين ، شارع الطباخين ، حيث الأطعمة والمأكولات المطهية المعدة للبيع، وشارع آخر ملىء بالمتاجر ، وكانت هذه الأسواق تبيع الفواكه التى كانت ترد إليها من مدينة غزة ، وقد أخبر كازولا من مرافقة رئيس دير جبل صهيون بأن هذه الفواكه من أجود أنواع الفواكه الموودة فى العالم، وكانت سوق الطباخين تباع فيها الدجاج المطهى والبيض ، وقد أعجب كازولا أيضا باعتدال الأسعار فى أسواق رام الله[٢].

واشتهرت مدينة بيت لحم بأسواقها أيضا، وكانت هذه الأسواق تقام داخل أسوار المدينة فى مكان عام، وكانت عبارة عن شوارع مسقوفة ذات قباب تحملها أعمدة من الرخام [٣]، وحفلت هذه الأسواق بشتى أنواع السلع والبضائع .

١- الحنبلى، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٦٨ .

2- Casola, Casola's Pilgrimage to Jerusalem., pp. 240, 241 .

3- Burchard, Op. cit., pp. 51,52 .

واشتهرت مدينة طبرية عاصمة إقليم الجليل بسوقها الكبير الذى كان يعج بالتجار والباعة الجائلين [١]، وإلى جانب سوق طبرية كانت هناك عدد من الأسواق فى إقليم الجليل، منها سوق بيسان الذى امتلأ بأنواع الغلال المختلفة[٢]، ولم تقتصر أسواق اقليم الجليل على المدن فحسب، بل أقام الصليبيون لأنفسهم أسواقا بجوار مستوطناتهم خارج نطاق المدن، وأهم هذه الأسواق، السوق الذى أقامه الصليبيون بجوار قلعة صفد [٣]، فقد كانت القلاع الصليبية شبه مستعمرة تحتوى على سوق ومنشآت أخرى ، بالإضافة إلى كونها مركزا للدفاع ضد غارات المسلمين .

كانت مدينة صيدا أيضا تشتهر بأسواقها العديدة فى الفترة الصليبية ، وقد اشتركت مع أسواق العاصمة (القدس) فى أنواع هذه الأسواق ، وتقسيماتها وأنواع السلع التى تبيعها، ومما يذكر أن أسواق صيدا أثارت إعجاب الرحالة الذين زاروا المدينة فيذكر ناصر خسرو أن أسواق صيدا مزينة تزيينا رائعا، حتى يظن الزائر ان المدينة قد أخذت أهبتها لاستقبال السلطان»، «وفى صيدا سوق جميل نظيف وقد ظننت حين رأيته أنه زين خاصة لمقدم السلطان، أو لأن بشرى سعيدة أذيعت ، فلما سألت قيل هكذا عادة هذه المدينة دائما »[٤]. فقد نشطت حركة الأسواق فى صيدا لأنها كانت منفذا لتصريف تجارة بعض الأقطار الإسلامية ، وذلك بفضل موقعها البحرى الهام.

وتعتبر مدينة صور من المدن الصليبية الهامة، وقد لعبت دورا هاما فى النشاط التجارى فى الفترة الصليبية، وذلك بفضل عوامل كثيرة ، ولذا اشتهرت باسواقها العديدة المزدهرة المكتظة بالبضائع والسلع ، ويقول ابن جبير عنها «فهى أنظف من عكا سككا وشوارع »[٥]، كما أعجب ناصر خسرو بأسواق صور وذكر أن « أسواقها جميلة كثيرة الخيرات، وتعرف مدينة صور بين مدن ساحل الشام بالثراء[٦]. ولاشك أن ما ذكره الرحالة عن مدينة صور يدل على

١- ليلى طرشوبى: إقليم الجليل، ص١٤٠ .

٢- أبو شامة : الذيل على الروضتين، ص١٠٢ .

3- Mayer, The Crusades., p. 152 .

٤- ناصر خسرو : المصدر السابق، ص١٤، ص١٥ .

٥- ابن جبير : المصدر السابق، ص٢١٢ .

٦- ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص١٥ .

ازدهار أسواقها المحملة بالبضائع الأوربية ، وشهدت المدينة عدة أسواق ملكية وأسواق للجاليات الإيطالية الموجودة بها ، كما كانت مدينة صور تعج بالأسواق المستقلة وشبه المستقلة فى إدارتها عن السلطات الصليبية[١].

وتعتبر مدينة طرابلس من أهم المدن الصليبية فى بلاد الشام فقد كانت عاصمة لإمارة صليبية، وتابعة اسميا لمملكة بيت المقدس الصليبية، ونظرا لموقع مدينة طرابلس الهام على البحر المتوسط فإنها أصبحت مركز تجاريا هاما، وتبعا لذلك اشتهرت بأسواقها المتعددة ، فقد وجدت فى طرابلس أسواق لبيع اللحوم والصابون وأسواق للصباغة والمنسوجات والأسماك[٢]، فقد أعجب الرحالة الفارسى ناصر خسرو من روعة أسواق طرابلس ورواجها التجارى فى منتصف القرن الحادى عشر فيقول « ... وشوارع المدينة نظيفة وأسواقها جميلة، حتى ليظن أن كل سوق قصر مزين، ففى السوق مشرعة ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير، يأخذ منه الناس حاجتهم... »[٣]. وفى الفترة الصليبية عرفت طرابلس أسواقا عديدة وكانت هذه الأسواق تقام فى الميدان المعروف باسم ميدان السوق[٤] (Placearium Montis Peregrini) وقد مكن موقع طرابلس كمرفأ تجارى هام، وكمركز لتجمع كثير من الصادرات عن قيام نشاط تجارى فى المدينة ، فأقيمت الأسواق المحلية، ووجدت حركة تجارية ساهمت بقدر كبير فى زيادة الرخاء بالمدينة، واستفاد السكان دون شك من كل ذلك وازداد ثراؤهم[٥].

كانت مدينة أنطاكية من المدن الصليبية الشهيرة ، فهى عاصمة إمارة أنطاكية الصليبية ، أولى الإمارات الصليبية التى تأسست فى منطقة الشرق العربى، وقد كانت هذه المدينة تتصل بالبحر المتوسط عن طريق ميناء السويدية التى يبعد عنها بمسافة عشرة كيلو مترات تقريبا وهذا يبرز أهمية موقعها فى المجال التجارى، إذ كانت منفذا لتصريف البضائع والسلع التى

1- Smith Riley, "Government in the Latin Syria., p. 116 .

2- Smith, Covernment , p. 116 .

٣- ناصر خسرو : المصدر السابق، ص١٣ .

٤- السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى (الاسكندرية ١٩٦٦م) ، ص. ٢٠٥

٥- سعيد عاشور : الحركة الصليبية، جـ١ ، ص٣٦٣؛ محمد محمد الشيخ : الإمارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر من الميلاد (دكتوراة غير منشورة، آداب القاهرة) ص١٩ .

كانت ترد إليها من بلاد العراق ودمشق وحلب، ونظرا لأهمية المدينة التجارية فقد تعددت أسواقها فى الفترة الصليبية ، كانت هناك أسواق للجلود وأسواق للنبيذ والأسماك ، كما كانت توجد أسواق الصباغة فى اللاذقية، وأسواق الزيت والزيتون والفاكهة ، كما اشتهرت أنطاكية بأسواق الملابس بمختلف أنواعها[١] ، ومما ساعد على ازدهار أسواق مدينة أنطاكية أيضا وجود جاليات إيطالية بها فكانت لهم أسواقهم الخاصة والتى حصلوا عليها ضمن الامتيازات الخاصة بهم فى المدينة[٢]. بالإضافة إلى التبادل التجارى المزدهر بين أوربا الغربيتوبين منطقة الشرق العربى خلال الفترة الصليبية.

والواقع أن المدن البحرية الصليبية كانت هى المراكز التجارية الرئيسية ، وليس من الغريب أن تزدهر أسواق هذه المدن وتتعدد أنواع السلع التى تعرضها، ومن هذه المدن البحرية التى اشتهرت بأسواقها مدينة عكا.

وتعتبر أسواق مدينة عكا الصليبية من أهم أسواق المناطق الصليبية وأشهرها من حيث الرواج التجارى، وتنوع السلع والبضائع التى كانت تحتويها هذه الأسواق ، ولاغرو فقد أصبحت عكا عاصمة المملكة الصليبية بعد استرداد المسلمين للقدس فى سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م على يد صلاح الدين الأيوبى ، وأصبحت بذلك المركز السياسى والدينى والاقتصادى للصليبيين، ففيها مقر الملك أو من يمثله، ولجأ إليها الكثير من كبار شخصيات الكنيسة والفرسان الذين طردوا من قلاعهم، وكان لابد لهذه الظروف أن تجتذب المزيد من تجار الغرب، وتثير بينهم روح المنافسة ، فبدأ يزداد عدد التجار الأوربيين وخاصة الإيطاليين الذين كونوا لأنفسهم جاليات فى المدينة ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى تعدد الأسواق وتنوعها[٣].

وقد لعب ميناء عكا البحرى دورا كبيرا فى رواج الحركة التجارية وازدهار أسواقها، فقد ذكر ابن جبير مدينة عكا عند زيارته لها فى عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٤م بأنها «قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، مرفأ كل سفينة ، والمشبهة فى عظمتها بالقسطنطينية ..... وملتقى تجار المسلمين من جميع الآفاق، سككها وشوارعها

1- Smith, " Government, p. 116 .

٢- هايد: تاريخ التجارة ١٦٢ .

٣- نفس المرجع ، ص٣٢٤ .

تغص بالزحام ...»[١]، كما وصف ابن جبير السوق الملكى فى عكا ، وأشار إلى الاجراءات التى كانت تتبع عند بوابة المكوس فى عكا ، وأشار إلى الاجراءات التى كانت تتبع عند بوابة المكوس للسوق الملكى، وطريقة تحصيل الرسوم من تجار القوافل [٢]. فقد كان السوق الملكى فى عكا يقع فى الجزء الشمال الشرقى من المدينة، وكان الشارع الهام الممتد من شرق المدينة إلى غربها مكانا لإقامة الأسواق المتعدد وقد شمل هذا الشارع أيضا مكاتب لتحصيل الرسوم والجمارك، ومقر محكمة السوق، بالإضافة إلى فندق[٣] أو نزل للتجار[٤].

وكان الفندق فى مدينة عكا يقع بعيدا عن الميناء، وكان بمثابة سوقا كبيرا للمنتجات المحلية، ومخزنا لها لمواجهة احتياجات السكان، كما كانت المنتجات الريفية أهم السلع والبضائع التى تطرح فى السوق للبيع، وهذه المنتجات كانت تشمل الماعز والدجاج والحبوب والخضروات، والفواكه ، والبيض والجبن والخمر والزيت وزيت السمسم والزيتون ، وكانت هذه المنتجات تأتى من المناطق الداخلية، وذلك بواسطة التجار المحليين، فقد كان التجار المحليون يجلبون هذه البضائع من خارج المدينة أو من الحقول النائية عنها، وكان السكر يأتى إلى المدينة عن طريق البحر أو على ظهر الخيول أو الجمال وكان الكتان يأتى إلى المدينة من دمشق ومصر وأيضا السمك المجفف وكانت الخمور والمشغولات الذهبية تأتى إلى المدينة من أنطاكية واللاذقية ، وبالإضافة إلى أهمية عكا الاجتماعية، فقد كانت المدينة مركزا لإعادة تسويق

١- ابن جبير : المصدر السابق ، ٢١١ .

٢- نفس المصدر الصفحة .

٣- كلمة فندق Fronde مرتبطة بكلمة فنداكيم Fondacum التى وصلت أخيرا إلى كلمة فندق فى اللغة العربية، وهى نفس الكلمة التى ترجمة عن اليونانية ، وقد وجد الفندق فى مناطق عديدة من مناطق البحر المتوسط ، ولكن فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية كان للفندق أربع تسميات مختلفة فهو يشير إلى الخان الذى تبنى حوله فناء مفتوح ، وكان مكون من طابقين السفلى لتخزين السلع والعلوى لإقامة التجار، كما كان الفندق يعنى السوق، أو القيسارية ، بالإضافة إلى أن كلمة فندق كانت تستعمل للدلالة على مجموعة من الأسواق تحت إدارة واحدة .

(Smith , " The Government"., p. 115).

4- Benvenist., Op. cit., p. 109 .

السلع والاستهلاك[١]. ويذكر أحد الرحالة الذين زاروا المناطق الصليبية أن أسواق عكا كانت تقام بالقرب من أسوار المدينة، وكان لكل تجارة شارع خاص بها، كما كانت شوارع الأسواق فى عكا مسقوفة بالحرير [٢]، مما يدل على ازدهار هذه الأسواق ورواجها وثراء تجارها .

وقد وجدت فى عكا أسواق لبيع اللحوم والجلود المدبوغة[٣] كما وجد سوق للرقيق، حيث كان يباع فيه أسرى الحرب الذين وقعوا فى الأسر نتيجة المعارك العسكرية بين الطرفين الإسلامى والصليبى بالإضافة إلى الرقيق الذى كان يجلبه التجار الإيطاليون وخاصة الجنوية من أوربا وجنوب روسيا إلى أسواق عكا [٤]. وبالإضافة إلى أسواق الرقيق كانت توجد فى عكا أسواق التوابل والبهارات، والسكر والمواد الغذائية والمنسوجات، وأسواق المعادن الثمينة كالعاج والذهب سواء كانت سبائك أو مشغولات ذهبية، وكذلك أسواق لبيع الخزف والرخام وأسواق للخيول والأسلحة كالأقواس والسهام [٥].

وبالإضافة إلى الأسواق الصليبية الملكية فى مدينة عكا، وجدت أيضا زسواق الجاليات الإيطالية داخل أحيائهم الخاصة بهم وكانت هذه الأسواق عامرة بشتى أنواع السلع والبضائع الشرقية منها والغربية، فقد كان للبنادقة والجنوية والبيازنة أسواقهم داخل أحيائهم، كما كانت هناك أسواق للبروفنساليين تحت إشراف المارسيلين كما كان للهيئات الدينية العسكرية (الداوية والسبتارية) أسواقهم الخاصة فى عكا[٧].

والحقيقة أن عكا فى الفترة الصليبية كانت تضم نوعين من الأسواق أو الفنادق ، وكان الفندق الأول يسمى فندق الإيراد العام أو الميزانية العام "EN Aval" وكان هذا الفندق يقع فى أرض منخفضة عن الميناء، وكان يضم الأسواق الإيطالية ، وفندق آخر كان يسمى فندق الإيراد الخاص "EN Amont" وكان هو الفندق الملكى، الذى يضم مجموعة من الأرباع والأسواق على

1- Smail, Op. cit., pp. 77, 78 .

2- Ludolph , Op. cit., p. 51 ; Urban Tignor Holmest ., " Life Among The Europeons in Palestine and Syria"Cf. Setton, vol, IV, p. 6 .

3- Smith, "The Feudal Nobility., "p. 62 .

4- Smith , The Feudal Nobility., pp. 64, 65 .

5- Prawer , The Latin Kingdom., p. 412 .

مقربة منه وقد ذكر هذا الفندق الملكى فى عكا فى وثيقة من عام ١١٨٨م ، وقد حدد موقعة فى الجزء الجنوس الشرقى من المدينة ، وقريبا من أسوارها [١].

وكان الفندق الملكى هذا يتكون مبنى واحد يقع فى وسط الأسواق ، وكان يجلس فى هذا المبنى أعضاء محكمة الفندق أو السوق[٢] التى تشرف على إدارة الأسواق الملكية .

ومما يذكر أن مدينة عكا كانت تضم ستة أسواق مستقلة فى إدارتها عن السلطة الملكية، وكان أبرز هذا الأسواق سوق اللحم والجلود المدبوغة[٣].

ولاشك أن هذه الأسواق الستة كانت تشمل أسواق البنادقة وأسواق الجنوية وأسواق البيازنة، وأسواق البروفنساليين الذى كان يشرف عليها المارسيليون، وأسواق هيئات الداوية والاسبتارية فقد حصل أفراد الجاليات الإيطالية فى المدن الصليبية على امتيازات عديدة منها حق امتلاك سوق خاص بهم تحت إدارتهم الخاصة وحرية استخدام المقاييس التجارية الخاصة بهم، وهذا ما أقرته بنود المعاهدات التى أبرمت بين المدن الإيطالية والحكام الصليبيين[٤].

وقد ازدهرت الأسواق الستة السابقة على حساب الأسواق الصليبية الملكية فى عكا، ويؤكد براور هذه الحقيقة فى ضوء ما أوضحته الوثائق التجارية فى القرن الثالث عشر الميلادى، حيث أنها لم تذكر السوق الملكى فى عكا إلا نادرا [٥]. وإن كان هذا لايقلل من شأن الأسواق الملكية فى عكا والقيام بدورها التجارى حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، ولو بشكل أقل عن ذى قبل، فقد كانت القيود المتتابعة على التجارة من قبل الحكام الصليبيين تعمل على تثبيط همة وعزيمة التجار ، وخاصة تجار القوافل البرية فى إحضار أية سلع أو بضائع من أى ميناء مسيحى أو من أية منطقة إسلامية مجاورة إلى الأسواق الملكية ، مما انعكس آثاره على هذه الأسواق وأصابها بالكساد .

1- Smith, Op. cit., p. 65 .

2- Loc. Cit.

3- Smith, "The Government"., p. 116 .

4- William of Tyre, Op. cit., vol , I. pp. 553, 554

5- Prawer , The atin Kingdom., p. 412 .

والحقيقة أن العلاقة بين السوق والميناء التجارى لم تكن واضحة تماما فى العصور الوسطى، ويجب أن نعتبر أن الميناء التجارى كان عبارة عن سوق بالإضافة إلى كونه مكانا أو ديوانا لتحصيل الرسوم والجمارك ، كما خصص للتصدير العالمى، وكان السوق مخصصا للتجارة المحلية، وإن كان هذا ليس مؤكدا تماما، ولذلك لأن النساجين الشوام من عكا قد تم إعفاؤهم من رسوم الميناء بمقتضى مرسوم ملكى، وبالعكس فإنهم كانوا يدفعون رسوما وضرائب فى سوق البنادقة [١]. أى أن العلاقة بين السوق والميناء التجارى علاقة متداخلة لا انفصام بينهما، فقد كانت الحياة التجارية تتركز فى المدن البحرية فى منطقتين رئيسيتين : الأولى وهى الميناء والثانية عبارة عن شارع يشتمل على أجهزة الميناء التجارى ، وأماكن بعرض السلع، وأماكن مسقوفة خصصت لتخزين السلع، ومكاتب للجمارك [٢].

فقد كان الميناء فى العصور الوسطى مزودا بأرصفة خشبية متواضعة تكاد تتسع لاستقبال السفن التى تبلغ حمولتها من ٢٠٠ - ٦٠٠ طن ، كما زودت هذه الموانىء أيضا بأجهزة من الروافع ، وذلك لاستخدامها فى عمليات شحن وتفريغ مئات الأطنان من الفلفل والقرنفل والقرفة وجوزة الطيب وقصب السكر، وكانت هذه السلع تمثل حمولات السفن التجارية فى ذلك الوقت [٣]، وكانت الموانىء تزود أيضا بالمنارات لإرثاء السفن والتى كانت تعلق على قمة الأبراج ، وبعد أن تنتهى عمليات التفريغ كانت السفن تسحب إلى الشاطىء لكى يتم لها أعمال الصيانة والإصلاح [٤].

وإذا اعتبرنا الميناء التجارى بمثابة سوق ، فإننا يجب أن نذكر ميناء عكا كسوق تجارى هام لها فى الفترة الصليبية ، وطبقا لما وصفه ابن جبير ، فقد كان ميناء عكا الميناء الثانى فى الأهمية بعد القسطنطينية [٥]، وكانت ترسو فيه السفن التجارية وذلك قبل موعد عيد

1- Prawer, The Latin Kingdom., p. 413 ; Smith, " The Government.," p. 112 .

2- Prawer , Op. cit., p. 403 .

3- Pirenne, Economic and Social Hist., pp. 144,91 .

4- Ibid , p. 91 .

٥- ابن جبير : المصدر السابق، ص٢١١ ؛ Byrne, Genoere Shipping in The Twelfth and Thirteenth Centuries, Cambridge, 1930 , p. 33 .

الفصح، وقد أحصى الرحالة ثيودريتش فى عام ١١٧٢م عدد السفن التى كانت ترسو فى ميناء عكا فوجدها ثمانين سفينة[٢]، وكانت هذه السفن تحمل المتاجر والحجاج من أوربا الغربية إلى الأراضى المقدسة.

ومما يذكر أن الأساطيل التجارية الأوربية كانت تظهر فى عكا مرتين فى العام فى فصل الربيع والخريف[٢]. وكانت بعض هذه السفن تحمل على متنها الحجاج المسيحيين والبعض الآخر كانت تقوم بعملية تفريغ أو شحن الحمولات التجارية، وكانت هذه السفن تحضر المنسوجات الصوفية من أوربا إلى أسواق عكا. وتنقل إلى أوربا السلع والمنتجات الشرقية[٣].

وكانت هناك بعض الإجراءات تتخذ فى الميناء مع السفن الواردة إليه فكان بحار السينة يزود بتعليمات مكتوبة وخرائط عند ذهابه إلى الميناء وعندما تصل السفن إلى ميناء عكا، كانت تتلقى إشارات بواسطة أجراس تنبية ، ثم ينطلق قارب صغير ليقابل السفينة لكى ينقل حمولتها إلى رصيف الميناء[٤]، ثم بعد ذلك تفرغ هذه البضائع على السلالم أو ألواح الخشب المحمولة على ظهور الحمالين الذين كانوا يعرفون باسم بولانى الميناء، لكى توضع على الأرصفة المزدحمة فى منطقة الميناء الضيقة [٥].

والحقيقة أنه كانت تواكب وصول هذه السفن إلى الميناء حركة تجارية نشطة، ففى اللحظة التى تظهر فيها إحدى السفن على خط الأفق فى نهاية رحلتها إلى الميناء الصليبى، كانت

1- Theoderich, Op. cit., p. 60 .

٢- ابن جبير : المصدر السابق ، ص٢١١ .

3- Smith, "The Crusaders in Syria., p. 77 .

4- Smith, " The Government"., p. 112 .

* كانت كلمة بولانى تطلق على هؤلاء الذين ولدوا فى الأراضى المقدسة من الصليبيين ويرى دى فيترى أن سبب التسمية إما لأنهم من المواليد الجدد فى الأراضى المقدسة مثلما يحدث فى حالى الفروخ الصغيرة التى تخرج إلى الحياة Pullets أو أن هذه التسمية ترجع إلى أن معظم أمهات هؤلاء البولان كانوا من مملكة ابوليا حيث تم استقدامهن إلى الأراضى المقدسة وزواجهن بالصليبيين الذين استقروا بعد الحملة الصليبية الأول . (De Vitry, Op. cit., p. 58).

٥- براور : عالم الصليبين، ص٢٢ ، ٢٢١ .

أجراس الكنائس تقرع ، وينطلق ممثلو مواطنى السفينة ، وعدد كبير من سكان المدينة فى طريقهم إلى منطقة الميناء، وكان يوم وصول السفينة أو الأسطول البحرى بمثابة العيد بالنسبة للتجار وأصحاب الحوانيت التجارية، ويسرع الجميع فى عقد الصفقات ، وتتحدد مواعيد المقابلات ، وتتداول الأيدى صكوك[١] التبادل ، وصكوك القروض [٢]. وكانت المحلات تمتلىء بالبضائع كما كان التاجر الذى يتمتع بالامتيازات له حرية العبور بمتاجره ونقلها إلى أسواق الكوميون التابع له لبيعها، فتنشط الحركة التجارية فى أسواق الكوميونات والأسواق الملكية فى المدينة، ومما يلاحظ أن الميناء كان مصدر إمداد الأسواق بكافة أنواع السلع والبضائع التى كانت تحملها السفن التجارية الأوربية إلى الموانىء الصليبية.

وقد عرفت التجارة البحرية فى العصور الوسطى أنواعا مختلفة من السفن التجارية مثل الفليون[٣] والدرموند[٤] والكات والسماك[٥] ، كما كان هناك نوع من السفن يسمى الجمال وكانت تستخدم لنقل المتاجر والركاب ، وكان لهذا النوع من السفن ثلاثة صوارى وحمولتها ٥٠٠ طن ونوع آخر من السفن يسمى الطرادات ، وكانت عبارة عن سفن تجارية على شكل حصان، وقد ساهمت القوارب أيضا فى التجارة البحرية. فقد كان للصليبيين قوارب بحرية فى بحر الجليل وفى البحر الميت للوصول إلى إمارة الكرك[٦]. ولاشك أن النقل البحرى التجارى

١- الصك فى الأصل هو سند الدين ، وكان الرجل إذا اشترى عقارا كضيعة مثلا، كتب صكا بشرائها، ويحدثنا ابن حوقل أنه رأى بأودغشت صكا باثنين وأربعين ألف دينار، وكان الصك بالعراق أشبه بالشيك الرسمى فى الوقت الحاضر (آدم متز: الحضارة الإسلامية جـ٢، ص٣٧٩ ، ٣٨٠) .

٢- براور : عالم الصليبيين ص٢٢١ .

٣- الغليون : نوع من السفن التجارية كان طولها مابين ١٠٠-١٣٠ قدم وعرضها ٢٠قدم، وكان لها صف واحد من المجاديف ، وطاقم من التجارة عدده ١٠٠ رجل (Condor, The Latin Kinhdom., p. 213)

٤- الدرموند : مركب شراعى ضخم وسريع ، كان لها شراع مربع الشكل وصفين المجاديف يصل عددها إلى ٢٥ زوج من المجاديف يعمل على كل زوج رجلان (Conder, Op. cit., p.213)

٥- السماك : كانت مخصصة لحمل المواد التموينية والإمداد العسكرى. (Conder, Op. cit., pp. 213 , 214) .

6- Conder, Op. cit., pp. 213, 214 .

فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد ساعد بقدر كبير على رواج الأسواق الصليبية وفتح مجالا أرحب أمام النشاط التجارى، كما خلق فرصا كبيرة لاستثمار رؤوس الأموال ، وتعددت أنواع السلع والبضائع المتبادلة بين الشرق والغرب، وقد لعبت المدن الإيطالية وخاصة البندقية وجنوا وبيزا بالإضافة إلى مارسيليا دورا بارزا ورائدا فى مجال النقل البحرى بما تملكه من أساطيل تجارية عملاقة، وكانت تبلغ حمولة السفينة آنذاك من ٢٠٠-٦٠٠ طن[٢].

ونظرا لانتشار أعمال القرصنة فى المبحر المتوسط فى هذه الفترة وتعرض تجار المسلمين والمسيحيين للخطر فإن السفن الحربية كانت ترافق الأساطيل التجارية لحمايتها وكان هذا الإجراء مألوفا فى العصور الوسطى، وكان تسليح طاقم السفينة أمرا ضروريا وكانت أدوات التسليح تشمل القسى والأقواس والرماح والحجارة والنار الإغريقية ، وقد اتبعت الأساطيل التجارية البندقية والجنوية هذه الإجراءات الأمنية[٢].

وإذا كان النقل البحرى المتطور فى القرنين الثانى والثالث عشر الميلاديين قد ساعد على نشاط التجارة وازدهار الأسواق فى المناطق الصليبية ، فإن النقل البرى أيضا كان له نفس الأهمية فى مجال التجارة والأسواق، فقد كانت أدوات النقل البرى للبضائع والسلع فى العصور الوسطى تشمل الدواب وخاصة البغال التى كانت تناسب هذه المهمة ، وتطورت بعد ذلك وسائل النقل البرى فاستخدمت العربة التى يجرها جوادان، أحدهما أمام الآخر، وظل النقل البرى يخدم التجارة الداخلية البسيطة فى العصور الوسطى[٣]، ومن المحتمل أن أول استخدام العربات التى تجرها الدواب فى نقل البضائع فى أوربا العصور الوسطى كان فى إيطاليا، ثم عرفت هذه العربات أيضا فى فرنسا وألمانيا[٤]، وبالإضافة إلى أدوات النقل البرى للبضائع من دوابوعربات تجرها الخيول أو الثيران، كان هناك أيضا التجار الجائلين والأقل ثراء يحملون متاجرهم فوق ظهورهم وعلى أكتافهم ، وكانوا يسافرون سيرا على الأقدام إلى الأسواق لبيع متاجرهم فيها [٥].

1- Pirenne , Economic And Social Hist., p. 91 ; Lopez, "The Comercial Revolution of Middle Ages"., Cambridge, 1976, p. 89 .

2- Byrne, Genoese Shipping., p. 37; Conder, The Latin Kingdom p. 214 .

3- Lopez, "The Commercial Revolution" ., p. 80; Birenne , Op. cit., p.89 .

4- Thompson, History of Middle Ages, 300-1500 A.D. London , 1931, p. 202 .

5- Thompson. Op. cit., p. 292 .

وقد عرفت مدن الشرق مثل هذه الوسائل البرية لنقل البضائع من والى الأسواق ، ففى المدن الإسلامى وجدت مواضع قريبة من الأسواق خصصت للدواب ومؤجريها من المكارين ، وكذلك مواضع للحمالين الذين يحملون السلع والبضائع على أكتافهم وظهورهم [١]. فقد كان أهل المناطق الريفية المجاورة للمدن الصليبية يفدون إلى أسواقها ببضائعهم من منتجاتهم الريفية يحملونها على ظهور دوابهم ، ثم يعودون بعد ذلك إلى قراهم بعد بيعها ، وشراء ما يلزمهم من هذه الأسواق ، وما تزال هذه العادة شائعة حتى الآن .

والواقع أن طريقة البيع والشراء فى الأسواق الصليبية قد جمعت بين عادتين كانتا مألوفتين فى كل من الشرق الإسلامى، والغرب الأوربى، فقد اعتاد التجار فى المدن الصليبية فتح حوانيتهم بعد الفجر بوقت قصير، وتستمر هذه الحوانيت فتح أبوابها حتى ساعة متأخرة من الليل ، وكان يتخلل هذه الفترة الطويلة بعض الوقت للراحة وخاصة وقت الظهر حيث تناول وجبة الغذاء وأخذ قسط من النوم ، وكانت هذه الحوانيت تغلق أبوابها فى الأيام المقدسة، وفى أيام تأدية الالتزامات والضرائب للسادة الإقطاعيين[٢].

ومن الجدير بالذكر أن التجار فى أوربا كانوا يضعون سلعهم على دكك خشبية أو على رفوف خشبية أو على سطح منضدة وأحيانا فى دكان مفتوح على الشارع ، وكان التجار فى منطقة الشرق العربى يفترشون الأرض ببضائعهم على الحصير أو السجاد ، ولذا نجد أن التاجر الصليبى فى عكا قد خلط بين هاتين الطريقتين ، فقد اعتاد التجار التجمع فى منطقة مركزية فى المدينة [٣]. كما اعتاد تجار المدن الصليبية فى بلاد الشام استئجار الأركان والسقائف والدكك التى يبيعون عليها وذلك من سيد المدينة أو من الهيئات الكنسية (الداوية والاسبتارية) التى كانت تمتلك بعض هذه الأدوات فى الأسواق الملكية، لاستخدامها فى أعمال البيع فى أسواق بيت المقدس وأسواق أنطاكية وطرابلس وعكا وغيرها من المدن الصليبية التجارية الأخرى فقد كان التجار يبيعون بضائعهم وثمار حدائقهم والمنتجات الريفية الأخرى

١- محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، ص٢٦٤ .

2- Holmest , : Life Among The Europears in Palestine ., p. 25 .

3- Ludolph, Op. cit., p. 51 Holmet, Op. cit., p. 25 .

فى السوق ، وذلك لإعادة بيعها مرة ثانية إلى سكان المدينة [١]. وقد عرفت أسواق المدن الصليبية التاجر الوسيط كما تعرفها الأسواق فى الوقت الحاضر .

وكانت المقايضة من الممارسات التجارية المألوفة فى أوربا فى القرن الثامن الميلادى وكانت وسيلة من وسائل الدفع بين الأفراد ، ولم يكن سبب انتشار المقايضة هو نقص تداول العملة، ولكنها كانت وسيلة يفضلها البائع والمشترى على السواء، وخاصة عند بيع وشراء المتاجر المحددة بشكل أساسى مثل المواشى والخيول والحبوب والقماش ، أى كانت المقايضة تستخدم فى حالة البضائع القابلة للتبادل فقط[٢]. ويشير جعفر بن على الدمشقى[٣] فى كتابه «الإشارة إلى محاسن التجارة» إلى طرق بيع المتاجر فى العصور الوسطى وخاصة فى أسواق طرابلس فى الفترة الصليبية فيقول «وأما مبايعتهم فهى على ثلاثة أوجه وهى أما سلف مؤجل أو استسلاف منجم أو مقارضة [٤]. فقد كانت المساومة أو المقايضة إحدى أنواع المعاملات التجارية التى كان يستخدمها التجار فى الأسواق الصليبية، وكانت المقايضة تتم بين تاجر وآخر أى بين التجار معا، وكان الرئيس العام للأسواق يحدد الأسعار الرسمية للسلع والبضائع، وذلك بعد استشارة كبار التجار، ولم تكن عمليات المساومة أو المقايضة تفرض من قبل الحكومة بل كانت تخضع لرغبات التجار أنفسهم، أى كانت بعيدة عن توجهات الحكومة [٥]، وذلك لأن الحكومات الصليبية كانت مصلحتها تنحصر فى تسعير السلع والبضائع والتى تحسب على أساسها الرسوم والضرائب التى تدخل خزانة الحكام الصليبيين ، ولذا نجد أن رئيس السوق لم يتدخل فى عمليات المساومة بين التجار طالما أنه كان يضمن تحصيل هذه الرسوم .

١- براور : الصليبيين، ص١٥٧، ١٥٨ .

2- Lopez, "The Trade Of Medieval Europe., CF. Cambridge Economic Gistory vol, II., Cambridge, 1952, pp. 259, 600 .

٣- جعفر بن على الدمشقى : كان تاجراً حكيمًا فى طرابلس الشام فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، ألف كتابه «الإشارة إلى محاسن التجارة» الذى يعد من الكتب الاقتصادية الهامة، ويعد المؤلف رائداً من رواد الفكر الاقتصادى (جعفر بن على الدمشقى: الإشارة إلى محاسن التجارة، (تحقيق البشرى الشوربجى، الاسكندرية ، ١٩٧٧م ، ص٧٢) .

٣- جعفر بن على الدمشقى: المصدر السابق ، ص٦٠ .

4- Smith "The Government"., p. 117 .

وكانت العادة المتبعة فى حالة البيع والشراء أثناء المساومة بين الطرفين أن يضع أحد التجار يمينه فى يد الآخر فإذا قال البائع «بعت» وقال الشارى «اشتريت» ترك كل منهما يد صاحبه وتم البيع والشراء [١]، وقد أشار ماركوبولو إلى طريقة المقايضة كإحدى طرق البيع والشراء فى أسواق الشرق[٢] .

كان ثمة طريقة أخرى من طرق البيع والشراء فى الأسواق الصليبية فى بلاد الشام، هى طريقة المزاد العلنى والتى كانت تعرف بالحلقة ، ولم تكن هذه الطريقة مألوفة كثيرا بين التجار ولكن منذ عام ١٢٠٠م، أصبحت هذه الطريقة مألوفة لديهم، وكان منظمو المزاد العلنى الحكوميون يقومون بهذه المهمة، فكان ينادى على البضائع فى المزاد ويعلن عنها فى السوق لكى تباع، وقد استعملت هاتان الطريقتان (المساومة والمزاد العلنى) فى أسواق مدينة عكا، وثمة دليل على ذلك ، وهو وجود وظيفة منظم المزاد العلنى فى أسواق المدن الصليبية ضمن الوظائف الحكومية التى ارتبطت بالأسواق آنذاك وقد عرفت أسواق القسطنطينية طريقة المزاد العلنى[٣].

وعرفت التجار الصليبيون أيضا طريقة المناداة فى الشوارع لترويج سلعهم وبيعها ، فقد ذكر أسامه بن منقذ أنه وجد «بنايلى دارا لرجل فرنجى يبيع الخمر للتجار، ويأخذ فى قنينة وينادى عليه ويقول» فلان التاجر قد فتح بتية[٤] من هذا الخمر من أراد شيئا فهو فى موضع كذا وكذا... »[٥]. كما انتشرت فى بعض الأسواق الصليبية المنادون والدلالون، ويشير ابن بطوطة إلى هذه الطريقة ويصفها بأن الدلال كان ينادى على من حوله من المشترين ويصف السلع التى معه بطريقة جذابة ومقنعة تجعل المشترى يقبل عليه [٦]، وقد شهدت الأسواق

١- آدم متز : الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص٢ .

٢- ماركوبولو: المصدر السابق ، ص٨ .

3- Smith, Op. cit., p. 117 .

٤- البتية : إناء واسع كالبرميل ، لعلها Bouteille أو Bouteillon أو ما يشبهها فى الأصل (ابن منقذ: الاعتبار، (اختار النصوص وعلق عليها د.عبد الكريم الأشتر، دمشق، ١٩٨٠م)، ص٢٣٦،هامش٢) .

٥- أسامه بن منقذ: المصدر السابق، ص١٣٦ .

٦- ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص٥٢ .

المصرية أيضا هذه الطريقة فى العصور الوسطى وخاصة عصر سلاطين المماليك، ويبدو أن ظاهرة الدلالات كانت منتشرة فى كل أسواق مدن الشرق العربى فى العصور الوسطى .

وكان تجار الخمر يطوفون الشارع، ينادون على بضاعتهم ، وكان يستطيع أى إنسان أن يحصل على حاجته من الخمر الطازج من هؤلاء التجار [١]، فقد كان الباعة الجائلون من أشهر الفئات التى استقلت الشوارع والطرقات لبيع متاجرهم ، ولاسيما أنه لم تكن لهم حوانيت تجارية ، وقد تنوع هؤلاء الباعة، فقسم منهم يسيرون فى الشوارع والطرقات، ويتحركون ببضائعهم محمولة على أكتافهم أو على الدواب ويتحركون ببضائعهم خلال الأزقة والطرقات، فكانو بذلك يصلون إلى كل أجزاء المدينة وشوارعها ، وكان أهل الريف الذين يأتون لبيع منتجاتهم فى المدينة من هذه النوعية من الباعة الجائلين [٢].

وأما القسم الثانى من الباعة الجائلين فكانوا يفترشون الأرض أمام الحوانيت فى الأسواق ويتخذها مقاعد لبيع سلعة ، ومن ثم أطلق عليهم اسم «أرباب المقاعد» وكان هؤلاء التجار يتجمعون فى سوق معينة لبيع بضائهم المختلفة فيها[٣].

وقد ظهرت بعض عادات التجار الشائعة فى الأسواق الصليبية وهذه العادات كان يتميز بها التاجر الشرقى، وهى أن التاجر الشرقى كان يطلب خمسة أمثال ما تساويه سلعته ، وكانت الصفقة لاتتم إلا بعد جدل طويل، وإذا كانت السلعة ذات قيمة كبيرة استمرت المساومة بين البائع والمشترى وقتا طويلا [٤]، ولاغرو فقد كان السوق ملتقى الناس المفضل فى الشرق، وهو المكان الذى يقضى فيه النساء ساعات طويلة للبيع والشراء ، والرجال وحدهم هم الذين يقومون بإدارة شئون الدكاكين فى الأسواق [٥].

1- Holmest, " Life Among The Europeans" , CF. Stton, vol, IV, p. 17 .

٢- ابن إياس ، بدائع الزهور ، تحقيق د. محمد مصطفى ، ط. القاهرة ١٩٦٠م ،جـ٢ ص٦٠٣ ؛ قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص٤٤٥ محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية ، ص٢٠٢ .

٣- المقريزى : الخطط ، (دار صادر ، بيروت ، ب-ت) جـ٢ ، ص٩٦ ؛ قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص٤٣ .

وبالإضافة إلى مهمة البيع والشراء قامت الأسواق فى العصور الوسطى بمهمة أخرى فقد كانت مركزا لتبادل الأفكار والشائعات وتناقل الأخبار بين الناس والخاصة بأمور حياتهم المتعددة ، أى أن الأسواق كانت بمثابة مراكز إعلامية كما ذكر أحد المؤرخين المحدثين[١]. حيث كانت الحكومة تبلغ أوامرها للناس عن طريق مناد ينادى فى الأسواق ، وذلك لعدم وجود جرائد يومية كالتى نراها الآن، وكان الناس يناقشون فيها أمور حياتهم المختلفة ويتداولون الأخبار ومن ثم يمكننا القول بأن «السوق كان مركزا من مراكز تكوين الرأى العام على تعبيرنا المعاصر»[٢].

وتعتبر مسألة الأسعار من الأمور الهامة فى حياة السوقة والتجار، فقد كانت الأسعار فى الأسواق الصليبية متقلبة وغير مستقرة وذكر جوانفيل فى مذكراته أن الأسعار فى الأسواق الصليبية كانت ترتفع فيفصل الشتاء، وكان هذا الارتفاع فى الأسعار يرتبط إلى حد ما بحالة البحر، ووصل السفن الأوربية إلى الموانىء الصليبية فقد كان «هياجالبحر خلال فصل الشتاء أكثر من هياجه إبان الصيف[٥] «مما يتسبب فى إعاقة أو تأخير وصول هذه السفن ومما يذكر أيضا أن الأسواق الصليبية كانت تعتمد اعتمادا كبيرا على ما يرد إليها من سلع وبضائع من أوربا، فقد كثر الغلاء بعكا فى عام ٥٩٩هـ، وذلك بسبب عدم وصول قوافل السفن الأوربية إلى الموانىء الصليبية [٦].

وارتبطت الأسعار فى الأسواق الصليبية ارتباطا وثيقا بالسياسة النقدية التى اتبعها الحكام الصليبيون فى بلاد الشام ، فقد ذكر القطب اليونينى فى حوادث عام ٦٥٦هـ، أن الغلاء ساد بلاد الشام بشكل عام ، وشمل هذا الغلاء جميع المأكولات والملبوسات ، فقد بيع رطل الخبز

١- جوستاف لوبون: حضارة العرب ، (ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة١٩٦٩م)، ص٣٦٦ .

٢- نفس المرجع والصفحة .

٣- سعيد عاشور : المجتمع المصرى، ص٨٧ .

٤- قاسم عبده قاسم: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص٥٤ .

٥- جوانفيل : المصدر السابق، ص٢٢٣ .

٦- ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، (تحقيق د. جمال الدين الشيال ، دار العلم)، ج٣ ، ١٤٠ .

بدرهمين ، ورطل اللحم كان يباع بخمسة عشر درهما ، وأوقية القيبرس درهما ، والجبن درهما ونصف ، والعنب رطلا بدرهمين ، وقد ذكر أن أسباب هذا الغلاء هو ما قام به الصليبيون من ضرب الدراهم المعروفة باليافية، وكانت كيرة الغش ، قيل إنه كان فى المائة نحو خمسة عشر درهما فضة والباقى نحاس، وكثرت هذه النقود فى أيدى الناس، وتحدث فى أبطالها ، مما جعل الناس يحرصون على شراء أى شىء خوفا من بطلانها [١].

والحقيقة أن مثل هذه السياسات النقدية المضطربة والتى تصاحبها عملية تزييف العملات ينعكس أثرها السىء على الأسواق الداخلية، فترتفع الأسعار وتصاب الحركة التجارية بالكساد إلى درجة تغلق الحوانيت أبوابها وتتعطل الأسواق[٢].

وقد ساهمت الكوارث الطبيعية أيضا كالزلازل وغيرها فى ارتفاع الأسعار فى الأسواق الصليبية[٣]، كما كانت الاضطرابات السياسية والحروب بين الطرفين الإسلامى والصليبى تؤدى أيضا إلى ارتفاع الأسعار ، وذلك لأن حالة الحرب تعطل مسير القوافل التجارية وتعطلها عن ارتياد الأسواق، فيقل العرض ويزيد الطلب فترتفع الأسعار، وتصاب الأحوال الاقتصادية والأسواق بالكساد.

وتعتبر مسألة الموازين والمكاييل والمقاييس من الأشياء الضرورية للتجار والسوقة كما هى الآن، فقد تنوعت هذه المعايير التجارية فى أسواق المدن الصليبية، من مدينة إلى أخرى، وقد سمح للتجار الإيطاليين حرية استخدام معاييرهم التجارية الخاصة بهم، ويعتبر البنادقة أول من حصل على هذا الامتياز، وذلك بمقتضى بند صريح فى معاهدة عام ١١٢٤م، التى وقعها البنادقة مع الصليبيين [٤]. وكان للجنوية والبيازنة أيضا حرية استخدام معاييرهم الخاصة ، وإن كان المؤرخ رايلى سميث يبدى تحفظا إزاء الجنوية، ويرى أنهم لم يتمتعوا بحق استخدام موازينهم ومكاييلهم ومقاييسهم الخاصة بهم فى عكا ، وإنما استخدموا المعايير الملكية فى

١- القطب اليونينى، ذيل مرآة الزمان ، (حيدر أباد ، الدكن، الهند، ط١ ١٩٥٤) ، ص٣٧٦، ٣٧٧ .

٢- قاسم عبده قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص٧١ .

٣- ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول، (بيروت، ١٨٩٠) ص٣٦٢، ابن واصل المصدر السابق، جـ٣ ، ص١٦١ .

4- William Of Tyre, Op. cit.,vol, I, pp. 552-555 .

أسواقهم ، ويؤكد سميث Smith هذا الاعتقاد فى ضوء ما ذكره فرانسكو بيجلوتى عن أنواع المقاييس التى كان يستخدمها البيازنة والبنادقة فى عكا ، ولم يشر إلى أية موازين للجنوية[١]، وهذا لم يمنع من أن الجنوية استخدموا أدوات قياسهم الخاصة فى مدن صليبية غير عكا مثل صور ، وهو الامتياز الذى أعطاه لهم كونراد مونتفرات فى عام ١١٩٠م، وبعد أن فقد الجنوية امتيازاتهم فى صور فى عام١٢٦٤م، رجع الجنوية إلى استخدام موازين ومكاييل الأمير فيليب مونتفرات[٢].

ومما يذكر أن البنادقة كان لهم حق استخدام معاييرهم التجارية الخاصة بهم فى حالة التعامل التجارى فيما بينهم، وفى حالة البيع لغير البنادقة، ولكن فى حالة شرائهم من أناس آخرين غيرمواطنيهم، كان عليهم استخدام المعايير الملكية [٣]، أى كان عليهم زيارة الأسواق الملكية لشراء ما يلزمهم، وهكذا يتبين لنا أن أسواق المدن الإيطالية فى المناطق الصليبية كانت لديها مقاييسها ومكاييلها وموازينها الخاصة بها.

والواقع أن كل ما يباع ويشترى فى الأسواق فهو إما مكيل كالحبوب والسوائل كالخمر والعسل، أو موزون كالمأكولات والفواكه واللحم والخبز، أو مذورع (أى يقاس بالذراع كالقماش) ، أو مقدر بالزمان أو مقدر بالعدد [٤]، فقد كانت وحدة الكيل للحبوب والغلال فى الأسواق الصليبية فى بلاد الشام هى الغرارة، وفى ذلك يقول القلقشندى عن مكاييل بلاد الشام «وأما كيلها الذى يعتبر به مكيلاتها فبالغرارة ، وهى اثنتا عشر كيلا، كل كيل ستة أمداد، ينقص قليلا عن ربع الويبة المصرى ونسبة الإردب من الغرارة ، أن كل غرارة ومد ونصف ثلاثة أرادب بالكيل المصرى»[٥].

وثمة وحدات أخرى للكيل استخدمت فى الأسواق الصليبية من أهمها المكوك [٦]، الذى

1- Smith, Nobility., pp. 71, 72 .

2- Smith, " The Government., " p. 119 .

3- William of Tyre, Op. Cit., vol , I, pp. 552-556; Smith, The Government"., p. 118 .

٤- جعفر بن على الدمشقى ، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص٦٤ .

٥- القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٤ ، ص١٨١ ، ١٨٢ .

٦- المكوك : جمعه مكاكيك ، وهو مكيال للحبوب يسع صاعا ونصف ، والصاع نصف ويبة والويبة ثلاث كيلات. (سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، (ط١ ، ١٩٦٥م) ، ص٤٥٣ .

كان يستخدم فى تقدير الحبوب والغلال وخاصة القمح وكان مقداره ربع أردب مصرى[١].

كما كان المدى من المكاييل الضخمة المعروفة فى بلاد الشام، وكان يقال له الجريب ويسع خمسة وأربعين رطلا، وكان المدى يسع خمسة عشر مكوكا[١] ، والذى يساوى $\frac{٣}{٤}$ ٣ كيلة .

وكان هناك أيضا مكيال يسمى القفيز ، ويساوى ثمانية مكاكيك [٣]، ويعتبر مكيال «الوسق» أيضا من المكاييل الكبيرة ، فيذكر الفقهاء أن الوسق يساوى ستون صاعا* ، أى تساوى بالكيل المصرى عشر كيلات مصرية ، وكذلك مكيال «الكر» الذى كان يعرفه أهل العراق ويعتبر من أكبر المقاييس المكاييل العربية، إذ يعادل بالكيل المصرى عشر أرادب بالتقدير الحديث[٣]. ونستخلص من ذلك كله أن الصليبيين قد أقروا الموازين العربية فى بلاد الشام.

وأما عن الموازين التى استخدمت فى الأسواق الصليبية فى بلاد الشام فكان الرطل هو وحدة الموازين ، ويتحدث القلقشندى عن موازين بلاد الشام، فيقول «وأما رطلها الذى يعتبر به موزوناتها فستمائة درهم بدرهم المتقدم تقديره، وأواقيه اثنتا عشرة أوقية، كل أوقية خمسون درهما »[٥]، ونستخلص من هذا أن وحدات الوزن فى الأسواق الصليبية كانت عبارة عن الرطل والأوقية والدرهم، وكان الرطل يساوى ١٢ أوقية، والأوقية تساوى ٥٠ درهما .

وتذكر أحد المصادر المعاصرة أن ثمة سلع فى الأسواق الصليبية مثل أنواع الطيب المختلفة كالمسك وغيرها ، كانت تباع بالميزان وكان وحدة الميزان لمثل هذه السلع هو المثقال ، ويقول فى

١- القلقشندى : المصدر السابق، جـ٤ ، ص٢٣٣، القطب اليونينى : المصدر السابق، ص٤٩٢ .

٢- محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية (دار الأنصار ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٧٧)، ص٣٢٩ .

* الصاع : مكيال للحبوب يساوى نصف ويبة، والويبة ثلاث كيلات . (المقريزى: السلوك ، جـ١ ، ص٤٠٩، حاشية٤) .

٣- نفس المرجع ، ص٣٠٧ ، ٣٠٨ .

٤- نفس المرجع ، ص٣٣٣ .

٥- القلقشندى : المصدر السابق، جـ٤، ص . ص. ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٢٣ .

عن المسك «والبيعة منه عشرة مثاقيل ونصف»[١]، ويعتقد أن الوزن السابق كان مقياس جودة السلعة كالمسك، مخافة أن تضاف إليه بعض الشوائب ، وكان هذا الميزان هو الفيصل فى كشف الجيد من المغشوش من المسك وأنواع الطيب الأخرى، ومن المحتمل أن السلع خفيفة الوزن غالية الثمن كانت توزن بالمثقال فى الأسواق الصليبية فى بلاد الشام.

كان القماش يقاس بالذراع فى الأسواق الصليبية ، فقد ذكر جعفر بن على الدمشقى، الذى كان من تجار طرابلس فى الفترة الصليبية، أن قماش الاودارى كان « طول كل ثوب منه إذا كان كاملا خمسون ذراعا[٢] فى شبرين ونصف »[٣]، كما ذكر القلقشندى أن قياس القماش فى أسواق بلاد الشام كان «بذراع يزيد على ذراع القماش بالقاهرة بنصف سدس ذراع وهو قيراطان[٤] ، أى أن الذراع كان يساوى اثنى عشر قيراطا .

ويعكس استخدام هذه المقاييس والموازين والمكاييل العربية فى الأسواق الصليبية حقيقة هامة وهى أن الصليبيين أقروا النظم التجارية التى كانت سائدة فى أسواق المدن العربية فى بلاد الشام قبل احتلالهم لها، كما أبقوا على كثير من النظم الأخرى ووظائف الإشراف على الأسواق كوظيفة المحتسب ، كما سيتضح فى الفصل الرابع من البحث .

ومما يذكر أن الموازين والمكاييل والمقاييس التى استخدمت فى الأسواق الصليبية، كانت من احتكار السلطة الملكية، وكانت السلطة الملكية تبغى من وراء احتكار هذه المعايير التجارية تأكيد سلطتها على التجار وضمان ولائهم لها، كما كانت تهدف إلى الحصول على مورد مالى ثابت من الرسوم التى كانت تفرض على استخدام هذه الموازين الملكية لكى تضاف إلى خزانة ملك بيت المقدس الصليبى، وقام الموظفون الملكيون بعملية الموازين والمكاييل فى الأسواق

١- جعفر بن على الدمشقى : الإشارة إلى محاسن التجارة، ص٣٧ .

٢- الذراع : ذراع القياس يعادل ست قبضات معتدلات. (جعفر بن على الدمشقى، المصدر السابق، ص٤٦) .

٣- جعفر بن على الدمشقى : المصدر السابق، ص٤٦ .

٤- القلقشندى: المصدر السابق، جـ٤، ص١٨١ ، ٢٨٢ .

5- Prawer, The Latin Kingdom., p. 411 .

الصليبية ، كما ارتبطت لضرائب على الأسواق بالموازين والمكاييل والمقاييس ، كما سيتضح في الفصل الثالث.

وقد تدفقت أعداد كبيرة من التجار من كل الجنسيات فى الأسواق الصليبية فى بلاد الشام، ولعب التجار الإيطاليون دورا بارزا فى تجارة المملكة الصليبية الخارجية، وإن كانت أرباح هذه التجارة قد دخلت جيوب الإيطاليين ، ولم تستفد منها المملكة الصليبية استفادة حقيقة .كما نشاط التجار المسلمون فى الأسواق المصليبية الداخلية خلال فترات المسلم بين المسلمين والصليبيين، كما ضمت الأسواق الصليبية أيضا التجار المحليين من الصليبيين، الذين كان لهم دور بارز فى التجارة المحلية .

كان التجار فى الأسواق الصليبية ينقسمون إلى ثلاثة أصناف «الخزان» ويقصد به تاجر الجملة، ثم «الركاض» وهو التاجر المتجول وتاجر التجزئة ، و«المجّهز» وهو التاجر الذى يعد بضاعته وسلعة التصدير[1]. قد عرف هؤلاد التجار فنون البيع والشراء، وقد ظهر ذلك جليا فى التوصيات التى ذكرها أحد تجار سوق طرابلس فى القرن السادس / الهجرى / الثانى عشر الميلادى، إذ قدم نصائع للتجار أوضح لهم طريقة البيع والشراء، وكيفية التعرف على البضائع المغشوشة ، إلى غير ذلك من فنون التجارة، التى عرفها الاقتصاد الحديث الآن[2].

وقد كان للتجار وكلاء ينوبون عنهم فى حالات البيع والشراء، قد أطلقت مصادر تلك الفترة على وكلاء التجار اسم «المتضمن» [3]، وكان المتضمن بمثابة أجير عند مالك التجارة، يتقاضى من الربح أجرة نظير عمله وخدمته ، وكان يشترط فى المتضمن أن يكون ثقة أمينا وخبير بشئون التجارة.

وانتشرت أعمال السمسرة أو الوساطة التجارية فى الأسواق الصليبية، وقد وصفتها مصادر تلك الفترة ، بأنها صناعة مبنية على الكذب ، فقد كان للسماسرة حيلهم ووسائلهم التى تخدع التجار والناس [4]، فقد ظهرت أعمال السمسرة أيضا فى تجارة أوربا فى القرن

١- جعفر بن على الدمشقى: الإشارة إلى محاسن التجارة، ص٧٠-٧٥ .

٢- المصدر السابق، ص٦٤- ٧٠ .

٣- المصدر السابق: ص.ص٦٠-٧٥ .

٤- جعفر بن على الدمشقى: الإشارة إلى محاسن التجارة، ص٦٥ .

الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد ، وذلك نتيجة لتطور الظروف المالية للتجار، وأصبحت أعمال السمسرة والوساطة التجارية من الأعراف المتفق عليها فى الوثائق والشروط المبرمة بين التجار فى كافة المدن الأوربية، وقد عرفت البندقية أعمال السمسرة فى النشاط التجارى وعرفت السمسرة فى البندقية باسم Sensales وهذا الاسم مستعار من الاسم البيزنطى للسمسار[١].

والواقع أن ارتياد أعداد كبيرة من التجار الأجانب أسواق المدن الصليبية فى بلاد الشام استلزم بالضرورة توفير نزل لهم وأماكن لإقامتهم خلال فترة انعقاد الأسواق ، وخلال تواجدهم فى هذه المدن ولم تكن هذه النزل وليدة الفترة الصليبية، أو بدعة اختصت بهم العصور الوسطى، بل عرفت مصر الفرعونية منقبل فندقا[٢] للصوريين فى ممفيس (دمياط) ، وآخر لليونان فى نقراطيس، وقد انفردت مدينة الاسكندرية من قبل بوجود فنادق للتجار الذين يقيمون فى مصر ، وكانت طائفة منهم فندق واحد، فيما عدا البنادقة الذين كانوا يتمتعون بفندقين [٣]، كما عرفت الإمبراطورية الرومانية أماكن الإيواء للتجار فكانت أماكن الإيواء تقام على طول الطرق التجارية الرومانية العامة[٤]. وعرفت العصور الوسطى الباكرة أيضا أماكن الإيواء للتجار الأجانب ، فقد أقيمت المساكن الخاصة بالتجار الأجانب فى المناطق الأوربية الداخلية، وكانت تؤدى نفس المهمة التى تؤديها مثل هذه الأماكن فى مناطق عالم البحر المتوسط من حيث حماية التجار الأجانب وتسهيل مهمة إشراف الحكومات على هؤلاء

1- Birenne , Economic and Social Hist., p. 177 .

٢- كان نظام الفنادق متيسرا للتجار فى أوربا وبلاد حوض البحر المتوسط بحكم كونها مركز النهضة التجارية فى العصر الوسط، وكانت هذه الفنادق تسهل للدولة المضيفة عملية الرقابة على التجار الأجانب ، بجعلهم يتجمعون فى مكان واحد، وقد اختلفت المدن أو الدول فى تسميتها ، فكانت تعرف باسم الميتاتا فى بيزنطة ، وفى ألمانيا باسم هوف، وفى فرنسا باسم هال وفى أسبانيا باسم لونجا أما فى مصر والشام فقد عرف الفندق بأسماء مختلفة كالخان والقيسارية ، (ناجلا عبد النبى: العلاقات الاقتصادية بين البندقية والدولة المملوكية الأولى، (ماجستير غير منشورة ، آداب الاسكندرية، ١٩٧٩) ، ص٢٣٠ .

٣- سامى سلطان سعد، أسس العلاقات الاقتصادية ، ص١١١ .

4- Lopez, " The Trade of Medieval Europ"., p. 262 .

التجار [١]. كما عرفت الإمبراطورية البيزنطية أيضا نزل التجار وكانت تعرف باسم الميتاتا Mitata والتى كانت مثالاً ونموذجًا لكل المؤسسات التى أنشئت لهذا الغرض فيما وراء عالم البحر المتوسط [٢].

وهكذا عرفت المدن الصليبية أماكن الإيواء للتجار الأجانب الذين كانوا يتوافدون إليها بغرض التجارة، وقد عرفت هذه الأماكن أو النزل باسم الفنادق أو الخانات[٣] أو القيساريات[٤] أو الوكالات [٥]، وكانت هذه الأماكن تؤدى خدمة هامة للتجار، من حيث الإقامة وحفظ أمتعتها وتجارتهم، وقد لوحظ أن معظم مؤرخى العرب المسلمين فى العصور الوسطى لم يفرقوا كثيرا بين الفندق والوكالة والخان والقيسارية إذ لم يجدوا بينهما أية فروق واضحة، ولاحظوا تشابها فى أبنية هذه المنشآت ، وفى وظيفتها [٦].

ويشير ابن جبير إلى بعض الخانات التى كانت توجد فى عكا وصور والتى كانت تستقبل التجار الأجانب للإقامة فيها[٧]، وانتشرت الخانات والنزل فى معظم مدن بلاد الشام فى الفترة الصليبية، فقد كانت قيسارية حلب من الروعة والفخامة بحيث أثارت إعجاب ابن جبير ،

1- Lopez, R.S. And I.W, Raumond, Medieval Trade in the Mediterranean World, p. 84 .

2- Loc. cit .

٣- الخان : وجمعه خانات ، وهى الوكالات أو الفنادق المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم ودوابهم وغيرهم من المسافرين والحجاج ويوجد به اسطبل للدواب وفى أعلاه طباق ومساكن للنازلين به تطل على ساحة واسعة تتوسط الخان ويوجد بالخان بئر ومسجد صغير. (سعيد عاشور) : العصر المماليكى فى مصر والشام، ص٤١١) .

٤- القيسارية : لفظ يونانى معناه السوق الإمبرطورى ، وكان يتكون من مجموعة من المبانى العامة، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن لإيواء التجار وكان فى بعض القياسر مساجد للتجار المسلمين، (جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية) ، ص١٦١ .

٥- الوكالة : فندق لنزول التجار وبضائعهم ودوابهم للبيع والشراء وكان مخصصا لنزول تجار بلاد المشرق الإسلامى (سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص٤٦٢) .

٦- نعيم زكى فهمى: طرق التجارة الدولية، ص٢١١ .

٧- ابن جبير : المصدر السابق، ص٢١١، ٢١٢ ؛ Benvenisti, Op.cit., p. 31 .

الذى شبهها بالبستان فى النظافة والجمال [١]. كما اشتهرت دمشق أيضا بالخانات والقيساريات، وقد وصف ابن جبير قيساريات مدينة دمشق بقوله «... ولاسيما قيساريتها، وهى مرتفعات كأنها الفنادق مشققة بأبواب حديد، كأنها أبواب القصور ...»[٢]. ويمكن القول بأن نزل التجار كانت ظاهرة عالمية، وجدت فى الشرق والغرب على السواء وذلك لأهميتها فى مجال التجارة حيث تساعد على ارتياد التجار مختلف الأسواق فى الشرق والغرب، كما تعود بالفائدة على السلطات الحكومية، بما تفرضه على التجار من رسوم نظير الإقامة فى هذه النزل، والتعرف على ظروف الأقطار الأخرى من خلال روايات التجار وأوضاهم، أى الوقوف على أسرار الأقطار الأخرى.

وقد عرفت المدن الصليبية التجارية مثل عكا وصور وطرابلس وصيدا وغيرها الخانات التى خصصت للتجار، وكانت هذه الخانات تخصص لتجار المسلمين[٣]. كما كان الفندق من الأبنية الضخمة فى المدن الصليبية وكان يشبه الخان الشرقى فكان عبارة عن منطقة سكنية تتكون من طابقين، خصص الطابق العلوى لإقامة التجار وإيوائهم ليلا وكان موظفو الملك الصليبى يجلسون على أحد بوابتى الفندق لتحصيل الرسوم المفروضة على التجار، وكان هذا الفندق يمثل السوق الملكى فى المدينة الصليبية[٤].

ويجب أن نشير إلى نوع آخر من الفنادق التى وجدت فى منطقة الشرق العربى فترة الوجود الصليبى، وهى فنادق المدن الإيطالية ويرى الدكتور صبحى لبيب أن مؤسسة الفندق الإيطالى أخذت تستكمل عناصرها ومقوماتها ومميزاتها منذ القرن الثانى عشر، حتى أصبحت هذه الفنادق الأجنبية إلى جانب الفنادق والوكالات المحلية الكبرى ذروة المؤسسات التجارية والمعاملات الدولية[٥] فى منطقة الشرق العربى الإسلامى التى شهدت تدفقا متزايدا للتجار الأجانب إلى أسواقها وخاصة تجار المدن الإيطالية .

١- نفس المصدر، ص١٧٨ ، ١٧٩ .

٢- نفس المصدر ، ص٢٠٢ .

٣- ابن جبير : المصدر السابق ، ص٢١١ ، ٢١٢ .

٤- نفس المصدر: ص٢١١ ؛ Benvenisti, Op. cit., p. 31 .

٥- صبحى لبيب : الفندق ظاهرة سياسية ، اقتصادية ، قانونية (بحث مستخرج من ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، آداب القاهرة، مارس١٩٨٥)، ص٧ .

وكان الفندق البندقى فى بلاد الشام ومصر عبارة عن مبنى صريع كبير يتكون من أكثر من طابق، ربما اثنين أو ثلاثة، له فناء داخلى واسع يسمح بتعبئة بضائع التجار وتفريغها ، وكان الطابق الأول من مبنى الفندق تحتله المحلات ومخازن لبيع وشراء السلع التى يعرضها نزلاء الفندق لتجار أجانب وكان لكل تاجر مخزن يضع فيه بضائعه ويغلق عليها، أما الأدوار العليا فكانت تخصص لإيواء التجار ليلا، إلى أن ينهوا عملياتهم التجارية، ويغادروا البلاد، كما زود الفندق بمبان إضافية أقيمت خصيصا لراحة التاجر المسيحى الوافد فلايشعر بضيق أو غربة، فقد أقيمت بكل فندق كنيسة صغيرة لأداء الطقوس الدينية، كما زود الفندق بمخبز وحمام لتوفير الراحة لنزلائه ، وسمح للبنادقة بإدخال النبيذ واحتسائه داخل فنادقهم كما سمح لهم أيضا بتربية خنزير فى فندقهم [١]، وكانت تحيط بكل فندق حديقة زرعت بأنواع مختلفة من النباتات والزهور التى كانت تجلب من أقطار بعيدة والتى كانت تذكر النزلاء بأوطانهم[٢]، وقد أدار شئون الفندق موظف أطلق عليه لقب «فندقاريوس» Fundicarus أو الفنداقى، وكان مسئولا عن الإشراف على كثير من الشئون الداخلية للفندق لتأكيد راحة النزلاء [٣]، وكان الفندق بمثابة السوق الشخصى للإيطاليين فى المدن الصليبية فى بلاد الشام، فقد كانت الصفقات تتم داخله ، وكان المغربلون والكيالون والحمالون فئات محلية لها دورها الهام فى انتظام عمل الفندق وتسهيل مهمة إكمال الصفقات التجارية بين التاجر المحلى والتاجر الأجنبى، كما كان للسماسرة والمترجمين الدور الهام فى نجاح هذه الصفقات بين التجار المحليين والتجار الأجانب داخل الفندق [٤]. ويتبين لنا من الوظائف المتعددة للفندق أنه كان يعنى فى بلاد الشام، الخان أو الوكالة أو القيسارية أو السوق أو إدارة السوق، وهذا ما ذهب إليه رايلى سميث Riley - Smith فى تعريفه الشامل للفندق[٥].

1- Flix Fabri, Op. cit., pp. 693, 694; Heyd, W. . History Du Commerce Du Levant au Moyen Age, Translated by , Furcy Raynaud, Tom, II, Lepzig, 1923, p. 431 .

2- Heyd, W., Op. cit., Tome II, p. 431 .

3- Loc. Cit .

4- Heyd, W., Op. cit., II, p. 432 .

5- Smith, "Government., "pp, 115, 116.

ولاشك أن الفنادق والخانات والوكالات والقياسر فى المدن الصليبية قد أدت خدمات جليلة للتجار الأجانب والمسلمين ، فوفرت لهم وسائل الراحة والأمان، الأمر الذى شجعهم على ارتياد الأسواق الصليبيين بانتظام ، مما أدى إلى ازدهار هذه الأسواق ورواجها ، وقد اهتمت الحكومات الصليبية المتعاقبة بهذه النزل، ومنحت للإيطاليين حق إقامة فندق لهم فى معظم المدن الصليبية الهامة، وخلال فترة الاستقرار السياسى للملكة الصليبية ازدهرت الأسواق، ونعم التجار بالأمان، وجنى الصليبيون من وراء ذلك مكاسب مالية ضخمة وذلك من جراء الرسوم والضرائب التى كان يحصلها الموظفون الملكيون من التجار وارتبطت الأسواق الصليبية بمسألة مالية هامة، وهى الضرائب أو ضريبة السوق التى كانت تمثل مصدراً من مصادر دخل المملكة الصليبية، وقد حرصت الإمارات الصليبية فى بلاد الشام على تنظيمها، حيث تم تقنينها قانونا، وهذا ما سنعرفه فى الفصل الثالث.

الفصل الثالث
الأسواق والنظم المالية

- الضرائب التجارية وأنواعها : ضرائب السوق- ضرائب الميناء - ضرائب أخرى - النقود والعملات المتداولة فى المملكة الصليبية والإمارات الإقطاعية التابعة لها - تطور أعمال الصيرفة والنشاط المالى لفرسان الداوية فى الأسواق الصليبية

ترتبط الأسواق ارتباطا وثيقا بالنظم المالية من ضرائب ورسوم جمركية وعملات نقدية متداولة، وتؤثر هذه النظم المالية فى حركة الأسواق سلبا أو إيجابا ، وفقا للظروف الاقتصادية والاجتماعية التى يمر بها أى مجتمع . وعلى ضوء هذه النظم تتحدد حركة السوق، نشاطه أو كساده ، وينطبق هذا على أسواق المناطق الصليبية فى بلاد الشام، التى ارتبطت فى حركتها ونشاطها بمسألة مالية هامة وهى الضرائب والرسوم الجمركية التى كانت تفرض على السلع الواردة إلى هذه الأسواق وعلى المبيعات ، كما ارتبط مصير هذه الأسواق أيضا بالسياسة النقدية التى تتعلق بالعملات المتداولة فى المناطق الصليبية ، وما ترتب على هذه السياسة من تطورات مالية شهدتها هذه المناطق فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد وقد جاءت هذه التطورات المالية انعكاسا للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى كان يمر بها الكيان الصليبى فى منطقة الشرق العربى الإسلامى وقتئذ .

والواقع أن الضرائب التجارية التى ارتبطت بالأسواق والتجار كانت تمثل أهم موارد الدخل للحكام الصليبيين وذلك لازدياد النشاط التجارى فى ذلك الوقت، وقد عرفت هذه الضرائب باسم المكوس [1]، وهى تلك الرسوم التى كانت تفرض على القوافل التجاريع فى الثغور

١- المكوس : هى من الضرائب الغير شرعية ، وهى من بقايا النظام الجاهلى وتعنى الجباية وهى الضريبة التى يأخذها الماكس أو العاشر ويقال له «العشار» وبيت المكس وتشمل الأموال التجارية (السلع) التى تباع فى الأسواق ، وذكر أنها اشتملت على نوعين الأول ما يختص بالديوان السلطانى من الرسوم على البضائع التى يجلبها التجار، والنوع الثانى ما يرتبط بالإقطاعات وما يجرى تحصيلها من سلم إلى صاحب الإقطاع =

البحرية والبرية والتى كانت تحمل المتاجر من الخارج ، ولذا أقام الصليبيون أماكن الجمرك أو التمكيس ، وقد أقيمت هذه الأماكن عند مداخل الأودية وأمام الحصون [١]، ومن بين هذه المواقع على سبيل المثال عكا والجسر الحديدى بين أنطاكية وحلب وكذلك عند حصنى مرقب وتبنين ، بالإضافة إلى بانياس ، ودير البلح وعلى طريق وادى إمريت الواقع بين انطرطوس وحصن الأكراد [٢].

وقد شملت الضرائب التجارية التى فرضها الصليبيون رسوما على استخدام المكاييل والموازين والمقاييس الملكية ، وضرائب على الدكك التى يستخدمها التجار فى الأسواق ورسوما عند البوابة ورسوم الطريق التى كانت تدفعها القوافل التجارية الآتية من مصر فى طريقها إلى بلاد الشام عبر الأراضى الصليبية ، كما شملت الضرائب التجارية أيضا ضريبة السوق على المبيعات والمشتريات والتى كان يحصلها موظفو محكمة الفندق أو السوق، وكذلك ضريبة الميناء التى كانت تعرف برسوم السلسلة [٣]، وسوف توضح مقدار هذه الضرائب والرسوم الجمركية وكيفية تحصيلها كل على حدة وتأثير هذه الضرائب على حركة الأسواق الصليبية سواء الملكية منها أو المنفصلة فى إدارتها عن السلطة الملكية .كأسواق الإيطاليين والهيئات الدينية العسكرية .

كانت ضريبة السوق فى المدن الصليبية تبدأ أولا عند البوابات ، وكان موظفو البوابة لايسمحون بمرور أية سلع تستحق عليها الرسوم الجمركية ، ويبدو ذلك واضحا عندما أعطى بوهمند الرابع (١١٨٧ / ١٢٣٣م) للاسبتارية بوابة عند أسوار مدينة طرابلس فى عام

= وهذه المكوس المعروفة بالهلال ، ومن أنواعه مكس القوافل ، ومكس البهار ومكس فندق القطن واتسمت هذه الضريبة بالظلم ، وكانت ثقيلة الوطأة على الباعة، وكان لها وجود فى بلاد الشام قبل الوجود الصليبى ، (محمود ياسين التكريتى ،الأيوبيون فى شمال الشام والجزيرة (دكتوراة غير منشورة، آداب القاهرة) ، ص٢٩٦ .

١- ابن جبير : المصدر السابق ، ص٢١٠ ، ٢١١ .

٢- السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام، ص٢٠٦ .

3- Richard- Jean, "The Political and Eccلessiastical Organization of the Crusader States CF. Setton, vol , V, pp. 219, 20 .

١١٩٦م، وأمرهم بألا يسمحوا بمرور أية سلعة تخضع للرسوم الجمركية . فقد كانت البوابات بمثابة نقاط إدارية منفصلة فى إدارتها عن الأسواق ، فكانت بوابات مدن صور وبيروت وطرابلس وعسقلان ، يقوم بالإشراف عليها موظفون من قبل حكومات هذه المدن [١].

وقد سافر ابن جبير إلى عكا قادمًا من دمشق ، وعند وصوله إلى عكا، ذهب هو ورفاقه إلى الديوان عند البوابة وهو خان معد لنزولالقافلة، وأمام بابه مصاطب مفروشة : فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلى وهى يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم - صاحب الديوان والضامن له- يعرف بمال عظيم ، فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا فى أعلاه وطلب رجل من لاسلعة له، لئلا يحتوى على سلعة مخبوءة فيه، وأطلق سبيله فنزل حيث شاء، وكل ذلك برفق وتؤده دون تعنيف ولاحمل » [٢]. ولاشك أن مثل هذه الإجراءات من التفتيش كانت تتبع مع كل التجار القادمين إلى المناطق الصليبية بأمتعتهم وبضائعهم ، وهكذا يتضح أنواع الرسوم التى كانت تفرض على التجار وبضائعهم عند البوابات من رسوم مرور وضرائب على الصادرات والواردات التى لم يدفع عنها رسوم فى محكمة السوق وإجراءات تسجيل هذه البضائع فى الديوان وتسجيل أسماء التجار أيضا .

والواقع أن ضريبة السوق اختلفت نسبتها من سلعة إلى أخرى[٣]. فقد انحصرت هذه الرسوم فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى بين ٤ $\frac{١}{٦}$ ٪ ، ٢٥٪ من قيمة السلعة [٤]، ويبدو أن نسبة الرسوم على الحمولات من السلع والبضائع كانت ٤ $\frac{٢٥}{٢٤}$ ٪ من قيمة هذه السلع، وكانت تفرض على سلع القوافل التجارية التى تمر عبر المناطق الإسلامية إلى الأسواق الإسلامية .

وكانت ضريبة المرور (الترانزيت) تتراوح ما بين $\frac{٢٥}{٢٤}$ ٨٪ ، ١٠٪ ، $\frac{٢٥}{٢٤}$ ١١٪ وقد سميت هذه الضريبة رسوم الدخول أو المرور، وكانت ضريبة ٢٥٪ نسبة الرسوم المفروضة على الواردات من السلع ذات الصفة الاستهلاكية مثل الخضروات والفاكهة[٥] .

1- Smith, Nobility., pp. 93,94 .

٢- ابن جبير : المصدر السابق، ص٢١١ ؛ Smith, "Government" ., p. 114 .

3- Downs, Basic Documents in Medieval History, New York, 1952, pp. 151 , 152 .

4- Mayer, The Crusades., p. 163 .

5- Smith , Nobility., pp. 96, 97 ; Mayer, The Crusades., p. 163 .

وقد كانت الضرائب والرسوم التجارية التى تفرض على المشتريات من الأسواق الإيطالية فى المدن الصليبية تنحصر بين ١/٢ ١٢٪ ، ١/٦ ٤٪ يدفعها المشترون من أهل البلاد الشوام من القرويين الذين كانوا يطلقون الدومين الملكى حول عكا ، وذلك أثناء عودتهم من الأسواق الإيطالية [١]، حيث يوجد مقر موظفى السوق الملكيين ويبدو أن القرويين اعتادوا الشراء من الأسواقالإيطالية ، ويمكن تعليل فرض السلطات ضريبة المشتريات هذه على المشترين من الأسواقالإيطاليين لإجبار هؤلاء المشترين على ارتياد الأسواق الملكية ، كما اعتاد التجار المسلمون من المناطق الداخلية الإسلامية الذهاب الأسواق الإيطالية لشراء ما يلزمهم من سلع وبضائع ، وعند مغادرتهم المدينة كانت تحصل منهم رسوم المشتريات عند بوابات المدينة[٢]، وكان الموظفون الملكيون يقومون بتحصيل هذه الرسوم.

وقد عرفت الأسواق الصليبية نفس طريقة تحصيل الضرائب كانت متبعة فى الأسواق المصرية فى نفس الفترة، فقد كانت ضرائب الأسواق فى مصر يتم تحصيلها بطريقتين ، وذلك تبعا لنوع المعاملات التجارية الشائعة بين التجار. فالحكومة كانت تضع سعرا للسلع والبضائع السعر وتقدر ضريبة السوق على أساس هذا السعر[٣]. الطريقة الثانية كانت تستخدم أثناء المزاد العلنى (الحلقة) فكانت ضرائب السوق تحصل على أساس أعلى سعر وصلت إليه المبيعات السوق، وفى معظم الأحوال، كانت أعباء هذه الضريبة يتحملها مناصفة كل من البائع والمشترى [٤]. وكانت هذه الضريبة والرسوم جبايتها فى الفندق ، حيث يوجد يوجد موظفو محكمة الفندق أو السوق ذلك المكان الذى يقع بين السوق وبين مستودع البضائع وكانت شرطة السوق مسئولة عن تحصيل هذه الرسوم [٥].

وترتبط بضرائب السوق أيضا، الرسوم التى كانت تفرض على الموازين والمقاييس والمكاييل، فقد كانت هذه المعايير التجارية من الامتيازات الخاصة بالسلطة الملكية، وتبين القائمة التفصيلية التى وجدت فى مدينة صور أن التزامات الموازين سنويا كان يقدر

1- Smith, Nobility., p. 74 .

2- Smith, Nobiliy., pp. 74 , 75 .

3- Smith, " Government., p. 117 .

4- Loc. cit.

5- Mayer, The Crusades. , p. p. 163, 164 .

بمبلغ ١٩٠٠ بيزنت، ومقاييس السوائل والسلع الجافة كالحبوب والخمر وزيت الزيتون كان التزامها ٣١٠ بيزنت ، وكان حق الالتزام الملكى لبيع الأدوات الموسيقية مثل الطبول والطنبور السلامية، يقدر بمبلغ ٥٠٠ بيزنتا ، كما كانت الالتزامات المفروضة على الجزارين وبائعى لحوم الخنزير تقدر بمبلغ ٤٠٠ بيزنت ، وعلى الزجاج ٣٥٠ بيزنت وزيت السمسم ١٦٠ بيزنت والسمك ٧٠ بيزنت ، والليمون ١٦٠ بيزنت ، والخمر واللبن من ٢٢-٢٠ بيزنت على التوالى[١]. كما كانت تفرض على أصحاب الدكاكين ضريبة كرسوم ترخيص وكانت تدفع كل شهر، وكان يدفعها أيضا الحرفيون وأصحاب الحمامات العامة ، وكانت هذه الضريبة تجبى من صانعى الصباغة الشوام فى مدينة صور بواقع ٢ كارويل عن كل وعاء كبير يستخدم فى الصباغة، وذلك كل شهر[٢]، كما كانت السلطات الصليبية تحصل رسوما على الطاولات التى يستخدمها الصيارفة فى الأسواق، فقد كان يوجد اثنتا عشرة طاولة فى الحى البندقى فى مدينة عكا فى عام ١٢٤٤م، وكان إيجار هذه الطاولات يتراوح من ٤ -٤١ بيزنت[٣].

ولاشك فقد كانت الإيجارات والالتزامات المستحقة على أصحاب المنازل والبقالين والتجار يقوم بتحصيلها موظفو محكمة البرجوازية والمحكمة الوطنية للشوام، والتى تأسست وأقيمت فى كل مكان يتواجد فيه السكان الفرنجة بشكل وحجم معقول [٤].

والواقع أن تحصيل السلطات الصليبية الإيجارات والضرائب التجارية الأخرى كان يتم فى مراعيد محددة من العام، فمنها ما كان يتم تحصيله كل ثلاثة أشهر أو كل نصف عام، وبعض الإيجارات كان يتم تحصيلها بشكل سنوى أو شهرى ، وكان العام المالى لأسواق مدينة صور يبدأ فى يوم عيد كل القديسين الذى كان يوافق أول نوفمبر . ففى مدينة بيت المقدس عام ١١٧١م، وفى مدينة عكا عام ١١٩٨م، كان دفع الضرائب التجارية يتم فى عيد الميلاد ، وعيد الفصح ، وعيد يوحنا المعمدان (٦مايو من كل عام) ، ولكن فى عام ١١٧٧م قام موظف بوابة مدينة عسقلان بتحصيل ربع الرسوم والضرائب التجارية المفروضة وذلك فى يوم عيد

1- Prawer, The Latin kingdom., p. 411 .

2- Smith, Nobility., p. 84 .

3- Ibid, p. 85 .

4- Loc. Cit.

القديس رميجيس[١] Remigius وهكذا يتضح أن الألتزامات والضرائب التجارية اختلفت مواعيد تحصيلها من مدينة إلى أخرى، وذلك يرجع إلى الظروف الاقتصادية لكل مدينة.

وتعتبر الضرائب والمكوس التجارية التى كانت تفرض على الصادرات والواردات فى الميناء من الضرائب التجارية الهامة والتى كان لها تأثيرها الهام على حركة الأسواق فى المناطق الصليبية ولاسيما الفترة الصليبية التى شهدت تدفق أعداد كبيرة من السفن التجارية الأوربية وخاصة الإيطالية إلى الموانىء الصليبية فى بلاد الشام، فعندما كانت تصل أية سفينة تجارية إلى ميناء عكا الصليبى، كان يتم الإعلان عن وصولها بواسطة قرع الأجراس، ثم ينطلق قارب صغير مهمته إرشاد هذه السفينة إلى المرسى المخصص لها ، وربما تقوم مجموعة من القوارب الصغيرة بنقل البضائع من السفينة إلى الشاطىء ثم تجرى عمليات أربع رئيسة الإنزال والتسجيل والتخزين والبيع[٢].

ولذا نجد أن الضرائب والمكوس قد تعددت وفق مراحل الإجراءات السابقة فقد فرض الحكام الصليبيون على التجار الأوربيين ضريبة الرسو وضريبة الميناء وضريبة السوق (البيع والشراء) وضريبة المغادرة أو الإقلاع [٣]، وكانت هذه الضرائب تختلف من ميناء صليبى إلى آخر، كما كانت السلعة الواحدة تختلف نسبة الرسوم عليها من ميناء إلى آخر أيضا ، فلم يكن هناك سياسة ضرائبية موحدة فى الموانىء الصليبية وذلك يرجع إلى امتيازات بعض التجار الأوربيين المتعددة فى هذه الموانىء .

كانت السفن التجارية الأجنبية التى تصل الميناء الصليبى تدفع ضريبة الرسو ، وكانت هذه الرسوم تقدر بـ مارك واحد من الفضة عن كل سفينة كرسم وصول [٤]، وكانت ثمة ضريبة أخرى تدفعها هذه السفن التجارية فى الموانىء الصليبية ، وقد عرفت هذه الضريبة باسم ضريبة النقل

1- Smith, Nobility., p. 91 .

2- Byrne, "Genoese Trade With Syria in Twelfth Century CF. American History Rivew, XXV (1919, 1920), pp. 191 , 192 ; Smith, " The Government"., p. 112 .

3- Smith, Nobility., p. 70; Prawer, The Latin Kingdom., pp. 403 , 404 .

4- Prawer, Op. cit., p. 404, Smith, " Government"., p. 113 ; Mayer, The Crusades. , p. 164 .

ميخائيل زابوروف: الصليبيون فى الشرق، (ترجمة الياس شاهين، دار التقدم موسكو، ١٩٨٦م) ،ص١٤١ .

Terciarium ، وكان مقدار هذه الضريبة هو ثلث تكلفة النقل الحقيقية للمسافرين والملاحين، ويبدو أن هذه الرسوم كانت مرتفعة نوعا ما، الأمر الذى كان يسبب وقوع مشاجرات عديدة بين سلطات المدينة وبين أفراد القومونات التجارية أصحاب الامتيازات [١]، فقد اشترطت المعاهدة التى عقدت بين الملك الصليبى وبين البنادقة فى عام ١١٢٣م على أن يدفع البنادقة ضريبة على الحجاج الذين يأتون لزيارة الأراضى المقدسة أو يغادرونها على سفن بندقية ، وقد دفع البنادقة هذه الرسوم فى صورة منحة سنوية للحكام الصليبيين تقدر بـ ٣٠٠ بيزنت من إيراد أسواق مدينة صور، ثم بعد ذلك بفترة من إيراد أسواق عكا، وفى عام ١٢٤٤م أعلن البنادقة أنهم لن يدفعوا سوى ضريبة عن الحجاج العائدين فقط[٢]، وقد وجدت مثل هذه الضريبة فى أنطاكية ، وكان للامتيازات التى منحها بوهمند فى عام ١٢٠٠م للبيازنة أثر كبير فى تخفيض هذه الضريبة إلى النصف كما تم إعفاء الجنوية فى طرابلس من ضريبة نقل الحجاج[٣].

وهكذا كانت رسوم الميناء من ضريبة الرسو وضريبة النقل تخضع للامتيازات التى تمتعت بها الكويونات التجارية الإيطالية فى الموانىء الصليبية، وكان الحجاج يدفعون ضرائب ورسوما على ممتلكاتهم التى كانوا يحضرونها معهم إلى الأراضى المقدسة حتى عام ١١٣٠م [٤]، إلى أن قام الملك بلدوين الثانى بإعفاء هؤلاء الحجاج من دفع هذه الرسوم التى كانت تفرض عليهم وأعلن أنه فى المستقبل سوف لايدفعون أية رسوم على أمتعتهم أو على أية أشياء أخرى يحملها الحجاج بحيث لاتتعدى قيمتها عن أربعين بيزنت ، وإذا زادت قيمة أمتعة الحجاج عن هذا المبلغ فإن عليهم أن يقنعوا موظف الجمرك بأنهم سوف لايبيعون هذه الأشياء ، وإذا حدث العكس فسوف يفرض عليهم رسوما فى الميناء[٥].

ولاشك أن مثل هذه السياسة التى اتبعها الملك بلدوين الثانى كانت بهدف تشجيع الحجاج الأوربيين على ارتياد المناطق الصليبية، وذلك لتنشيط حركة التجارة فى الموانىء والمدن الصليبية .

1- Prawer, Op. cit., p. 404 ; Smith , "The Government., p. 113 .

2- Prawer, The Latin Kingdom., p. 404 .

3- Loc. cit.

٤- ميخائيل زابوروف : الصليبيون فى الشرق، ص١٤١ .

5- Smith, "The Government"., pp. 112, 113 .

وثمة ضريبة أخرى كانت تحصلها إدارة الميناء من السفن الأوربية كانت تعرف باسم ضريبة Carates ومقدارها   من قيمة حمولة البضائع التى تحملها السفينة [١]، وكانت بمثابة رسوم النجاة أو سلامة الوصول، وعند تحصيل الرسوم والضرائب السابقة، تبدأ المساومة بين التجار وبين سلطات الميناء، وكان بعض تجار الكوميونات الإيطالية أصحاب الامتيازات يبدأون فى إبراز وثائق الإعفاءات بالوثائق ، فإنه كان يلجأ إلى الخداع وتقديم القسم والإيمان لكى يثبت حقه، كما كانت الكوميونات الإيطالية ترسل ممثلين عنها لتقديم المساعدة لهؤلاء التجار أمام السلطات الصليبية فى الميناء أو مساعدتهم فى عدم دفع أكثر من نسبة هذه الضرائب المقررة عليهم لموظفى الميناء[٢]، على الرغم من أن نسبة هذه الضرائب كانت بسيطة إذا ما قورنت بنسب الضرائب فى العصور الوسطى .

ويرتبط بالميناء أيضا ضريبتا الوارد والصادر Vadro et Sadro وكان يدفعها التجار الإيطاليون فى الموانىء الصليبية فى بلاد الشام، وكانت هذه الضرائب تؤثر على أسعار السلع والبضائع فى الأسواق الصليبية ، فقد كانت ضريبة الوارد تؤخذ على البضائع التى تباع فعلا، أما إذا لم تجد السلع لها سوقا فى البلاد، فلا يدفع أصحابها ضريبة وارد، ويستطيعون إعادة تصديرها دون أية معارضة ومن غير دفع رسوم [٣]، وقد تفاوتت الرسوم الجمركية على التجارة فى القرن الثالث عشر الميلادى من ٤,١٦ ٪ إلى ١١,٢٪ من قيمة الواردات التى كانت تأتى من الشرق، والتى يعاد تصديرها إلى أوربا عبر الموانىء الصليبية، وكانت أعلى نسبة لهذه الرسوم الجمركية تصل إلى ٢٥٪ وكانت هذه النسبة من الرسوم تفرض على الواردات من السلع التى تستخدم فى الاستهلاك المحلى [٤].

وكان بفضل الاعتدال فى نسبة الرسوم الجمركية المفروضة على تجارة المرور عبر الموانىء الصليبية، وذلك لمواجهة المنافسة مع الموانىء المصرية الفاطمية ، فقد كانت الموانىء المصرية تعرف نوعين من الرسوم الجمركية المتدرجة ، وكانت نسبة الرسوم الجمركية فى الموانىء المصرية

1- Smith, La Syrie Du Nord., p. 478; Prawer, Op. cit. , p. 404 .

2- Prawer, The Latin Kingdom., p. 404,405 .

٣- سامى سلطان سعد، أسس العلاقات الاقتصادية ، ص١١٥ .

4- Mayer, The Crusades., p. 163 .

تتقرر حسب ديانة التاجر، وحسب نوع السلعة ، ولم تعرف الموانىء الصليبية هذا التمييز فى المعاملة الجمركية [١]. وكانت الرسوم الجمركية تجبى من مينائىء عكا وصور الواقعتان على البحر المتوسط ، والذى كان يقصدها السفن الأوربية التجارية خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى.

كانت ضريبة دخول الميناء تختلف قيمتها من وقت إلى آخر فى القرن الثالث عشر الميلادى، وكانت نسبة هذه الضريبة تنحصر بين ١٠٪ ، ٨٪ ، $\frac{١}{٤}$ ٥٪ من قيمة المتاجر والسلع الذى يعاد تصديرها[٢]، ففى عام ١٢٣١م كانت رسوم الميناء ١٠٪ ولكن بعد عشر سنوات انخفضت هذه الرسوم إلى ٨٪ ، ثم ثبتت هذه الرسوم أخيرا عند $\frac{١}{٤}$ ٥٪ من قيمة البضائع المستوردة [٣]، وكانت هذه السياسة الضرائبية تهدف من وراء تخفيض نسبة الرسوم الجمركية إلى تشجيع السفن التجارية الإيطالية والأوربية الأخرى لارتياد الموانىء الصليبية ، والتى يممت وجهتها شطر الموانىء المصرية الأيوبية ولاسيما عندما وجدت مصالحها التجارية فى الأسواق المصرية المزدهرة .

ومما يذكر أن السلع الواردة كانت أحيانا تباع على رصيف الميناء وكان هذا يتم تحت إشراف موظفى الميناء، وكانت رسوم الميناء تحصل بعد إجراء عملية البيع، وفى حالة ما إذا كانت هذه السلع الواردة تمر عبر منطقة الميناء فى طريقها إلى أسواق المدينة ، فإن رسوم الميناء وضريبة السوق (المبيعات) ، كانتا تحصلان معا بعد اجراء عمليات البيع[٤]، وكان التجار الإيطاليون يدفعون على بضائعهم التى تباع داخل الجمرك ضريبة غامضة ، فكان يؤخذ من البيازنة ٢٪ ومن الجنويين ٤ بيزنت عن كل مائة بيزنت من ثمن مبيعاتهم من السلع الأخرى . وكانوا يدفعون ضريبة عن المزاد الذى يقام فى الجمرك لبيع السلع التى تجلبها سفنهم إلى البلاد ، كما كانوا يدفعون ضريبة عن السمسرة داخل الجمرك ، وأخرى عن الترجمة على الصفقة التى تقع خارج الجمرك، وكان التراجمة يأخذون $\frac{١}{٤}$ ٪ عن كل صفقة تعقد بمعرفتهم [٥].

1- Mayer, The Crusades., p. 163 .

2- "Livre des Asses des Bourheois", p. 275 .

3- Smith : The Government., p. 113 .

4- Smith "Government., p. 113; Nobility., p. 93 .

٥- سامى سلطان سعد، أسس العلاقات الاقتصادية، ص١١٧ ، ١١٨ .

وكانت سلع الصادرات فى الموانىء الصليبية تفحص قبل مغادرتها الميناء، ثم تفرض عليها الضرائب وكان على ربان السفينة دفع رسوم المغادرة لسلطات الميناء. وكانت رسوم الصادرات تحصل على رصيف الميناء، كما كانت تقدر حسب قيمة حمولة البضائع ، على عكس رسوم الدخول والتى كانت تقدر حسب كمية الحمولة ، وكانت السلع التى يعاد تصديرها والتى لم تجد من يشتريها فى الأسواق تخضع لرسوم جمركية قدرها ٨٪ من قيمتها [١]. وكانت محكمة السلسلة أو الميناء هى الجهة المسئولة عن تحصيل هذه الرسوم، فقد كان لديها الموازين والمكاييل والمقاييس الخاصة التى تستخدمها فى تقدير الضرائب والرسوم على السلع المتعلقة بالوزن أو الكيل أو القياس[٢].

وبالنسبة للبضائع التى كانت تصدر برا من المملكة الصليبية إلى أى قطر اسلامى مجاور، فإن قوانين بيت المقدس Assises des Jerusalem وضعت مبدأ ، وهو أن البضائع المصدرة برا من المملكة إلى بلاد إسلامية ، يجب أن يدفع عنها رسم حدود، وكان هذا الرسم بالنسبة إلى البيزنطيين يقدر بكارويل Carouble واحد أى $\frac{١}{٤}$ ٪ من الدنيار البيزنطى [٣].

وعلى الرغم من أن البنادقة كانوا يحظون بإعفاء مطلق من الضرائب إلا أنه فرضت ضريبة على بضائعهم التى كان يصدرها البنادقة من عكا إلى دمشق ، أو إلى مدينة إسلامية أخرى. وطبق هذا الإجراء أيضا على البيزنيين، وطبقا لمرسوم صدر بتاريخ ١١٩٢م، فرضت أيضا على البيزين ، وطبقا لمرسوم صدر بتاريخ ١١٩٢م، فرضت على الإيطاليين ضريبة عند إنزالهم من البحر بضائع واردة من بلاد إسلامية أو مرت ببلاد إسلامية ، وبيعهم هذه البضائع فى صور[٤]، ومن جهة أخرى كان موظفو الملك الصليبى فى القرن الثالث عشر الميلادى يحملون

1- "Livre des Assises des Bourgeoise"., pp. 275, 76; Downs, Basic Documents., pp. 151, 152 ; Smith, Nobility., p. 93.

2- Smith, Op. cit., p. 93 .

3- Beugnot, " Livre des Assises des Bourgeoise"., II, p. 174; Cahen, La Syrie Du Nord., p. 478 .

هايد : تاريخ التجارة، ص٣٤٣ .

٤- هايد : المرجع السابق، ص٣٤٣ .

رسوم مرور على البضائع القادمة فى سفن بندقية إلى الموانىء الصليبية، والتى لم تجد من يشتريها فى الأسواق الصليبية ويعاد تصديرها إلى أى ميناء آخر[١]، أى رسوم إعادة التصدير .

ويبدو أن هذا نوع من التعسف والتضييق على التجار الإيطاليين ترك أثره السىء على حركة الأسواق فى المدن الصليبية وخاصة مدن عكا وصور وطرابلس وأنطاكية .

وقد ازدادت مثل هذه القيود التجارية شيئا فشيئا على التجار الإيطاليين حتى وصلت الأمور إلى ذروتها فى عام ١٢٤٤م حيث اضطر البيلى البندقى المدعو مرسيليو وجورجيو إلى أن يجار بالشكوى بسبب هذه المعاملة السيئة ، وكانت فحوى هذه الشكوى ، أنه كان يفرض على أي تاجر بندقى يريد الذهاب بمتاجرة من عكا إلى دمشق ، أو إلى أى مدينة إسلامية أخرى، أن يدفع ضريبة قدرها ٤ ١/٦ ٪ من قيمة متاجره كما فرض على أى تاجر بندقى يرغب فى إحضار متاجر من دمشق إلى عكا برا ضريبة قدرها ٩ ٧/٢٤ ٪ من قيمة هذه المتاجرة ، وذلك إذا أراد بيعها فى أسواق عكا ، كما كان على التاجر البندقى إذا اشترى سلعا من الأسواق الإسلامية ، أن يدفع ضريبة قدرها ٤ ١/٦ ٪ ، ما لم يحصل على موافقة مسبقة من الموظف الملكى، كما تضمنت شكوى البللى البندقى أيضا، فرض السلطات الصليبية رسوما على التجار البنادقة الذين أحضروا معهم عددا من الخيول والعبيد لبيعها فى أسواق عكا[٢] وفى عام ١٢٦٤م وافق الجنوية على دفع ٢ ١/٢ ٪ من قيمة الصادرات .

والواردات التى كانت تأتى عن طريق القوافل البرية إلى بوابات مدينة صور، وذلك للأمير فيليب دى مونتفرات، وإذا لم يستطع التاجر الجنوى بيع هذه البضائع خارج مدينة صور، فإنه يسمح له بالعودة بها إلى صور دون دفع أية رسوم إضافية[٣]، كما أعفى الأمير فيليب مونتفرات الجنوية من دفع أية رسوم على السلع والبضائع التى كان يحضرها الجنوية من دفع أية رسوم على السلع والبضائع التى كان يحضرها الجنوية إلى صور عن طريق البحر، وذلك فى

١- نفس المرجع والصفحة.

2- Smith, Nobility., pp.73-76; " Government"., p.110 ; Prawer, The Latin kingdom., p. 406 .

3- Smith, Nobility., p. 73 .

حالة ماذا تحطمت احدى سفنهم أو، تعرضت هذه السفن لأعمال القرصنة البحرية[١].

ويبدو أن التباين فى معاملة التجار الإيطاليين فى المدن الصليبية، يرجع فى المقام الأول إلى أسباب سياسية، وما سبق أيضا يوضح بجلاء أن النظام الضرائبى فى عكا كان يختلف كثيرا لما كان متبعا فى مدن صليبية أخرى مثل صور وطرابلس وبيروت وأنطاكية وغيرها، وكانت العوامل السياسية هى التى تحكم مثل هذه السياسات الضرائبية إزاء التجار الإيطاليين فقد كانت هذه السياسات متناقضة فى فترات كثيرة ، ومن المحتمل أن مثل هذه المحاولات من جانب الحكام الصليبيين من فرض رسوم وضرائب جديدة على التجار الإيطاليين وخاصة فى القرن الثالث عشر الميلادى، كان الغرض منها منع هؤلاء التجار من استخدام الموانىء الصليبية كأسواقحرة ، ومن المؤكد أن هنرى الشامبانى هو الذى فعل ذلك، حيث فرض على الجنوية دفع رسوم على أية سلع تباع فى أسواق صور أو التى كانت تستورد عن طريق البحر من مصر أو من القسطنطينية ، أو من أى بلد إسلامى آخر[٢].

والواقع أنه لم يكن هناك نظام ثابت لفرض الرسوم والضرائب الجمركية فى الموانىء الصليبية، وثمة قائمة ضرائب ورسوم ميناء وبوابات وأسواق عكا باقية من منتصف القرن الثالث عشر الميلادى وتحتوى هذه القائمة على بضائع كانت تفرض عليها الرسوم حسب كميتها بدلا من قيمتها ، وكانت هذه البضائع تشمل كلا من الصادرات والواردات ، وبعض الصادرات كانت الرسوم الجمركية فى الميناء تقدر طبقا لمفهوم نظرية اقتصادية معاصرة ، وهى أن الرسوم كانت تقدر على أساس الاختلاف بين قيمة ما يحضره التاجر من سلع وبضائع إلى الميناء، وبين ما يستورده ، وذلك فى حالة ما إذا كانت قيمة السلع المصدرة أعلى من السلع المستوردة، ومن المحتمل أن هذا النظام الجمركى طبق فى ميناء عكا، وذلك لأنه فى عام ١٢٥٧م، قامت المحكمة العليا باعفاء تجار انكونا من دفع كل الرسوم الزائدة المستحقة عليهم فى الميناء[٤].

1- Smith, "Government"., p. 120 .

2- Smith, "Government"., p. 120 .

3- "Livre des Assises des Bourgeoise", pp. 274-87 ; Downs, Basic Documents., pp. 151, 152 .

4- Smith, Nobility., p. 93 .

وعلى أية حال فإنه قد لوحظ أن التجار الإيطاليين قد منحوا تسهيلات ضريبية كبيرة فى كافة المدن الصليبية التى تواجدوا بها ، وذلك إبان فترة استقرار وقوة المملكة الصليبية. ففى أنطاكية دفع البنادقة ٥٪ رسوم جمركية على الكتان والملابس الحريرية ، ٧٪ على باقى البضائع ، مع العلم بأن الرسوم الجمركية فى عكا كانت تقدر بـ ١/٦ ١١٪ ، وفى عام ١١٢٣م خفضت هذه الرسوم الجمركية العادية والمألوفة ، وتمتع البيازنة فى طرابلس بحريات واسعة وإعفاءات ضرائبية وذلك فى عام ١١٨٧م، وفى العصر الزاهر للمملكة الصليبية قام الملك اماليك (عمورى) بتخفيض الضرائب والرسوم على البيازنة فى يافا إلى النصف ، كما حصل البيازنة على تخفيض ضريبى فى أنطاكية فى نفس الفترة أيضا[١].

وبالإضافة إلى الإعفاءات الجمركية التى حصل عليها التجار الإيطاليون فى الميناء، حصل هؤلاء التجار على إعفاء من رسوم المبيعات فى أسواق بيروت، وكانت أهم السلع المعفاة من ضريبة المبيعات القطن، والحرير، والملابس الحريرية، والفلفل والبخور والسكر، والبهارات، والنيلة، والصوف والملابس الصوفية والكتانية واللؤلؤ والأحجار الكريمة والزجاج والصابون، كما حصل الجنوية على إعفاء من دفع رسوم على السيراميك والنبيذ والزيت فى أسواق بيروت أيضا[٢]. وقد ساعدت هذه السياسة على ازدهار النشاط التجارى فى أسواق المدن الصليبية خلال هذه الفترة وتشجيع التجار الإيطاليون فى ممارسة التجارة بهمة ونشاط ، ولكن هذه السياسةلم تستمر طويلا فقد تم تفليس هذه الإعفاءات وخاصة إبان فترات الضعف الصليبى، وتطلبت الأوضاع السياسية والعسكرية للصليبيين فرض أنواع جديدة من الضرائب على التجار الإيطاليين، والتضييق عليهم، حتى وصلت الأمور إلى حد الشكوى كما ذكرنا .

ولاشك أن الأسواق الصليبية قد نشطت إبان فترات الاستقرار السياسى والاقتصادى والذى تبعه اعتدال واستقرار فى السياسة الضريبية ، والتى لم تدم طويلا بسبب تضييق الحكام الصليبيين الخناق على التجار الإيطاليين، مما انعكس أثره السىء على حركة الأسواق فى المناطق الصليبية، وعلى الرغم من ارتفاع نسبة الضرائب التجارية فى الأسواق الإسلامية (دمشق- حلب)، إذا ما قورن بمعدل نسب الضرائب فى الأسواق الصليبية. فإننا نجد أن التجار

1- Prawer, The latin Kingdom., p. 406 .

2- Prawer, The Latin Kingdom .. p. 406 .

الإيطاليين تزايدت حركة ترددهم إلى الأسواق الإسلامية، وذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى على عكس ما كان يحدث فى القرن الثانى عشر الميلادى من تدفق التجار المسلمين إلى الأسواق الصليبية لممارسة البيع والشراء[١].

وهكذا لم تستطع الأسواق الصليبية منافسة الأسواق الإسلامية (دمشق، حلب) المجاورة لها، فى اجتذاب أعداد التجار إليها وخاصة الأوربيين ، كما أصبحت الأسواق المصرية محط أنظار هؤلاء التجار أيضا.

والواقع أن الصليبيين عندما جاءوا إلى فلسطين وبلاد الشام فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وجدوا نقودا وعملات متداولة فى منطقة الشرق العربى، وأهمها الدينار الذهبى الفاطمى الذى كان متداولا على نطاق واسع فى طرابلس ومدينة القدس، كما كانت النوميسما البيزنطية أو الهيبربيرون من أسبق العملات الذهبية المتداولة فى أنطاكية [٢]، (وهى العملات التى ضربها الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن فى بافلاجونيا) .

وقد صاحب الغزو الصليبى للأراضى المقدسة تدفق العملات الأوربية إلى هذه المناطق، ففى أثناء الحملة الصليبية الأولى استخدمت الجيوش الأربعة التى اشتركت فى الحملة عملات من بواتيية وشارتر وليمانز وفالنى وماجية، ولوكا ، وقد عثر على حوالى ٣٥٠٠ قطعة من هذه العملات الذهبية والفضية فى مدينة طرابلس بعد عام ١٢٢١م، وكانت هذه العملات تتكون من ١٧٠٠ قطعة من العملات الصليبية ، ١٨٠٠ قطعة من النقود الفرنسية ، وقد عثر على هذه النقود من أربع وعشرين مكانا مختلفا فى مدينة طرابلس [٣]، كما ذكر ريموند الأجليرى فى حولياته أن سبعة أنواع من النقود المختلفة كان يتداولها أفراد الحملة الصليبية الأولى، وقد أثبتت الحفائر الأثرية التى أجريت فى أنطاكية عام ١٩٢٢م، ما ذكره المؤرخ الصليبى، فقد تم العثور على خمس عشرة قطعة من نقود وعملات مدن مثل شارتر، ولامنس، وولكا وماجيه ، وبوى، وقد اختفت هذه العملات أثناء احتلال الصليبيين وانطاكية فى عام ١٩٠٨م، ولكن ثمة نقودا كانت لها أفضلية فى التداول ، وهى نقودا مدينة فالنس ولوكا، فقد كانت هذه

1- Caben,La Syrie Du Nord., pp. 479, 480 .

2- Prawer, The Latin Kingdom., p. 383 .

3- D.H. Cox, The Tripolis Hoard of French Seignarial and Crusades Coins , Numismatic Notes and Monographs , No, 59 New York. 1933; Prawer, Op. cit., p. 383 .

العملات أكثر انتشارا وتداولا فى المناطق الصليبية فى شمال بلاد الشام، واستمر تداول هذه العملات فى المناطق الصليبية بكميات كبيرة تربو عن المليون قطعة [١].

ويرى متيكالف Metcalf أن العملات الأوربية جاءت إلى الأراضى المقدسة فى بلاد الشام عن طريق الحجاج الأوربيين ، الذين لم ينقطع ترددهم إلى هذه المناطق كل عام، وذلك فى فترة ما قبل الحروب الصليبية، فى حين ترى الباحثة كوكس Cox أن العملات الأوربية جاءت إلى الأراضى المقدسة أثناء الحملة الصليبية الثالثة، أو فى وقت الحملة الصليبية الخامسة ، وذلك لتمويل الحملة والاتفاق عليها[٢].

ولاشك أن وجود النقود الأوربية فى الأراضى المقدسة فى بلاد الشام فى فترة ما قبل الحروب الصليبية يرجع فى المقام الأول إلى النشاط التجارى للإيطاليين فى منطقة الشرق العربى فى القرنين العاشر والحادى عشر من الميلاد .

وكانت أول النقود التى تداولها الصليبيون أثناء غزوهم الرها وأنطاكية هى بيزنتات ميخائيل السابع دوقاس ، وهى البيزنتات البيزنطية التى منحها لهم الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس على سبيل المكافأة ، وهكذا عرف الصليبيون النقود الذهبية البيزنطية وتداولوها فيما بينهم،واستخدموها فى دفع مرتبات الجند، كما استخدموها فى افتداء الأسرى، وكانت هذه النقود الذهبية شائعة التداول فى أنطاكية[٣].

وظل الصليبيون يستخدمون العملات البيزنطية «النوميسما» والعملا الإسلامية الدينار والدرهم فى السنوات الأولى من وجودهم فى منطقة الشرق، العربى، وبمرور الوقت ظهرت العملات المحلية الصليبية . ومن المحتمل أن هذه العملات تم ضربها وسكها فى وقت مبكر من الوجود الصليبى فى المنطقة العربية. ولعل أقدم النقود الذهبية التى سكها الصليبيون، تلك التى شربها تانكرد الأنطاكى (المتوفى فى عام ١١١٢م) وعليها صورته مرتديا عمامة مزينة بالجواهر [٤]. وتلك التى ضربها البنادقة فى الأراضى المقدسة ، فقد قام الصليبيين

1- D. M. Metcalf, Coinage of the Crusades and The Latin East London, 1983, p.2 .

2- Ibid, p. 50 ; Prawer, Op. cit., p. 382 .

3- William Of Tyre, Op. cit., vol . I, p. 132 ; Metcalf, Op. cit, p. 50 ; Prawer, Op., p.344.

4- Metealf, Op. cit., p. 7 ;

بضرب نقود لهم أثناء فترة استقرارهم فى منطقة الشرق العربى، وقد دعتهم إلى ذلك الحاجة المالية للتجارة وتنشيط حركة الأسواق وشئون الحجاج والفرسان (الإقطاع النقدى)[١] المتنقلين أو المقيمين.

وانقسم النظام النقدى للصليبيين إلى قسمين أساسيين ، الأول وهوالنقود البرونزية والنحاسية ذات الكتابات اليونانية أو اللاتينية أو الفرنسية، والتى ضربت للتداول المحلى بين الصليبيين داخل الإمارات ، والقسم الثانى، وهو النقود الرسمية المضروبة من الذهب والفضة والتى جاءت تقليدا للنقود الذهبية أو الفضية الفاطمية والأيوبية بمصر والشام، وكانت هذه النقود تستخدم فى التداول مع الخارج بمنطقة الشرق كلها[٢].

وقد تمخض عن قيام إمارات صليبية على الحدود البيزنطية والإسلامية ، ظهور نوع جديد من العملة الذهبية التى ضربها الصليبيون وهى «البيزنت» والتى كان بمثابة عملة ثالثة من عملات التجارة الدولية بعد النوميسما البيزنطية والدينار الذهبى الإسلامى وكان البيزنت يخضع لقواعد ضرب العملة الذهبية ، وقد ازدهرت العملة الصليبية بفضل الإمدادات الأوربية من الذهب، والتجارة الرائجة فى المناطق الصليبية فى هذه الأسواق[٣]. وقد جاءت النقود الذهبية التى سكها الصليبيون تقليدا لدنانير الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى (٤٩٥هـ/ ١١٠١-١١٣٠م) وأطلق عليها فى المراجع الغربية اسم البيزنت الإسلامى "Besant Sar-racenat" وفى المصادر العربية[٤] باسم «الدينار الصورى»[٥] ، وكان وزنه يبلغ حوالى ثلثى

= نظير حسان سعداوى: الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى، (النهضة المصرية ، ١٩٦١م) ، ص٢٠٣ .

١- لمعرفة الاحتياجات المالية لمواجهة أعباء الإقطاع النقدى ى المملكة الصليبية فى المقدس، انظر : السيد الباز العرينى: الإقطاع الحربى فى مملكة بيت المقدس الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، (مجلة كلية الآداب القاهرة ، مجلد ١٢ ، ١٩٦٨م) ص١-٢٣ .

٢- رأفت النبراوى : المسكوكات الصليبية فى بلاد الشام ومصر ، (ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة) ؛ ص٣ . عبد الرحمن فهمى: النقود العربية ، ص٧٩ .

3- Prawer, The Latin kingdom., p. 382 .

٤- ابن جبير : المصدر السابق ، ص٢١٠ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٨٢ ، أبو شامة ، الروضتين، جـ١ ، ص١٠٣ ، القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص١٤٤ .

٥- الدينار الصورى: اختلفت الآراء حول الدينار الصورى ، وتعددت الآراء فى أسباب تسميته بهذا =

وزن الدينار الفاطمى الأصلى ، وكانت هذه النقود الصليبية المقلدة تشبه النقود العربية الإسلامية من حيث الشكل العام، فكانت تنقش عليها نفس الكتابات المسجلة على النقود العربية، والتى كانت تشمل لفظ الجلالة «الله» واسم النبى «محمد» وأسماء الخلفاء ودور السك الإسلامية ، والتواريخ الهجرية ، ومن هنا جاءت تسميتها بالبيزنتات الإسلامية[١].

ولاشك أن تقليد الصليبيين للنقود الإسلامية الفاطمية فى النقوش والشكل العام، كان لغرض تسهيل المعاملات التجارية بينهم وبين المسلمين، ولتثبيت أقدامهم بالأراضى المقدسة، وأصبحت هذه النقود المقلدة أساسا للتعامل التجارى بين المسلمين والصليبيين فى مجالات الحياة اليومية، وفى دفع الضرائب وغيرها [٢]. وقد جنى الحكام الصليبيون أموالا طائلة نتيجة ضربهم نقودا جديدة.

والواقع أن الصليبيين قلدوا نوعين لدنانير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، ويمكننا تقسيم الدنانير التى ضربها الصليبيون تقليدا لدنانير المستنصر بالله إلى ثلاثة أقسام، يشمل القسم الأول نوعين من الدنانير المقلدة لايوجد عليها الحرفان T. B والصليب والقسم الثانى هو الذى ضربت دنانيره تقليدا لدنانير المستنصر وعليه الحرفان T . B بدون الصليب ، والقسم الثالث كانت دنانيره هى نفس دنانير القسم الثانى مع وجود صليب يتوسط كتابات المركز وكذلك الحرفان اللاتينيان T.B بأعلى كتابات مركز الوجه والظهر على التعاقب [٣]. ومن الملاحظ أن

= الاسم ، وقد أجمع المؤرخون المحدثون على أن الدينار الصورى هو الذى سكه الصليبيون تقليدا للدنانير الفاطمية ، أو الدينار الفاطمى الذى ضرب فى مدينة صور أيام كانت تابعة للدولة الفاطمية ، وكان وزنه أقل من وزن الدينار الفاطمى (حسنين محمد ربيع ، النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك، (القاهرة ، ١٩٦٤م) ص٩٨) ، عن الدينار الصورى وعن أنواع الدنانير المتداولة فى مصر والشام انظر، (ابن بعرة ، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، (تحقيق د.عبد الرحمن فهمى، القاهرة ١٩٦٦م) ، ص٤٥ .

١- عبد الرحمن فهمى: النقود العربية ، ص٧٩ ؛ رأفت النبراوى: المسكوكات الصليبية، ص٤،٥ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦١٨؛ . Metalf, Op. cit., p. 121

٢- رأفت النبراوى: المرجع السابق، ص٦ .

٣- رأفت النبراوى : المسكوكات الصليبية ، ص٢٢ .

الدنانير التى ضربها الصليبيون تقليدا لدنانير المستنصر وعليها اسمه كانت رديئة ، يصعب قراءة كتابتها، وذلك لأن الصانع الذى نقش هذه الحروف كان يجهل اللغة العربية، فكانت النقوش عبارة عن مجموعة بسيطة من الشرط العمودية، والدوائر التى يصعب معرفة الغرض منها [١].

ومما يذكر أن الدينار الصورى أو البيزنت الإسلامى ، وهى العملة الذهبية التى قلدها الصليبيون، كان أخف وزنا وأقل قيمة من حيث عيار الذهب من الدينار الإسلامى الفاطمى الحقيقى(دينار المستنصر بالله أو الآمر بأحكام الله) ، فكانت نسبة الذهب فى هذه البيزنتات تصل إلى ٩٨ / - ٩٧ / وزن ذهب ، وفى فترة تالية نقص وزن الذهب من ٩٠ / - ٧١ / وزن ذهب [٢]، كما بلغ قطر هذا البيزنت المقلد من ٢٢مم - ٢٣ مم وكان وزنه يصل ٣,٥ جرام - ٣,٧جرام ، ونسبة معدن الذهب فيه كانت ٦٥,٥ - ٧٥ / [٣].

ولاشك أن نقص وزن البيزنت ، ونقص نسبة الذهب فيه (العيار) فى فترات متتالية من تاريخ المملكة الصليبية، يرجع أساسا إلى أسباب اقتصادية ، ولاسيما الفترة التى تلت معركة حطين الشهيرة واسترداد المسلمين للقدس، وقد أثرت هذه الكارثة التى حلة بالكيان الصليبى فى الأرض العربية المحتلة، فى حركة الأسواق الصليبية، حيث انهارت قيمة العملات الصليبية، وما تبعها من ارتفاع فى الأسعار ، وانكماش حركة الأسواق ، فقد نالت الأسواق نصيبها من الضعف العام الذى ساد المملكة الصليبية فى بيت المقدس، وانهارت المؤسسات التى شادها الصليبيون فى الأرض العربية وازدادت حركة تزييف العملات الصليبية فى نهاية عامى ١١٨٧، ١١٨٨م [٤].

وقد استمر تداول هذه البيزنتات المقلدة للدنانير الإسلامية فى التعامل التجارى فى المناطق الصليبية، حتى عام ١٢٥٠م، وعندما حضر المندوب البابوى المدعو إيدوى دى شاتيورو Eudes de Chateauroux بصحبة الملك لويس التاسع ملك فرنسا إلى عكا، وقام بتعنيف الصليبيين

1- Prawer , The Latin Kingdom., p. 385 .

2- Metcalf, Coinage of the Crusades., p. 43 .

3- Prawer , Op. cit., p. 385 .

4- Metcalf, Op. cit., p. 9 .

لاستخدامهم عملات ونقود تحمل رموز الإسلام، وقام البابا إنوسنت الرابع بنهى الصليبيين عن سك مثل هذه النقود وهدد من يخالف هذه الأوامر بعقوبة الحرمان الكنسى [١]، وقد أذعنت السلطات الصليبية للأوامر البابوية ، وقامت بسك عملات ذهبية جديدة تحمل رمز الصليب فى المركز أو الوسط، وتم استبدال الكتابة العربية التى تحمل رموز الإسلام بنقوش وكتابات تمجد المسيحين فقد أصبح البيزنت المقلد يحمل علامات العقيدة المسيحية، وهى الثالوث المقدس (الاب - الابن ، الروح القدس) ، وأصبح يحمل التاريخ الميلادى كما كان عليها عبارات مسيحية مثل «نفتخر بصلب ربنا يسوع المسيح) الذى به سلامتنا وحياتنا وقيامنا، وبه خلاصنا وامننا والغفران لنا وكان ينقش على أحد أوجه البيزنت عبارة[٢]، وجه العملية عبارة Agnus Dei Qui Tollit Pecatta Mundi وترجمتها ابن الله الذى يحمل اوزار البشر .

وعلى ظهر العملة عبارة Christus Regnat Christus Imperat وترجمتها المسيح يحكم المسيح يهيمن .

وكان قطر هذه العينة البيزنتات يبلغ (٥ , ٢٠سم- ٢١مم) ، والوزن ينحصر ما بين (٣١ , ٣-٦٢ , ٣ [٣]، كما كان يكتب على قطعة النقود اسم دار الضرب (تم ضربها فى عكا عام ١٢٥١م) أى كان يسجل عليها مكان وتاريخ الضرب[٤] ، كما وجد الحرفان T . B بأعلى كتابات مركز الوجه والظهر على التعاقب، ويمكن تفسير حرف B على أنه اختصار لاسم برهمند الرابع أو يدل على أول حرف من اسم برتراند حاكم طرابلس الصليبى، وكان حرف يدل على أول حرف من اسم تانكرد ، أو كان يدل على اسم دار الضرب فى طرابلس[٥]، أو فى

1- Metcalf , Coinage of the Crusades. , p. 43 ; Prawer, Op. cit., p. 386; Holmest, " Life Among the Europeans CF. Setton, vol, IV. p. 8 .

2- Prawer, Op. cit., p. 387 .

3- Loc. Cit.

4- Metcalf , Op. cit., p. 10 ; Conder, The Latin Kingdom, p. 189 .

٥- يرى بعض البارزين والمتخصصين فى دراسة النقود أن النقود الصليبية المقلدة فى بلاد الشام لم يضربها الصليبيون فى مدن بلاد الشام أى فى دور السك الخاصة بهم، ولكنها ضربت فى دور السك فى جنوب أوربا. (Prawer, The Latin Kingdom ., p. 386, N. 64)

صورا فى أنطاكية أو الرها[١]. وقد ظل ضرب هذا النوع من البيزنتات لأقل من ثمانى سنوات (١٢٥١ -١٢٥٨م) [٢].

وكانت هناك وحدات من العملات الذهبية الصغيرة مثل أنصاف البيزنتات ، وكان قطره ١٩مم ووزنه ١٢ ,٣جرام [٣]. وقد ساعدت هذه النقود والعملات على تشجيع النشاط التجارى فى الأسواق الصليبية فى بلاد الشام وخاصة إبان فترة الاستقرار السياسى والاقتصادى التى شهدتها المملكة الصليبية قبل موقعة حطين ١١٨٧م، وعندما هبطت قيمة هذه العملات الصليبية فى فترات تالية ، أثرت بشكل كبير على التجار فى الأسواق الصليبية.

ولم تقتصر الحكام الصليبيون على ضرب النقود الذهبية فقط بل قاموا بسك عملات فضية، لأن التجارة العالمية كانت تستخدم العملات الذهبية والفضية آنذاك، كما كانت التجارة المحلية فى المناطق الصليبية تستخدم فئات من العملات الفضية والنحاسية[٤] بشكل يومى ، وكانت العملات الفضية الإسلامية «الدراهم» من العملات المتداولة فى الأسواق الصليبية والأسواق العالمية أيضا، ولذا لجأ الصليبيون إلى سك عملات فضية تقليدا للدراهم الإسلامية «الأيوبية» وقد عرفت العملة الصليبية الفضية المقلدة باسم «ديناريوس» [٥]. وقد حرص ملوك بيت المقدس من أمثال بلدوين الثانى (١١١٨ / ١١٣١م) وعمورى الأول وجاى لوزجنان وهنرى الشامبانى وحنا دى بيرين على ضرب كميات كبيرة من الدنانير الفضية وأنصاف الدنانير "Obol" وأرباع الدنيار، وذلك فى صورة سبائك من الفضة والنحاس. ومن الجدير بالذكر أن الأسيز Assise des Jerusalem أكدت أن الثلاثة بيزنتات كانت تساوى ٢٨٨ دينار فضى [٨]، أى أن البيزنت = ٦ دينا فضى .

1- Metcalf, Op. cit., p. 43 .

2- Prawer, Op. cit., p. 386 .

3- Ibid, p. 387 .

4- Holmest , " Life Among The Europeans"., p. 7 .

5- Prawer , The Latin Kingdom ., p. 388 .

6- G.L. Schlumberger, Numismatique de L'Orienl Latin, (Paris, 1878- 1882), pp. 130 ff.

7- Helmest , " Life Among The Europeans, pp. 7,8 .

8- "Assuses des Jerusalem " II, p. 36 , Note b.

والواقع أنه ثمة اتجاه عام يؤكد أن عملة فضية ملكية قد ضربت فى عهد الملك بلدوين الثانى أو بلدوين الثالث (١١٣٤ - ١١٦٣م) وهذا يطابق التشريع الذى كان بخصوص الامتيازات الملكية فى ضرب العملة، ومهما تعددت الآراء والاجتهادات بخصوص تاريخ سك الصليبيين لعملاتهم الفضية ، فإنه يمكن القول بأنه لم توجد عملة ملكية صليبية بقصد التداول فى الأربعين عاما الأولى بعد الغزو الصليبى ويمكن أن نفترض أن النقود والعملات الفاطمية هى التى كانت متداولة وهى العملات التى ظفر بها الصليبيون أثناء احتلالهم المناطق العربية، وكذلك من أموال أهل البلاد الأصليين التى استولوا عليها الصليبيون فى صورة ضرائب ورسوم متعددة، وقد استطاعت هذه النقود أن تغطى المتطلبات الاقتصادية العادية واليومية فى القطر، بالإضافة إلى العملات الأوربية التى أحضرها الحجاج والصليبيون النازحون الذين استقروا فى البلاد ، ولذا يمكن القول أن الصليبيين سكوا عملاتهم الخاصة للتداول المحلى فى ستينات القرن الثانى عشر الميلادى ، حيث فترة الاستقرار السياسى والاقتصادى للملكة الصليبية[١].

ومما أوجد الصعوبة فى معرفة تاريخ سك العملات الصليبية ، هو أن معظم هذه النقود الصليبية التى عثر عليها كانت تحمل حرف B على أحد وجهها دون كتابة تاريخ الضرب ، ومن المعروف أن حرف B يرمز إلى أول حرف من اسم بلدوينوأن ثمة خمسة من ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية كانوا يحملون اسم بلدوين .

وعلى أية حال فإن العملات الفضية الصليبية كانت تقليدا للدرهم الأيوبى (كان قطره يبلغ ٢١مم - ٢مم ووزنه ٨٨, ٢جرام) ، فقد كان الدينار الفضى الذى يحمل اسم بلدوين من ضرب مدينة صور وعكا ، وربما أيضا ضرب فى دار السك فى مدينة القدس العاصمة[٢]. وكان يصل وزن هذا الدينار من ٩ جرام - ٥, ٩جرام ونسبة وزن معدن الفضة فيه ٧, ٣٤ ٪ .

1- Prawer, Op. cit., p. 389 .

٢- كانتبعض هذه النقود تحمل على أحد وجهها شكل «برج داود» وإن كان لم يكن هناك برهان قاطع على كون هذه النقود من مسكوكات مدينة القدس وإن كانت هناك دار لسك العملة فى مدينة القدس.

(Prawer, The Latin Kingdom " p. 387, N. 70).

2- D. H. Cox, The Tripolis Hoard of french Seignorial, p. 57 .

3- Metcalf, Coinage of the Crusades. , p. 14 .

4- Ibid, pp. 16,17 .

وثمة مجموعتان من الدنانير الصليبية المقلدة قد تم سكها على نطاق واسع فى المملكة الصليبية، كانت المجموعة الأولى تحمل اسم الملك بلدوين، والثانية كانت تحمل اسم الملك عمورى مع نقش الضريح المقدس على أحد أوجه هذه الدنانير ، وقد استمرت دنانير الملك بلدوين الثانى (١١١٨-١١٣١م) حتى فترة مبكرة من حكم الملك عمورى الأول، ويمكن أن نقرر زن مثل هذه الأنواع من النقود قد تم ضربها عندما كان بلدوين حاكما لمملكة بيت المقدس الصليبية وأن قواعد ونظم ضرب العملة قد استمرت حتى فترة حكم الملك فولك الأنجوى (١١٣١-١١٤٣م) وقد استمرت نقود الملك عمورى فى التداول [١]، حتى سنة ١٢١٩م، وأخذت الدنانير الفضية للملك عمورى نقوشها من الشكل المعمارى المميز لمدينة القدس، فكان ينقش عليها قبة الضريح المقدس (كنيسة القيامة) ، وفى البداية كانت هذه الدنانير تماثل تماما نقود الملك بلدوين الثانى فى الوزن، وفى درجة نقاوة المعدن (العيار) . ولم ينقص وزن دنانير الملك عمورى عن ٩ جرام ، وكانت هذه الدنانير ذات شكل مميز، فكانت مزينة بصليب ذات أربع زوايا وكانت الحليات الدائرية تزين الربع الأول والثالث من هذا الصليب دون عليه اسم REX أى الملك، كما كان دنانير الملك حنا دى برين مكتوبا عليها الحروف DAMTATA أى دمياط ، وكان اسم هذا الملك آخر اسم لاتينى نقش على العملات الصليبية فى بلاد الشام[٢].

والحقيقة أن الصليبيين قلدوا نوعين من الدراهم الأول كان تقليدا للدرهم الأيوبى المعاصر له فى حلب ، والذى كان يدون عليه التاريخ الهجرى وخاصة الدراهم الفضية لكل من الملك الظاهر غازى حاكم حلب والملك الصالح نجم الدين أيوبوالملك الصالح عماد الدين إسماعيل فى دمشق ويلاحظ أن كتاباتهذه النقود المقلدة وطرازها يمكن تمييزه عن النقود الإسلامية الأصلية، وربما سك الصليبيون نقودهم هذه فى دور سك صليبية أو دور سك بندقية أو غيرها من المدن الإيطالية [٣]، وقد فضحت الدنانير الصليبية نفسها بما حملته من تواريخ ضرب تتناقض مع سنوات حكم الأمراء الأيوبيين، ويبدو أن مثل هذه الدنانير الفضية المقلدة قد ضربها الصليبيون فى أوربا على يد عمال شوام من أسرى الحروب الصليبية، إذ هم أقدر على الكتابة العربية

1- Metcalf, Coinage of the Crusades. , p. 14 .

2- Metcalf, Op. cit., pp. 16,17 .

٣- عبد الرحمن فهمى: النقود العربية، ص٨٢ .

من غيرهم من الأوربيين ولم يكن الضارب المسلم قد علم وهو فى الأسر بموت أحد الخلفاء ، فاستمر بضرب النقود الصليبية بتواريخ متتابعة لاتتمشى مع التغيرات السياسية التى تشهدها منطقة الشرق العربى الإسلامى[١].

وظل الصليبيون يقلدون الدراهم الأيوبية حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى إلى أن أصدر البابا قراره الشهير بوقف ومنع الصليبيين عن سك عملات تشبه العملات الإسلامية، وقد طبق هذا الأمر على البيزنتات الذهبية، كما أوضحنا من قبل، وكذلك طبق على الدنانير الفضية، وأصبحت الدراهم الفضية الصليبية الجديدة تحمل التاريخ الميلادى بدلا من التاريخ الهجرى ، كما سجلت البسملة كاملة على هذا النوع كذلك حذفت الرسالة المحمدية وشهادة التوحيد الإسلامية اللتان كانتا تزدان على الدراهم الأيوبية والصليبية المقلدة ذات التواريخ الهجرية[٢].

وعلى قدر ما أكدته الموجودات النُمِّية من أن العملة الملكية التى تم ضربها فى القرن الثالث عشر الميلادى، تبين مدى الضعف الذى لحق بها، وذلك إذا ما قورنت بعملات القرن الثانى عشر الميلادى، ولا غرو فقد تفاقمت الأزمات الطاحنة فى عهد الملك عمورى الثانى (١١٩٤-١١٩٧م - قبرص ١١٩٧-١٢٠٥م) ، وقد كان متوسط وزن الدينار الملك عمورى الثانى قد هبط إلى النصف ويعنى هذا أن وزنه كان ٥ , ٥جرام، ونسبة معدن الفضة فيه (العيار) ٣ , ٢٠٪ ، أى كان يعادل نصف نسبة نقاوة الدينار الفضى فى عهد الملك عمورى الأول، كما كانت دنانير الملك يوحنا دى بيرين بعد احتلال دمياط تزن[٣] (٣ , ٧ - ٨جرام) ، ونسبة المعدن كان تتراوح ما بين (٣ , ٢٠-٢٢٪) . ومن المؤكد أن نقص قيمة هذه العملات الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى قد أثرت بشكل كبير على حركةالأسواق الصليبية، وكان هذا التدهور النقدى موازيا لمنحنى التدهور العام الذى أصاب المملكة الصليبية بعد موقعة حطين ١١٨٧م.

١- المرجع السابق، ص٨٢ ، ٨٣ .

2- Metcalf, Coinage of the Crusades., p. 27 ,

النبراوى : المسكوكات الصليبية ، ص٤٨ .

3- Cox, Op. cit., pp. 56-66 .

وبالإضافة إلى النقود والعملات الذهبية والفضية الصليبية، فإن الصليبيين ، كان لديهم فئات مالية صغيرة مثل أنصاف الدنانير والذى كان قطره يبلغ (١٥ , ١٣مم) والوزن من (-١ , ٥جرام) ، كما كان لديهم قطع من النقود النحاسية (قطرها من ٢ , ٢-٤مم) تلك النقود التى قام بضربها الكونت هنرى دوق شامبانى فى أنطاكية، وقد شهدت أوقات الأزمات التى مرت بها المملكة الصليبية ظهور أنواع مجهولة من قطع النقود كان يتم تداولها فى المناطق الصليبية ، ومن المحتمل أن هذه القطع النقدية المجهولة والمتداولة ترجع إلى وقت الحملة الصليبية الثالثة، والتى خلفت وراءها نقودا عديدة تشبه العملات الملكية فى نقوشها ، فقد كانت هذه القطع النقدية المجهولة تحمل نقوشا مثل[١] الضريح المقدس Sepuchri Demini وبرج داود Turis Davit وسان أيريا San Aerea وطريق الصليب Via Crucis .

وكانت الدنانير الفضية الصليبية أكثر قبولا فى المعاملات التجارية فى بلاد الشام ومصر ، فقد لاقت هذه العملات الفضية الصليبية رواجا فى الأسواق المصرية، ومما يؤكد هذا ، ما عثر عليه من أعداد كبيرة من الدراهم الفضية الصليبية فى مدينة الفيوم، وعندما تم العثور على الكنوز النقدية فى الفيوم وجد من بين هذه النقود دراهم فضية أيوبية عليها نقوش مسيحية باللغة العربية[١] وهذه هى الدنانير الصليبية المقلدة.

وبالإضافة إلى العملات التى سكها ملوك بيت المقدس الصليبية إبان فترة الاستقرار فإن الأمراء الصليبيين قد سكوا عملات خاصة بهم للتداول المحلى، خلال هذه الفترة أيضا[٢]، فقد بدأ كونتات إمارة الرها الصليبية فى ضرب نقود نحاسية لهم فى تاريخ مبكر من الوجود الصليبى، وكانت هذه النقود شبيهة بالنقود البيزنطية ، والتى كانت مألوفة فى التعامل التجارى فى أسواق الرها فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ومن الغريب عدم العثور على نقود تنسب إلى جوسلين الأول (١١١٩-١١٣١م) أو جوسلين الثانى (١١٣١-١١٥٠م) مع أن ضرب وسك النقود بالإمارة لم يتوقف طيلة عشرين عاما شهدت سيطرة سياسية قوية وواضحة[٣]. ولم يتردد رتشارد نائب الملك الصليبى فى الرها فى نقش اسمه على النقود

1- Metcalf, Coinage of the Crusades., p. 27; Prawer, The Latin Kingdom., p. 388 .

٢- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦١٨ .

3- Metcalf, Op. cit., p. 8 .

الفضية ، وكان ثمة معياران من الوزن على التوالى ٨ جرام، ٤جرام ، ولأن نقود ريتشارد (١١٠٤-١١٠٨م) كانت ثقيلة الوزن، ولذا لاقت رواجا فى التداول المحلى، ومما يذكر أن إمارة الرها الصليبية عرفت سبعة أنواع من النقود خلال العقد الأول من تأسيسها [١].

وقام الصليبيون فى سك نقودهم النحاسية فى إمارة أنطاكية الصليبية ، وذلك بعد احتلالها بعام أو عامين ، وكانت هذه النقود قبل سقوطها، وقد عثر فى أنطاكية ضمن حفائر أثرية على اثنين وثمانين عينة من هذه النقود، وكان معدل وزن القطعة من هذه النقود يصل إلى ٤-٥ جرام [٢]. ومما يذكر أن النقود الصليبية فى أنطاكية كانت تختلف فى أشكالها وأوزانها من وقت لآخر ، كما تحمل على أحد وجهيها صورة لفارس محارب ، وهو القديس جورج ، يمتطى صهوة جواده ، وشاهرا سيفه فى وجه الأعداء، كما كانت تحمل أسماء تانكرد وروجر [٣].

وكانت نقود بوهمند الأول (١٠٩٨-١١٠٤م) فى أنطاكية نادرة جدا، وكانت هذه النقود تحمل على أحد وجهيها صورة القديس بطرس ، وخاصة الجزء الأعلى من الجسم، ومزينة بحروف T.M.H.B فى الأركان الأربعة لقطعة النقود ، كما كانت مزينة بصليب ، وكانت صورة القديس بطرس منقوشة على وجه قطعة النقود بشكل جانبى والوجه الآخر كان يحمل اسم بوهمند[٤] .B O. H.M وينسب هذا النوع من النقود إلى بوهمند الأول.

وثمة نوع آخر من العملات الصليبية التى كانت متداولة فى أنطاكية ذلك النوع الذى كان يحمل صورة تانكرد مرتديا عمامته المزينة بالجواهر مقلدا فى ذلك الزى العربى، وقد ضرب الأمير روجر (١١١٢-١١١٩م) ثلاثة أنواع من العملات فى أنطاكية ، كان النوع الأول ذاته، نقوش لاتينية ، والنوعان الآخران كانا يحملان نقوشا يونانية[٦].

1- Metcalf , Coinage of the Crusades., pp. 7,8.

2- Ibid, p. 8 .

3- Ibid, p. 7 .

4- Loc. cit.

5- Metcalf, Coinage of the Crusades. , p. 7 .

6- Ibid, p. 8 .

كما عرفت إمارة أنطاكية الصليبية نوعين من الدنانير الفضية ، وذلك فى فترة ما قبل منتصف القرن الثانى عشر الميلادى حتى عام ١٢٦٨م وكان النوع الأول من هذه الدنانير الفضيـة من ضرب الأمير ريموند دى بواتييه (١١٣٦-١١٤٩م) أثناء فترة الوصاية على الأميرالقاصر بوهمند الثالث، وتميز هذا النوع من الدنانير برسوم ونقوش مختلفة فكان هذا الدينار يحمل على أحد أوجهه صورة جانبية للأمير وخاصة الجزء الأعلى من الجسم، حاسر الرأس ، ويمكن القول إن هذا النوع من الدنانير تم ضربه إبان الحملة الصليبية الثانية، وذلك عندما وصل لويس السابع وزوجته إلى أنطاكية . والنوع الثانى من الدنانير الفضية التى وجدت فى أنطاكية تم ضربها فى عام ١١٦٣م ، وذلك عندما بلغ بوهمند الثالث سن الرشد ، وقوى نفوذه ، وكانت هذه الدنانير تحمل نقوشا عبارة عن صورة الأمير متجهة جهة الشمال ، وعليها خوذة ، بالإضافة إلى سلسلة مدرعة ، ووجود صليب على الخوذة ، ويحيط بالخوذة شعار الدولة ، وقد احتفظت هذه الدنانير بشكلها مدة طويلة خلال عهد بوهمند الرابع، وريموند روبن وبوهمند الخامس وبوهمند السادس، وكانت نسبة معدن الفضة فى دينار ريموند دى بواتييه تصل إلى ٦٠٪ وقد انخفضت هذه النسبة إلى ٣٥٪ - ٤٠٪ فى حالة نقود بوهمند الثالث[١].

ولاشك أن انخفاض قيمة العيار فى العملات الفضية فى أنطاكية ، يرجع فى المقام الأول إلى أسباب اقتصادية ، وقد انعكس هذا بتأثيره السلبى على حالة الأسواق فى أنطاكية أيضا.

وكان لإمارة طرابلس الصليبية أيضا عملتها الفضية الخاصة بها للتداول المحلى، ومنذ عهد برتراند (١١٠٩-١١١٢م) قام كونتات طرابلس بسك عملة فضية ، عرفت باسم القراطيس الفرنجية ، وكان قبل المجىء إلى الشرق العربى مع تغيير طفيف ، فعلى أوجه العملة نقشت صورة الصليب وعلى الوجه الآخر نقشت كلمة مدينة طرابلس[٢] Tripolis Civitas وعرفت هذه العملات فى المصادر العربية باسم القراطيس الفرنجية[٣] . وازداد تداول هذه القراطيس بين المسلمين فى بلاد الشام، وكانت إحدى النقود المتداولة فى أسواق طرابلس.

1- Ibid, pp. 32,33 .

2-Metcalf, Coinage of the Crusades., p. 46 ;

السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام، ص٢٠٥ .

٣- الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، (تحقيق د. السيد الباز العرينى ، القاهرة ، ١٩٤٦)، ص٧٥ .

أما ريموند الثانى (١١٣٧-١١٥٧م) فقد سك عملة فضية مماثلة ولكنه أضاف عبارة Tri-polis على الوجه ، بينما امتلأ الصليب المنقوش على ظهر العملة بدوائر متصلة صغيرة، وكانت عملات ريموند الثالث الفضية تتخذ الطابع التولوزى ، فكان على أحد وجهها نقش يمثل الشمس والهلال أى كان الدينار يحمل شعار القمر ويحيط به ثمانى من أشعة الشمس بواسطة دوائر صغيرة ، وهو طابع ظهر فى تولوز سنة ١١٤٨م، وهذا النوع يعرف بالطابع الريموندى[١]. وظهر هذا الطابع من النقوش على الدراهم الفضية فى طرابلس إلى أن ظهر نوع آخر من الدراهم وانصاف الدراهم المقلدة ذات الستة نجوم والتى كانت تقليدا لدرهم الظاهر غازى فى حلب، وقد ضرب هذا النوع من الدراهم المقلدة فى طرابلس ما بين أعوام[٢] ١٢١٧م . أو ١٢٢٣ أو إلى عام ١٢٤٠م، وفى عهد بوهمند السادس حاكم طرابلس (١٢٥٢-١٢٧٢م) ، ادخلت مجموعة كبيرة من الغروت[٣] Groat الفرنسية ، وقد سكت فى عام ١٢٦٦م .

وكانت النقود النحاسية من العملات المتداولة فى طرابلس فى الفترة الصليبية ، وكانت هذه النقود تحمل نقوشا مثل Moneta / Tripolis / Raimundi / Comitis ولذا يمكن ارجاع هذه العملات إلى فترة حكم ريموند الثانى، وكان بعض النقود النحاسية يكتب على أحد أوجهها اسم المدينة ورمز الصليب (+ Tripolis Civitas) وينقش على الوجه الآخر اسم الأمير وشكل الصليب Raimundus + كما كانت هناك نقود نحاسية تحمل على أحد وجهها صورة القلعة وكانت معاصرة للنقود الفضية التى تحمل نقش الشمس والهلال[٤]، والذى كانت تميز عملات مدينة طرابلس خلال الفترة الصليبية .

ولاشك أن النقود النحاسية فى طرابلس كانت تعتبر نقودا هزيلة ، استخدمت للتعامل فى السلع والبضائع المحلية رخيصة الثمن وذلك فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى،

1- Metcalf, Op. cit., pp. 44, 45 ; Holmest , Op. cit., p. 8;

السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص٢٠٥ ؛ عبد العزيز محمود عبد الدايم : إمارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، (ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة) ، ص١٨٦ .

2- Metcalf, Coinage of the Crusades., p. 44 .

3- Holmest, "Life Among the Europeans"., p. 8, Metcalf, Op. cit., pp. 44-46 .

4- Metcalf, Op. cit., pp. 44-46 ; Helmest, Op. cit., p. 8 .

وهكذا شهدت الأسواق الصليبية فى مدينة طرابلس أنواعا متعددة من النقود والعملات المتداولة مثل الدنانير الفضية وانصاف الدنانير ، والعملات المصنوعة من السبائك Billon والنقود النحاسية كما كانت الفروت وانصاف الفروت الفرنسية التى احضرها لويس التاسع فى عام ١٢٦٦م من العملات المتداولة فى طرابلس ، وكانت الفروت التى ضربت فى طرابلس تزن القطعة منها[١] (٢ , ٤- ٣ , ٤جرام) .

والواقع أن حق ضرب وسك العملات الصليبية كان احتكارا ملكيا ، ولكن بعد اضطراب السلطة المركزية وتدهورها فى عهد الملك بلدوين الرابع وخلفائه قام الأمراء الصليبيون والبارونات ذوو الطموح السياسى بضرب نقودهم الخاصة باماراتهم فى تحد واضح لسلطة الملك الصليبى وذلك لأنهم وجدوا أن قوانين الامتيازات فى المملكة الصليبية لم تعد توافقهم أو تلائم أوضاعهم ، فقد أصبحت ظروف المملكة فى تلك الفترة لاتلائم تطور الميول المركزية تطورا كاملا [٢]. وأصبح الامراء الصليبيون مستقلين تماما عن السلطة الملكية، وامتلك الكثير منهم حق سك نقود خاصة بهم، وآية ذلك ما قام به رينالد دى شاتيون «ارناط» حاكم الكرك (١١٧٧-١١٨٧م) الصليبى بسك نوع من العملات الذهبية تقليدا للدينار اليمنى الأيوبى، وكان هذا الاجراء يمثل تحديا سافرا لسلطة الملك المجذوم بلدوين الرابع، كما كان هذا الاجراء يفصح عن رغبة هذا الأمير الصليبى فى التوسع فى منطقة البحر الأحمر[٣].

واستطاع كونتات يافا وعسقلان ضرب عملات خاصة بهم، كما قامت بارونية بيروت وصيدا الواقعتان شمال المملكة الصليبية بسك عملات لها من وقت إلى آخر. وذلك فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى وأوائل القرن الثالث عشر الميلادى، فقد كان لمدينة صيدا تحت حكم ريجنالد (بعد عام ١١٨٧م) عملة خاصة بها تحمل شعار السهم المهيب على أحد أوجهها، وعلى الوجه الآخر للعملة كان ينقش اسم المدينة صيدا مكتوبا باللغة العربية أو الفرنسية Saiette ، ومن المحتمل أن عملات مدينة صيدا النحاسية المقلدة كانت مؤرخة قبل معركة حطين

1- Metcalf, Coinage of the Crusades., p. 44 .

٢- ميخائيل زابوروف : الصليبيون فى الشرق، ص١٤٧ ، رنسيمان: المرجع السابق ، جـ٣ ، ص٦١٩ .

3- Metcalf , Op. cit., p. 24 .

4- Prawer , The Latin Kingdom , p. 391 ; Holmest, Op. cit., p. 8 .

الشهيرة ١١٨٧م، وكانت هذه العملات تحمل اسم رينالد حاكم صيدا (١١٨٧ / ١٢٠٤م) واسم المدينة [١].

وكان لبيروت عملتها الخاصة وكانت عملتها الفضية تحمل على أحد أوجهها صورة القلعة ، وعلى الوجه الآخر اسم الأمير الصليبي يوحنا الأول ابيلين حاكم بيروت (١٢٠٠-١٢٠٥ - ١٢٣٦م) وكانت هناك عملات نحاسية تحمل اسم حنا ابيلين حاكم بيروت الصليبي، وثمة احتمال كبير فى أن تكون النقود البارونية قد سكت فى بيروت على ريموند أمير طرابلس أثناء وصايته على حاكم بيروت فى الفترة من عام ١١٨٤-١١٨٦م أو عندما كان نائبا للملك بلدوين الرابع وبلدوين الخامس [٢].

كما ظهرت عملات صليبية فى مدينة تورون فى عهد همفرى الثالث وفى مدينة صور فى عهد حاكمها فيليب دى مونتفرات ، وجون دى مونتفرات وعرفت كونيتة يافا الصليبية سك عملات خاصة بها ، وذلك فى عهد جواتييه دى بيرين بعد عام ١٢٠٥م[٣]. فقد ذكرت الاسيز من بين مجموعة الاقطاعيات والامتيازات حق سك النقود ، الذى تمتع به السادة الاقطاعيون فى مونتريال وطبرية وأرسوف وبانياس وبيسان ورام الله فقد كان لهؤلاء حق اصدار عملات خاصة بهم[٤]، ويمكن ملاحظة أنشعار الشمس كان يخص عملات طرابلس ، وزهرة اللوتس تميز عملة عكا، والسهم يميز عملات صيدا [٥].

ولاشك أن ما قام به البارونات الصليبيون من سك عملات خاصة بهم قد دعم مركزهم الاقتصادى والسياسى، وجنى هؤلاء البارونات المزيد من الأرباح من وراء هذه السياسة النقدية، فقد تنافست دور الضرب فى الامارات الاقطاعية مع دور الضرب الملكية فى ابراز المظهر البراق للعملة دون المنافسة فى نقائها وتعرضت هذه العملات للتزييف ونقص وزن المعدن وذلك أثناء الأزمات الاقتصادية والحروب التى مرت بها المملكة الصليبية ، مما أثر فى حركة

1- Metcalf, Coinage of the Crusades., p. 25 .

2- Loc. cit.

3- Ibid , p. 24 ; Prawer, Op. cit., p. 391 .

4- Holmest "Life Among The Europeans"., p. 8 .

5- Loc. cit .

الأسواق الصليبية فى هذه الإمارات ، كما أن سك الصليبيين عملات خاصة بهم يبلور النزعة الاستيطانية لدى الصليبيين ، ويمكن القول إن العملات النحاسية والبرونزية التى سكها الصليبيون فى بلاد الشام قد ساعدت على نمو حركة التجارة الداخلية ، كما ساعدت على رواج حركة الأسواق ونشاطها فى الإمارات الصليبية، إذ أن العملات والنقود الصغيرة تؤدى إلى ثبات واستقرار النظام النقدى، وذلك إذا ضربت هذه النقود بمحتوى معدنى مساو لقيمتها الاسمية، كما تعتبر هذه النقود الصغيرة أو الهزيلة عوامل مساعدة للنقود الكبيرة [1]. ولذا ساعدت النقود الصليبية الصغيرة على استقرار النظام النقدى إبان فترة الاستقرار السياسى والازدهار الاقتصادى التى عاشتها المملكة الصليبية قبل عام ١١٨٧م.

وهكذا عرفت الأسواق الصليبية فى بلاد الشام الكثير من أنواع العملات المتداولة البيزنطية والإسلامية والصليبية المقلدة ، كما تدفقت على هذه الأسواق العملات الذهبية الإيطالية والفضية أيضا وذلك منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، واحتلت هذه العملات مركز الصدارة فى التعامل التجارى العالمى، فقد ذكر أحد الرحالة الذين زاروا بلاد الشام أن الدوكات البندقى والدراخماه كانت احدى العملات المتداولة فى أسواق بلاد الشام، وقد ذكر هذا الرحالة [2]، أن ١٢ دراخماه كانت تساوى نصف دوكات أى أن (الدوكات = ٢٤ دراخماه) ، وقد تراكمت أعداد كبيرة من النقود المتداولة فى المناطق الصليبية، وازدادت السيولة النقدية نتيجة النشاط التجارى فى الأسواق الصليبية فى بلاد الشام، مما خلق نشاطا مصرفيا ماليا فى هذه الأسواق، وذلك لمواجهة احتياجات رواد هذه الأسواق المالية، والمتعلقة بتغيير العملات واستبدالها وهذا يوضح لنا ، أهمية عمل الصيارفة فى المدن التجارية الصليبية.

يعتبر النشاط المالى للصيارفة من الأمور الهامة والضرورية لحركة التجارة والأسواق فى العصور الوسطى، فقد كان الصيارفة يقومون باستبدال العملات وتغييرها لأرباب السوق من الغرباء والأجانب الذين يترددون إليها للبيع والشراء، وذلك ابان فترات ازدهار النشاط

1- Cipella, Money , Prices and Civilzation in Mediterranean Warld, Fifth to Seventh Century, Prencton, 1926. pp. 27-30 .

2- Broquiere , The Travels of Bertranden la Broquiere, A.D. 1432-1433, Eng, by Thomas wright, London, 1884. p. 299 .

التجارى العالمى ، فعندما نشطت التجارة فى الدولة الإسلامية خلال القرن الرابع الهجرى، وازدادت المعاملات المالية، وأصبح التعامل بالمبالغ الكبيرة محفوفا بالمخاطر ، ولاسيما حالة نقلها من بلد إلى آخر، ولجأ التجار إلى استعمال السفاتج[١] أو الحوالات ، وهى رقاع يكتبها لهم الصيارفة (الذين كانوا يعرفون فى الدولة الإسلامية باسم الجهابذة) بقيمة المبالغ التى يأخذون منهم، قابلة للصرف فى أى بلد من عملاتهم، وقد قام الجهابذة والصرافون فى ذلك العصر مقام البنوك، كما كانت الصفقات المالية بين المراكز التجارية مثل القاهرة وبغداد تتم تحت إشراف هؤلاء الصيارفة[٢].

وهكذا تطورت أعمال البنوك والأموال الائتمانية فى الشرق العربى الإسلامى فى القرن العاشر الميلادى، ووصلت إلى مرحلة متقدمة لم تصل إليها الإمبراطورية البيزنطية أو الغرب الأوربى، فقد ازداد التوسع التجارى الإسلامى، ونهض بصورة اسرع من أى وقت مضى [٣].

وكان الصيارفة النواة الأولى للنظام المصرفى الرأسمالى ، ذلك الصراف فى العصور الوسطى كان يحتفظ عادة بصندوق قوى متين يضع فيها نقوده، وكان يعرض كومة كبيرة من النقود على منضدته الطويلة طوال النهار لاستقبال الودائع من الأفراد، أو تقديم القروض بفائدة.

وكان الصراف فى النظام المالى الإسلامى يحتفظ بالودائع المالية لديه مقابل الحصول على عمولة وكانت هذه العمولة تقدر بدرهم عن كل دينار، أى عمولة بواقع ٦,٦٦٪ من قيمة الودائع ، كما كان الصراف أيضا يقرض الحكومة المال مقابل فائدة تقدر بنسبة ٢٥٪ من قيمة الديون[٥]. وكان الصراف يستثمر باقى الودائع فى التجارة، أى أن عمل الصراف ارتبط أساسا بالتجارة وتقديم القروض بفائدة.

١- السفاتج : جمع سفتجة ، وهى كلمة فارسية معربة معناها ورقة مالية أو خطاب أمان (جمال الدين سرور : الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص١٦٣).

٢- جمال الدين سرور : المرجع السابق، ص١٦٢ ، ١٦٣ .

3- Lepez " The Trade of Medieval Europe"., p. 286; The Dollar of Middle Ages, London , 1978 . p. 431 .

4- Lopez, " The Commercial Revolution" ., p. 78 ; Thompson , op. cit., p. 298 .

5- Lopez : The Trade of Medieval Europe" .,p. 286 .

وقد تشابهت وظيفة الصراف المالية فى كل من الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوربى من حيث قيامه باستبدال العملات وتغييرها ، ومزاولة التجارة وقبول الودائع ، ثم اعطاء المودعين حوالات أو صكوك مدون بها قيمة مبالغهم المودعة. وهكذا تطورت التنظيمات المصرفية وأعمال البنوك لمواجهة التطور الهائل فى التجارة العالمية. وقامت المدن التجارية الإيطالية بدور هام فى هذا المضمار ولاسيما إبان فترة الوجود الصليبى فى منطقة الشرق العربى حيث ازداد النشاط التجارى لهذه المدن. وكانت المصارف التى تأسست فى المدن الإيطالية مصارف تجارية. اقتصرت مهمتها بشكل رئيسى منذ نهاية القرن الثانى عشر الميلادى على قبول الودائع النقدية Deposits من جمهور التجار الذين يخشون على اموالهم من السرقة خلال رحلاتهم الطويلة. وكان التجار يتسلمون شهادات بودائعهم من حقهم سحبها فى أى وقت[١].

واتسعت النشاطات المصرفية فى المدن التجارية الإيطالية وذلك فى مستهل القرن الثالث عشر الميلادى. فأقامت المصارف الإيطالية فروعا لها فى المراكز والأسواق التجارية العالمية فى الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوربى على السواء[٢]. وكان أبرز النشاطات المالية للمصارف الإيطالية فى القرن الثالث عشر الميلادى هو تحويل الودائع التى بحوزتها من أموالخاملة إلى أموال نشطة واعطاء القروض مقابل نسبة معينة من الفوائد ، وهكذا تحول الصيارفة إلى مقرضين [٣]. وقد استثمرت هذه الفروض فى مشاريع تجارية. وخاصة فى منطقة ما وراء البحر وقد ارتبط بالتطورات المصرفية استخدام الحوالة The of Exehange أو كما يسميها الايطاليون Cambiale وهى تعنى سندا أو صكا ينطوى على أمر Order من شخص أو مصرف إلى شخص آخر أو مصرف فى مدينة أخرى [٤]. وقد استخدمت هذه الحوالات أو الصكوك فى ايطاليا وذلك لتجنب مخاطر نقل المعادن النفيسة كالذهب والفضة [٥]. وهكذا

1- Heaton, Economic History of Europe , New York , 1948. p. 177, 178 .

2- Larner , John., Italy in the Age of Dante and Petrarch, 1216-1280, New York , 1930. p. 187 .

3- Bounds, N.J. G, An Economic History of Medieval Europe, London, 1974, p. 409 .

4- Thompson, Op. cit., p. 298 ;

سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى، (الانجلو المصرية ، ١٩٧٥) جـ٢، ص٣٢٠ ، ٣٢٦ .

تطلبت الظروف المالية الجديدة تداولا أسرع وأعظم للعملة فابتكرت طريقة الأوراق المالية بتقييد ما للعمل من حساب فى المصارف Credit Notes وتأسست البيوت المالية فى جنوا وبيزا والبندقية، وانتشرت فروعها وأعمالها فى شرق البحر المتوسط ، مما أعطى دفعة قوية للتجارة العالمية وازدهر النشاط التجارى العالمى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد .

ولاشك أن أعمال الصيرفة وأقراض المال، كانت من الأمور الهامة للتجارة والأسواق، فقد كان غياب التاجر المؤقت يؤثر بدرجة كبيرة على نشاط الصيارفة، وكانت الأعمال التجارية فى أسواق مصر وعكا تقوم على البيع بالأجل [١]، ولهذا وجد صيارفة من بلاد الشام، ومن الشركات التجارية الإيطالية، ومن المنظمات الديرية اللاتين فى الأسواق الصليبية قاموا بتسهيل أعمال تحويل المبالغ المالية إلى أوربا، كما كان التجار يحضرون معهم صكوكا ، أو مبالغ نقدية من نوع واحد من النقود لكى يستبدلوها بنقود وعملات أخرى[٢].

وقد باتت الضرورى وجود مثل هؤلاء الصيارفة فى الأسواق الصليبية لتيسير التعامل التجارى ، ولتدفق أنواع مختلفة من العملات العالمية إلى هذه المنطقة ، فقد كان فى جميع المدن الكبرى فى بلاد الشام فى الفترة الصليبية تقريبا شارع أو منطقة مخصصة للصرافين بالقرب من الأسواق، وكانت الصيرفة مهنة ترتبط بالمدن، إلا أنها فى الأرض المقدسة حيث الأسواق الصليبية، كانت ضرورة يومية بسبب ميل الصليبيين والحجاج والتجار الوافدين من شتى أنحاء أوربا [٣].

وفى المصرف بطاولاته التى اتخذت شكل الصف، كان يتم تبادل العملات الأوربية بالعملة المحلية، والتعامل بمختلف النقود وأصنافها المتعددة ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الصيارفة كان عليهم أن يتعاملوا بالعملات الموجودة فى منطقة الشرق العربى الإسلامى إلى جانب عملات أوربا وكانت عملية تبادل العملات الإسلامية والفرنجية تحدث يوميا، كما كان الصيرفى الصليبى بمثابة الوسيط بين العملات الأوربية وغير الأوربية [٤].

١- جعفر بن على الدمشقى : الاشارة إلى محاسن التجارة، ص٦٠ .

2- Smith, Nobility., pp. 80,81 ; Heaton, Op. cit., pp. 177,178.

٣- براور : عالم الصليبين، ص٢٢٣ ، ٢٢٤ ؛ Prawer, The Latin kingdom, pp. 384, 410 .

٤- نفس المرجع والصفحة .

وعرف الصيارفة فى الأسواق الصليبية التخصص ، فقد كان فى بيت المقدس صيارفة فرنجة يحتلون الجهة الشمالية من شارع السوق بينما كان الصيارفة الشوام يحتلون الجهة الجنوبية من هذا الشارع الفرنجة كانوا يحتلون مكان خان الزيت وهو المبنى ذات الخمسة مخارج، والذى ترجع نشأته إلى الأصل البيزنطى وقد أصبح هذا المبنى الآن اطلالا وحطاما على أثر حريق دمره تماما وكان المكان الذى يشغله هؤلاء الصيارفة عبارة عن مبنى مسقوف يقع عند تقاطع شارع داود وشارع السلسلة(٢).

وبالإضافة إلى الايطاليين فإن الطوائف الدينية العسكرية (الداوية والاسبتارية) ببلاد الشام قد مارست الأعمال المالية كالصيرفة والاقراض بالفوائد إلى جانب نشاطهم الحربى ضد المسلمين وأصبح الداوية من أكبر الهيئات المصرفية فى العالم فى القرن الثالث عشر الميلادى ، بسبب طبيعتهم العالمية وانتشارهم الواسع فى كل أوربا والشرق(٣).

ويرجع تأسيس مؤسسة فرسان الداوية إلى قيام أحد الفرسان النبلاء من مقاطعة شامبانى وكان يدعى هيودى باينز Haugia De Sante Omer بتكوين مجموعة من الفرسان الاتقياء يعيشون حياة الزهد، وقد وهبوا أعمالهم فى سبيل الرب وقد أخذت هذه المجموعة من الفرسان على نفسها عهدا للقيام بمهمة حماية الحجاج المسيحيين الذاهبين إلى بيت المقدس وذلك من اخطار اللصوص وقطاع الطرق، وقد أغدق الملك بلدوين الأول عليهم الهبات والنعم ، واعد لهم مسكنا فى قصره فى الجهة الشمالية من هيكل سليمان (المسجد الأقصى) ، ولذا استمدوا اسمهم من اسم المعبد ، وسموا فرسان المعبد Templars أو الهيكلين ، وفى المجمع الكنسى الذى عقد فى تروا بفرنسا عام ١١٢٨م، والذى حضره البابا هونوريوس وستيفن بطريرك مدينة القدس تم اقرار نشاط هيئة الداوية، وحدد لون الملابس التى يرتديها هؤلاء الفرسان ، وخصص

1- Anonymous , " The City of Jerusalem" ., pp. 17 , 18 ; Prawer, The latin kingdom ., p.p. 384, 410 ; Benvenisti, Op. cit., p. 56 .

2- Benvenisti, Op. cit., p. 56 .

٣- عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، (تجارية ، ثقافية ، صليبية) ترجمة د. فيليب صابر، ط١ ، دار الثقافة المسيحية، القاهرة ١٩٧٢م، ص١٧١ .

Sidncy- Painter, A History of Middle Ages, New York, 1954 , p. 236 .

لهم اللون الأبيض والشارات الحمراء. كما اعطاهم البابا سلطة الحكم الذاتى[١]. ثم تطورت مسئوليات هذه الجماعة بعد قليل من المهمة الدينية إلى مهمة ومسئوليات عسكرية ، وأصبح نظاما عسكريا قويا ساهم بقدر كبير فى تقوية الكيان الصليبى عسكريا فى مواجهة القوى الإسلامية المجاورة [٢].

ونظرا للدور العسكرى والحربى الذى اضطلع به فرسان الداوية فى مملكة بيت المقدس الصليبية والذى ساعد فى تقوية الوجود الصليبى فى المنطقة العربية، فإن هيئة الداوية هذه ازداد نفوذها السياسى والاقتصادى فى المملكة، وأصبح للداوية ممتلكات عديدة فى معظم المدن والقرى الصليبية فى بلاد من اراض زراعية وقلاع زودوها بالحاميات العسكرية، وهكذا تزايدت ثرواتهم واملاكهم فى المملكة الصليبية[٣].

وقد أشار بعض المؤرخين المعاصرين والرحالة إلى الموارد المالية الأخرى التى كان يتلقاها فرسان الداوية من معظم الاقطار الأوربية فى هيئة هبات وهدايا وصدقات [٤]. ونظرا لازدياد هذه الأموال التى تدفقت إلى هيئة الداوية من جميع الانحاء، فإن وظيفتها قد تحولت من دينية وعسكرية إلى وظيفة ومهمة مالية. فقد تألقوا فى مجال المال والبنوك فى المدن الصليبية[٥]، وأصبح الداوية صيارفة أوربا الكبار فى القرن الثانى عشر الميلادى، يتنافسون مع البيوت المالية فى ايطاليا بل ومع اللومبارديين Cahorsins, Lombards أشهر مرابيى العصور الوسطى[٦].

وعندما ازداد النشاط التجارى فى منطقة الشرق العربى الإسلامى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد ، انتشرت البيوتات المالية فى أوربا وخاصة فى ايطاليا وانتشرت

1- William of Tyre, Op. cit., vol , I. pp. 525 ; De Vitry Op. cit., pp. 48-51 ; Prawer , The Latin Kingdom., pp. 256,257 .

2- Theoderich , Op. cit., p. 49 ; Burehard, Op. cit., p. 93 .

3- Theederich, Op. cit., pp. 30-32 ; Conder, The Latin Kingdom, p. 203 .

4- William of Tyre, Op. cit., vol, I. p. 526: Wurzvurg Op. cit., p. 21 .

5- De vitry, Op. cit., p. 48; Prawer, Op. cit., p. 263 .

٦- براور : عالم الصليبين ، ١٩٥ .

فروعها فى المنطقة العربية، وأصبح للمناطق الصليبية دور رائد فى هذا المجال وذلك بفضل ما قام به فرسان الداوية من نشاط مالى ومصرفى، فقد شارك الداوية فى أعمال مالية هامة مثل الايداع والتحويلات المالية والصيرفة وتغيير العملات واستبدالها فى الأسواق الصليبية، واصدار أوراق وأدوات القراض، وأخيرا اقراض المال بفائدة[1]. ولم ينته القرن الثانى عشر الميلادى حتى اضحى الداوية يمارسون بانتظام عملية الأموال، وتقاضوا عن ذلك فوائد باهظة، وذاع صيتهم فى هذا المجال لدرجة جعلت المسلمين يولونهم الثقة، ويفيدون من خدماتهم [2]، ولم يقتصر النشاط المالى للداوية فى المدن الصليبية فحسب بل تعدى هذا النشاط حدود المملكة الصليبية إلى أوربا، وبحلول القرن الثالث الميلادى أصبح الداوية من أشهر المستشارين الماليين للملوك فى أوربا الغربية ، ومستشارين ماليين للبابوية ، وانتشر نشاطهم المالى فى كل انحاء أوربا الغربية، وقاموا بدور نشط فى تجارة المرور بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى [3]. كما قام الداوية باقراض قادة الحملة الصليبية المال، وذلك اثناء الحملة الصليبية الثانية، حيث اعطى الداوية للملك لويس السابع قرضا أثناء حملته الصليبية [4]. وقد تحولت بيوت فرسان الداوية فى باريس ولندن وفى مدن فرنسا الجنوبية إلى مراكز أصيلة للعمليات المالية، وكان الباباوات أنفسهم يستفيدون تماما من خدمات الداوية النقدية، فقد كانوا يعهدون إليهم بوصفهم مصرفيين بحفظ ودفع النقود التى يجمعها عملاء البابا لأجل الحملات الصليبية، وتقديم القروض للأمراء الذين يتجهزون للسفر الى فلسطين ومن الطريق أن الداوية اخترعوا وطبقوا نظاما معقدا لأعمال الكتابة المالية ، فقد نظموا سجلات المحاسبة ، ووضعوا وثائق حساب الداخل والخارج[5] (امساك الدفاتر) .

1- Heaton , Economic History of Europe., p. 178 ; Prawer, Op. cit., p. 263 ;

زابوروف : الصليبيون فى الشرق ، ص١٦٦ .

٢- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣، ص٦١٩ ، ٦٢٠ ؛ عبد العزيز محمود عبد الدايم : امارة طرابلس الصليبية، ١٨٧ .

3- Prawer, The Latin kinhdom., p. 263, Heaton, Economic History of Europe., p. 178 .

٤- ميخائيل زابوروف : الصليبيون فى الشرق؛ ص١٦٦ . Prawer, Op. cit., p. 263

٥- نفس المرجع والصفحة .

وهكذا أخذ الفرسان الداوية يستعملون الصكوك والحوالات المالية ويتسلمون النقود المودعة، ويعيرون النقود بالربا وأصبح هؤلاء الفرسان من أشهر رجال المال والبنوك ، وذلك بحلول الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادى[١]، وتركز النشاط المالى والمصرفى للداوية فى القرن الثالث عشر الميلادى فى مدينة عكا، حيث قاموا بأعمال الصيرفة فى الأسواق الصليبية إلى جانب الصيارفة الايطالية والشوام ، كما قاموا بمهمة البنوك فى تقبل الودائع المالية وقد تعرض جوانفيل مؤرخ سيرة الملك لويس التاسع ملك فرنسا لبعض المضايقات من الداوية ، وذلك عندما انكر المشرف المالى لبيت الداوية فى مدينة عكا المبلغ الذى انكر المشرف المالى لبيت الداوية فى مدينة عكا المبلغ الذى قد أودعه جوانفيل امانه عنده. وعلى الرغم من أن جوانفيل قد حصل على مستحقاته بعد أن رفع شكواه إلى مقدم الداوية، إلا أن هذه الحادثة توضح بجلاء مدى اهتماماالداوية بالأعمال المالية وولعهم بحب المال واكتنازه [٢].

وعلى الرغم من أن النشاط المالى والمصرفى للداوية قد افاد حركة الأسواق الصليبية، وزاد من رواجها بسبب ما قدمه الصيارفة الداوية من خدمات مالية لتجار هذه الأسواق من تغيير العملات واستبدالها بالعملات المحلية، وما جناه الداوية من أموال طائلة نتيجة هذا النشاط المالى ، إلا أن هذه الثروات المالية الطائلة التى جناها الداوية لم تفد الكيان الصليبى ولم تدعم قوته الاقتصادية وذلك بسبب الجشع المالى لهؤلاء الفرسان، الأمر الذى أدى إلى نشوب الخلافات بين الداوية والاسبتارية والذى شهدته مدينة عكا فى اعدام ١٢٤١م، ١٢٤٣م، كما ذكر لنا المؤرخ متى الباريسى [٣]. وكانت هذه الاضطرابات اليومية بين هاتين المؤسستين من شأنها الحاق الضرر بالأسواق الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى، ولاسيما ابان مرحلة الضعف التى شهدتها المملكة الصليبية فى عمرها الثانى .

وعلى أية حال فإن حركة البيع والشراء فى الأسواق الصليبية تحدث وفق مسائل مالية هامة، أهمها الضرائب والعملات والنشاط المالى للصيارفة ، وقد كانت هذه النظم المالية افرازا طبيعيا لطبيعة الوجود الصليبى المتغلغل والذى لم يعتمد بنائه على أساس اقتصادى متين، مما انعكس أثره على حركة الأسواق الصليبية خلال فترات الضعف الصليبى.

1- Larner, Op. cit., 187 .

٢- جوانفيل : القديس لويس ، ص١٧٥-١٧٧ .

3- Mathew Paris, Englich History . Eng . by The Rov. J.A. Giles, London, 1852, vol . I. pp. 386, 387, 456 .

الفصل الرابع

السلطة الإدارية والأسواق

- أهمية ادارة الأسواق - أجهزة الرقابة فى الأسواق الإسلامية - أجهزة الرقابة فى الأسواق الصليبية ومدى تأثرها بالنظام الإسلامى (المحتسب والعرفاء ورجال الشرطة) - القانون والأسواق، (المحكمة البرجوازية- محكمة الفندق أو السوق محكمة السلسلة أو الميناء) - الأسواق وحالة الأمن وتأثير الأوضاع السياسية على الأسواق الصليبية

كان تدخل السلطات الصليبية فى تنظيم حركة الأسواق وادارتها أمرا ضروريا ، فقد أكد هذا التدخل السيطرة الملكية الصليبية على المناطق العربية المحتلة فى بلاد الشام وفلسطين ، كما كان هذا التدخل أيضا يضمن ولاء التجار للملكة الصليبية ومن ثم يضمن ايرادا ماليا ثابتا من متحصلات هذه الأسواق من ضرائب ورسوم جمركية ، والتى كانت مصدرا هاما من مصادر الدخل المالى للملكة الصليبية فى بيت المقدس، وللأمراء الصليبيين فى اماراتهم ، فى الرها فى انطاكية وطرابلس [١]، وهكذا اقتضت الضرورة قيام السلطات الصليبية بالإشراف على الأسواق ، وتنظيم العمل بها ، وتوفير الأمن داخلها من خلال جهاز ادارى خصص لهذا الغرض ، وقد استفاد الصليبيون من النظم الإسلامية الإدارية والقانونية الخاصة بالإشراف على النواحى الاقتصادية ، والتى كانت متبعة فى بلاد الشام قبل الوجود الصليبى [٢]. ولاسيما النظم الخاصة بادارة الأسواق والرقابة عليها .

وعلى أية حال فإن النظم الإدارية والقانونية للصليبيين كانت تقليدا للنظم الإسلامية واقتباسا منها ، ففى الأقطار الإسلامية، كانت العدالة تقام فى خمس ساحات للقضاء، فكان هناك القاضى الذى يفصل فى القضايا العادية المألوفة، والحاكم الذى كان مختصا بالفصل

١- انظر الفصل الثالث من البحث من ص١١٧- ١٢٠ .

2- Smith, Nobility., pp. 87 , 88 ; Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem., p. 410 .

فى القضايا التى تفوق اختصاصات القاضى والشرطة المسئولة عن القضايا الجنائية ، والحسبة[١]، المسئولة عن الفصل فى القضايا التجارية المتعلقة بالموازين والمكاييل والمبيعات المغشوشة واقرار العدالة بين التجار فى الأسواق، وكانت هناك المحاكم الذمية لغير المسلمين من اليهود والنصارى. وثمة روابط بين هذه النظم الإسلامية وبين النظم الفرنجية الجديدة التى طبقها الصليبيون فى بلاد الشام فقد كان سادة المدن الصليبية يقومون بمهمات القضاة فى النظام الإسلامى كما كان الفيكونت (نائب الملك أو الكونت) ورجال الشرطة أو الرقباء يقومون بمهام صاحب الشرطة ورجاله فى اقرار الأمن فى المدينة كما كانت محكمة الفندق والمحكمة البرجوازية تقوم بمهام الحسبة فى النظام الإسلامى والذى كان يعرف صاحبه باسم المحتسب [٢].

والواقع أن الصليبيين قلدوا ما كان متبعا فى تنظيم الأسواق وادارتها فى المدن الإسلامية المجاورة مثل أسواق دمشق وحلب والقاهرة وغيرها من أسواق المدن الإسلامية الأخرى[٣]. وذلك فيما يتعلق بأمور شتى منها مراقبة الأسواق وتحصيل الضرائب المستحقة على المبيعات فى هذه الأسواق، وفض المشاجرات ، والفصل فى القضايا التى تقوم بين التجار، وحفظ الأمن، وسوف نستعرض المؤسسات القضائية الصليبية التى قامت بنفس الدور الذى قامت به الحسبة فى الدولة الإسلامية ، وذلك فيما يتعلق بالإشراف على النواحى الاقتصادية ، وضبط الأمور التجارية فى الأسواق .

كانت المؤسسات القضائية فى مملكة بيت المقدس الصليبية انعكاسا للأفكار الاقطاعية الأوربية من حيث الاعراف والتقاليد والاهتمامات[٤] مع أن هذا الانعكاس لم يكن واضحا

١- الحسبة نظام إسلامى للإشراف على المرافق العامة ومصالح المجتمع ، وهى وظيفة دينية شبه قضائية تقوم على فكرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وموضوعها التحدث على أرباب المعايش والصنائع والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح فى معيشته وصناعة (القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١١، ص٢٠٩ ، ابن الأخوة معالم القربة (عنى بنقله وتصحيحه روبن ليوى، دار الفنون بكمبردج، ١٩٣٧) ، ص٧ ، الماوردى ، الاحكام السلطانية ، (دار الفكر ، ط١ ، ١٩٨٣م، ص٢٠٨) .

2- Smith, Nobility.. pp. 88,89 .

٣- السيد الباز العرينى : الحضارة والنظم الأوربية فى العصور الوسطى ، ص١٢٤، ١٢٥ .

4- "Assises de Jerusalem " Tome, I, (Intreduction).

دائما بشكل مباشر[١] . بسبب المتغيرات الجديدة التى أحدثها الوجود الصليبى فى المنطقة العربية فقد قامت ببيت المقدس محكمتان مركزيتان هما ، المحكمة العليا الخاصة بالنبلاء برئاسة الملك الصليبى ،والمحكمة الوطنية التى كانت تعرف باسم المحكمة البرجوازية لسائر الفرنجة الأحرار وهى المحكمة التى انتقل مقرها إلى ضاحية مونت مزارد فى مدينة عكا فى عام ١١٨٧م[٢]، وذلك بعد استرداد المسلمين مدينة بيت المقدس.

ومما يذكر أن مصطلح «المحكمة البرجوازية» ظهر لأول مرة فى وثيقة يرجع تاريخها إلى عام ١١٤٩م فى مدينة القدس، وتبعها فى انطاكية فى عام ١١٦٦م ، ثم فى قيسارية فى عام ١١٦٧م[٣].

وعلى أية حال فإن بعض الباحثين يرى أن وجود المحاكم البرجوازية فى المملكة الصليبية يرجع إلى فترة باكرة من الوجود الصليبى، وعلى الأخص فى نهاية الربع الأول من القرن الثانى عشر الميلادى[٤]. وهى الفترة التى شهدت تدفق اعداد كبيرة من طبقة البرجوازية الفرنجية إلى المناطق الصليبية. ومن الملاحظ أن جان دى ايلين قد احصى سبعة وثلاثين محكمة برجوازية إلى هذا العدد ، وإذا ما أضفنا عدد الأماكن الأخرى التى سكنها البرجوازية الفرنجية ، فإن عدد المحاكم سوف يصل إلى خمسين محكمة فى أنحاء المملكة الصليبية وذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى[٥] .

وكانت المحاكم البرجوازية توجد فى امارة انطاكية الصليبية فى ثلاثة أماكن هى مدينة انطاكية، وجبلة واللاذقية ،كما اقيمت محاكم برجوازية فى امارة طرابلس الصليبية وخاصة فى

1- Helmest , "Life Among The European., " CF. Setton, vol, IV, p. 27 .

2- "Assises de Jerusalem" ., Tom, II, Passim;

باركر : الحروب الصليبية (ترجمة د. السيد الباز العرينى، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط٢، ١٩٦٧م)، ص٥٨ ، ٥٩ .

3- Prawer , "Social Classes in the Latin Kingdom " ., CF. Setton, vol , V, p. 158 .

4- Ibid., p. 164 .

5- Loc. cit.

مدينة طرابلس والرقة ورفنية ، وفي شطر من اللاذقية الذي كان تابعا لإمارة طرابلس[١] ومن المحتمل في طرطوسة والرقة وجبيل [٢]. وقد مارست هذه المحاكم نشاطها القضائي في المدن الصليبية في بلاد الشام وقامت بتنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في هذه المدن.

ومما يذكر أن المحكمة البرجوازية في عكا كانت تتألف من اثني عشر عضوا أو محلفا من الافرنج[٣] ، وكان هؤلاء الاعضاء يتم اختيارهم من اثرياء البرجوازية ذوي الأهمية والمكانة الاجتماعية الراقية بين سكان المدينة، ولذا لم يتقاض أعضاء المحكمة أية مرتبات [٤]. وعند تعيين عضو المحكمة كان عليه أن يؤدي القسم الخاص بالتعيين والذي كان يتضمن فقرات خاصة باحترام قوانين المحكمة ومراعاة الضمير في اقرار العدالة وعدم افشاء أسرار المحكمة[٥].

ويرأس هذه المحكمة موظف يعرف بالفيكونت (نائب الملك أو الكنت وكان سيد المدينة هو الذي يقوم بتعيين رئيس المحكمة البرجوازية «الفيكونت» وذلك بعد موافقة شكلية من أفراد الطبقة البرجوازية، وقد تم اختيار بعض الفيكونتات من ابناء البرجوازية ، والبعض الآخر من الفرسان الذين لم يحصلوا على اقطاعات وراثية [٦]. وهذا يوضح بجلاء مدى أهمية البرجوازية في خدمة السلطة الملكية ، فقد عملت البرجوازية في خدمة محكمة البطريرك كقضاة [٧].

1- Prawer, " Social Classes in the Latin Kingdom"., p. 164 ; Richard, " The Political and Ecelesiastical Organization" ., CF Setton, vol, V, p. 223 .

2- Prawer , Op. cit., p. 164 .

3- Beugnet , " Livre des Assises des Bourgeoise" ., pp. 51-52 .

4- Ibid , p. 52 ; Richard, Op. cit., pp. 185-89 .

5- "Livre des Assises des Bourheoise"., pp.49, 50 , 239 .

6- Cahen La Syrie du Nord., pp. 456, 7 ; Richard., Op. cit., p. 222; Prawer, Op. cit. pp. 185 , 9 .

7- Prawer, " Social Classes in the Latin Kingdom"., pp. 185 , 9 .

وقد تمتعت المحكمة البرجوازية بسلطات واسعة ونفوذ قوى فى المدينة، وكانت تعقد جلساتها لمباشرة القضاء بين المتخاصمين ثلاثة أيام فى الأسبوع ، هى أيام الاثنين والأربعاء والجمعة ، وتتعطل جلساتها فى أيام الأعياد والمواسم[1]. وقد استخدمت هذه المحكمة اجراءات خاصة وقوانين واعراف ترجع أصولها إلى المؤثرات الجرمانية [2]، وذلك فيما يتعلق باقامة البينة وهو التراث الذى ورثه الأوربيون فى العصور الوسطى وطبقه الصليبيون فى المنطقة العربية ابان فترة وجودهم . وكان من اختصاصات المحكمة البرجوازية النظر فى كل ما يجرى بين أهل المدن من المعاملات والعود وامتد سلطانها إلى الفصل فى القضايا الجنائية المتعلقة بأهل المدن من البرجوازية ، وكذلك تبليغ أوامر الحكومة للأفراد وذلك بواسطة منادى المدينة الذى كان يرتقى حجرا خاصا ليعلن هذه القوانين على المواطنين المتجمعين ، وهى القوانين والأوامر الخاصة بشئون الدفاع عن المدينة ، والتعبئة العامة، أو القرارات الخاصة بأمور الحرب، وحظر التجوال، وتحديد أسعار السلع والبضائع فى الأسواق مثل الحبوب والخمور والزيوت واللحم والسمك والفاكهة ، والتوابل والبهارات [3]. كما كان لهذه المحكمة حق الإشراف على المبيعات ، والفصل فى القضايا التى تقوم بين التجار فى الأسواق وتحصيل الإيجارات المحددة وغير المحددة والمستحقة على ملاك العقارات وأصحاب الدكاكين والضرائب المفروضة على التجار[4]، وكذلك فى القضايا المتعلقة بالمواريث والممتلكات التى تنتقل من شخص إلى آخر عن طريق الميراث، والإشراف على عملية تقسيم المواريث الحشرية، والتنظيمات الخاصة بالزواج، والإشراف على نقل الاقطاعات ، ومنح الحرية للعبيد والأسرى،

1- " Abrege des Assises des Beurgeoise".,p. 239 ; Rey, Les Colonies, Franques., pp. 58, 59 ; Mayer, The The Crusades., p. 171 .

٢- عن النظم الجرمانية القضائية ، وكيفية المحاكمة عن طريق الماء والنار انظر : نورمان كانتور : تاريخ العصور الوسطى: قصة حياة حضارة ونهايتها، (ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ط١ ، دار المعارف ، ١٩٧٧م)، جـ١ ، ص٢١٢ ، ٢١٣ .

3- " Abrege des Assises des Bourgeoise "., p. 250; Prawer , " Social Classes in the Latin kingdom"., p. 158 ,

براور : عالم الصليبيين، ص١٣٦ .

4- Holmest, Life Among the Europeon., p. 24 .

والفصل فى القضايا الجنائية الخاصة بأهل المدن[1]. فقد كان لهذه المحكمة وظيفة مالية وقضائية معا .

وكانت المحكمة البرجوازية أيضا بمثابة مكتب لتسجيل العقارات والممتلكات ، ولهذا السبب كان لديها سجل خاص بها منذ عام ١٢٥٠م، كما كانت تتقاضى اتعابا مقابل القيام بعمليات التسجيل والتوثيق ، ففى القرن الثالث عشر الميلادى كانت المحكمة البرجوازية فى عكا وصور تتقاضى مبلغا يقدر بمارك واحد من البائع وثلاث بيزنتات من المشترى كما كان مسجل العقود فى محكمة البنادقة فى صور يتقاضى ربع بيزنت من البائع والمشترى [2]، وبالإضافة إلى هذه الاختصاصات فقد كانت المحكمة البرجوازية بمثابة محكمة استئناف المحكمة السوق ومحكمة السلسلة ذات الطابع التجارى[3]، والتى سوف نتناولها .

وإذا كانت اختصاصات المحكمة البرجوازية تشمل تنظيم الحياة الاقتصادية والقضائية لسكان المدن من الصليبى فإنه ينبغى علينا معرفة الجهاز الإدارى لهذه المحكمة، ودور هذا الجهاز فى تنظيم حركة الأسواق والإشراف عليها وضبط الأمور التجارية بها.

كان الفيكونت يمثل قمة السلطة التنفيذية لهذه المحكمة ، فهو رئيس المحكمة ، ويمثل سلطة الملك أو الكونت فى المدينة، وقد كانت له سلطة الإشراف العام على أسواق المدينة من حيث تنظيف الشوارع والاشراف على الموازين والمكاييل والمقاييس ، والحركة التجارية فى السوق والاشراف على الحرفيين ، كما كان الفيكونت مسئولا عن حفظ الأمن فى المدينة مسئولية تامة ، فكان يطوف بشوارع المدينة ليلا فى شكل دوريات شرطية للقبض على الاشقياء والمجرمين [4].

1- "Abrege des Assises des Bourgeoise" pp. 241-243, 251, 2 ; Smith , Nobility., p. 86; Holmest, " Life Among the Europeans" p. 27 ; Benvenisti ., Op. cit., p. 28 .

2- "Livre des Assies des Bourgeois"., p. 66; Mayer, The Crusades., p. 171; Smith, Nobility., p. 86 .

3- Mayer , Op. cit., p. 171 .

4- "Abrege des Assises des Bourgeoise "., pp. 241, 43, Rey, Les Colonies Franques., p. Benvenisti., Op. cit., p. 28 ;

رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص٤٨٨ .

وبالإضافة إلى هذه المهام والمسئوليات ، كان الفيكونت يقوم بتحصيل الايجارات والضرائب المستحقة على المواطنين وارسال هذه الضرائب إلى خزانة الملك والكونت كل ثلاثة أشهر[١]. وذلك بعد أن يستقطع راتبه الشهرى وقدره اثنا عشر بيزنتا ، بالإضافة إلى بعض الأجور الأخرى نظير اشرافه على عمليات بيع هبات الميراث كما كان له جزء من متحصلات البيع[٢]. ويتضح من هذه المهام المتعددة للفيكونت أنه كان مسئولا عن كافة أشكال الحياة اليومية فى المدينة ولاسيط نواحى الحياةالاقتصادية لأهل المدن .

وكان الفيكونت يساعده بعض الموظفين التابعين له، وكان المحتسب[٣] أهم هؤلاء الموظفين على الاطلاق، وقد احتفظت هذه الوظيفة بالاسم العربى لها، وهى وظيفة «المحتسب» وفى بعض الأحوال كان المحتسب يعرف باسم كبير السرجندارية أو رئيس الشرطة وهو الموظف الذى كان مسئولا عن نظم الأسواق والقوانين المنظمة له [٤]. وثمة اشارة إلى وجود وظيفة المحتسب فى مملكة بيت المقدس الصليبية .

ويؤكد تقرير بندقى خاص بمدينة صور فى عام ١٢٤٣م، أن وظيفة المحتسب وجدت فى المدينة على يد الملك جان دى برين (١٢١٠-١٢٢٥م) وقد أوضح التقرير أن المهام التى كانت ملقاه على هذا الموظف «المحتسب» تشبه إلى حد ما اختصاصات ومسئوليات «المحتسب» المملوكى المسلم، وهى الاختصاصات التى كانت تتعلق بالفصل فى القضايا التجارية، كما كان يشبه المحتسب فى العصر المملوكى فى كونه مسئولا عن تحصيل الضرائب الشهرية الهلالية ، بالإضافة[٥] إلى مهام ومسئوليات كثيرة أخرى.

1- "Abrege des Assises des Bourgeoise"., pp. 241-44 .

2- Ibid, pp. 243 , 44 .

٣- المحتسب : تحريف للكلمة اليونانية μαθητης والتى تعنى المنظم التجارى Discipulus وكانت وظيفة المحتسب من الوظائف المساعدة للفيكونت ، فكان بمثابة نائب الفيكونت فى السيطرة على الحياة العامة فى المدينة بما فيها الأسواق.

("Abrege des Assises des Bourgeoise" ., p. 243 , Note b)

4- Ibid , pp. 236, 244 ; "Richard" The Political and Ecclesiasrieal Organization " , p. 223 ;

هايد : تاريخ التجارة، ص٣٤١ ؛ رنسيمان : المرجع السابق، جـ٢ ، ص٤٤٨ .

5- Rey, Lrs Colonies franques., pp. 63-65 ; Smith, Nobility., p. 86 .

وقد ذكرت مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس المعروفة باسم «الاسيز»[١] واجبات ومسئوليات المحتسب فى الأسواق الصليبية، فكان من واجبات المحتسب الصليبى أن يذهب فى الصباح إلى حوانيت الجزارة والمخابز ، وحوانيت بيع النبيذ والسلع الأخرى وذلك بصحبة حارس «رجل شرطة» وذلك ليراقب عمليات الغش التى يرتكبها التجار أو بائعو التجزئة ، كذلك كان المحتسب يقوم بناء على أوامر البلاط أو السلطة العليا بمراقبة وزن رغيف العيش ، كما كان يلاحق البضائع والسلع الفاسدة ويأمر بمصادرتها واتلافها ، ويحول دون بيعها، وخاصة الخبز والنبيذ واللحوم والأسماك ، وكان على المحتسب أن يتجول فى المدينة مصحوبا بحارس ، يسهر على أمن الأسواق ، فيقوم بفض المشاجرات التى قد تنشب بين التجار وبين رواد السوق المشترين ، كما كان يقوم بالقبض على اللصوص ويطاردهم ويلاحقهم ، لتأمين الأسواق والمدينة من خطرهم [٢].

ولتأدية المحتسب مهام وظيفته كان عليه أن يستعين بنواب له ومساعدين وقد تواجد فى خدمته فعلا بعض النواب والمساعدين ، الذين كانوا يعرفون باسم «عرفاء السوق»، فكان لكل سوق عريف خبيرا بشئون السوق ، وكان هؤلاء العرفاء يجمعون التحريات والمعلومات ، حتى يتمكنوا من القبض على المخالفين من التجار وأرباب المهن الأخرى كالصناع ، إذ أن المحتسب ليس باستطاعته بمفرده أن يؤدى كل هذه الأعمال التى تتطلب البحث والملاحقة [٣].

١- الاسيز : كان مفهوم الاسيز فى الغرب الأوربى يعنى محكمة إقطاعية تنظر فى دعاوى الفرسان وشكاواهم ، وفى الوقت ذاته كان الاسيز هيئة عسكرية سياسية تبحث قضايا الحرب والسلم وتفصل فيها، وكان لمفهوم الاسيز فى الشرق الفرنجى معنى آخر أيضا ، فهى جملة المجموعات القضائية ، وهى عبارة عن مجموعة من الأعراف والتقاليد والعادات التى لها قوة القانون ، فهى بمثابة رسالة فى القانون وليست قوانين، وكانت هذه الأعراف والتقاليد تتناول جوانب حياة الإقطاعيين الافرنج والعلاقات فيما بينهم ، وقد تطورت هذه الأعراف فيما بعد إلى قواعد مسجلة أهمها اسيز جيروزاليم ، وذلك فى عام ١١٢٠م، وكانت تتألف من ٢٤ فقرة أو مادة للوقوف على التفاصيل انظر (ميخنيل : زابوروف : الصليبيون فى الشرق ، ص١٤٣ ؛ Richard, Op. cit., p. 228 .

2- " Abrege des Assises des Bourgeoise "., p. 243 .

3- Loc. Cit.

وكان على المحتسب الصليبى أيضا ملاحقة الباعة الذين يقومون برفع الأسعار أى مراقبة أسعار السلع فى الأسواق ، والتى كانت تقوم المحكمة البرجوازية بتحديدها ، وحين يلتقى المحتسب بالفيكونت يخبره ويقدم له تقديرا عن كل المخالفات التى تمكن من ضبطها وملاحقتها ، وعندما يرتكب أى شخص مخالفة ، كان المحتسب يقوده إلى رجال الشرطة الذين كانوا دائما بصحبته أثناء تجواله ثم يتم اقتياد هذا المخالف إلى الفيكونت ، لكى يقدم إلى المحاكمة جزاء ما ارتكبه من مخالفات . وكان الفيكونت أن يزج بالمتهم فى السجن ولايمكن اخراج أى أحد من الجناه من السجن إلا بأوامر صريحة من الفيكونت أو البلاط الملكى[١].

ويرتبط بمهام المحتسب الصليبى أيضا مراقبة الاسواق الصليبيةليلا وذلك بمصاحبة الرقباء ورجال الشرطة الخاضعين لأوامره ، وكانت الرقابة الليلية مقسمة بينه وبين الفيكونت ، كل منهما ليلة، وإذا تعذر على الفيكونت الذهاب فى النوبتجية الخاصة به، فإن المحتسب يقوم بالمهمة الأمنية المنوط بها الفيكونت، ومما يذكر أن المحتسب كان يساعده فى أداء وظيفته رقيب «رجل شرطة» مسلح يمتطى صهوة جواده ، كذلك كان من واجبات المحتسب أن يسلم إلى الرقباء كل الأشخاص المحكوم عليهم بقضاء عقوبة ما ، كما كان عليه تحصيل الضرائب من التجار والباعة، وأصحاب الدكاكين، وإرسالها إلى الأمير [٢]، وقد خصص المحتسب مرتب شهرى قدره اثنا عشر بيزنتا [٣]. نظير قيامه بالإشراف العام على الأسواق، وكان هذا الراتب يفوق راتب الرقيب «رجل الشرطة» والذى كان يقدر بمبلغ ستة بيزنتات فى الشهر بالإضافة إلى نصيب معين من متحصلات المبيعات التى تتم فى الأسواق والهبات والمحجوزات[٤]. وهذا الاختلاف فى الراتب الشهرى بين المحتسب ورجل الشرطة يبدو أمرا طبيعيا، وذلك لأن المحتسب كان نائب الفيكونت ، ورئيس شرطة المدينة الذى كان منوطا به مهمة الحفظ على الأمن داخل المدينة بوجه عام ، وفى الأسواق بوجه خاص .

وكان الجهاز الادارى للمحكمة البرجوازية فى المدن الصليبية يضم وظائف كثيرة أخرى، غير وظيفة الفيكونت والمحتسب ، ساهمت بقدر كبير فى ادارة الحياة الاقتصادية فى المدن

1- "Abrege des Assises des Bourgeoise" ., p. 244 .

2- Loc. cit.

3- rey, Les Colonies Franques., p. 66 .

4- "Abrege des Assises des Bourgeoise " ., p. 244; Rey, Les Colonies Franques., p. 66 .

الصليبية ، فقد كان لها كاتب، يتقاضى أجرا شهريا مجزيا قدره اثنا عشر بيزنتا ، وبعض الأجور الاضافية الأخرى والتى كانت عبارة عن اثنى عشر بنسا من متحصلات المبيعات، وست بنسات فى حالة بيع المنح والهدايا ، وست بنسات نظير تحرير عقد الرهن، وكان على الكاتب تسجيل كل وثائق المحكمة وحفظها ، وتقديم تقرير مفصل عن أعمال المحكمة كل ثلاثة أشهر[١]، وكان كاتب المحكمة يحتفظ بالسجلات فى خزانة ذات ادراج لها مفتاحان ، وكانت هذه الخزانة تودع فى منزل احد اعضاء المحكمة ذوى الثقة والمكانة السامية لدى الملك أو الكونت[٢]، ومما يذكر أن تعيين كاتب خاص للمحكمة البرجوزية فى عكا يرجع إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، حيث تقرر هذا أثناء انعقاد المحاكم العليا والمحاكم الصغرى (البرجوازية) فى فبراير عام ١٢٥١م، ومنذ ذلك الوقت أصبح للمحكمة البرجوازية سجلات رسمية يدون بها مذكرات القضايا التجارية وغيرها ، غير أن هذه الاصلاحات الادارية لم تنفذ مباشرة ، بل استمر استخدام مسجل العقود العام[٣] حتى وقت متأخر من عام ١٢٦٠م[٤]. وبحلول عام ١٢٦٩م . تم تعيين كاتب خاص للمحكمة البرجوازية ، وأصبح لها سجل خاص بها ، بالإضافة إلى نقش أو خاتم خاص بها[٥]، وجاء هذا التطور الادارى مواكبا لحركة التطور الادارى مواكبا لحركة التطور التجارى التى شهدتها المناطق الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد ، وقد ساهمت هذه النظم الادارية فى تنظيم الحياة العامة فى المدن الصليبية، بما فيها الاسواق التى فرضت السلطات الصليبية الرقابة عليها من خلال هذه الانظمة والمؤسسات القضائية والادارية .

1- " Abrege des Assises des Bourgeoise" ., p. 243; Rey , Les Colonies FrAnques., p. 59 ; Holmest, " Life Among the Europeans"., p. 27 .

2- "Abrege des Assises des Bourgeoise"., p. 250; Holmest, "Life Among the Europeans"., p. 27 .

٣- ثمة اختلاف واضح بين كاتب المحكمة البرجوازية ، وكاتب المدينة، ففى وقت مبكر من عام ١١٨٧م، كان لفيكونت نابلس خاتم أو نقش خاص به ، ولكن هذا كان اجراءا شخصيا ، (Smith, Nobility., p. 87 Note 211) .

4- " Abregedes Assises des Bourgeoise"., p. 246-249 ; Smith, Op. cit., p. 87 .

5- "Livre des Assiese des Bourgeoise"., p. 160; Smith, Op. cit., p. 87 .

والواقع أن وظيفة الكاتب كانت من الوظائف الهامة فى الجهاز الادارى الصليبى فى بلاد الشام، وقد وجدت هذه الوظيفة فى ديوان الجمرك والاسواق وفى القرية أيضا[1]. فقد ذكرهم الرحالة المسلم ابن جبير بأقلامهم الابنوس ، ودفاترهم التى يسجلون فيها المتاجر واسماء التجار[2]، وثمة فئة من هؤلاء الكتاب كانوا يعملون كدلالى مساحة وكانت وظيفتهم تقترب كثيرا من وظيفة ، «مستحفظ الأرض» المسلم، وقد عرفتهم وثائق القرن الثالث عشر الميلادى اللاتينية باسم «المحافظ» [3].

وقد قررت مجموعة القوانين البرجوازية فى المملكة الصليبية ، أنه إذا حدث أن قام الكاتب المسلم أو الافرنجى المصير من قبل الملك أو الكونت فى السوق أو الميناء أو القرية بأية محاولة لالحاق الضرر المادى بالملك أو الكونت ، كقيامه بالتآمر مع التجار فى تخفيض الرسوم المفروضة عليهم والمستحقة على السلع والبضائع المصدرة ، واختلاس بعض المبالغ المالية لحسابه الخاص، دون علم الملك أو الكونت أو نائبه ، أو إذا ارتكب الكاتب جرية عدم ارسال الايجارات التى قام بتحصيلها إلى خزانة الكونت ، فإنه يجب فى هذه الحالة اقالة هذا الكاتب، ومصادرة أملاكه لصالح الملك أو الكونت [4]. وبالطبع كان هذا التشريع ينطبق على جميع موظفى الفندق والميناء حيث ديوان التمكيس والجمرك، كما كان يتعلق بالمناطق الريفية أيضا، وذلك لأن موظفى هذه الجهات ، ينتمون إلى فئة الموظفين الاداريين التابعين لسلطة الملك الصليبى أو الكونت، ويمكننا أن نفهم من هذا الاجراء التشريعى أن ثمة محاولات من جانب بعض الكتاب كانت تحدث لإلحاق الضرر والخسارة المالية بالحكام الصليبيين مثل التواطؤ فى تحصيل الرسوم المستحقة على التجار والحصول على الرشاوى من التجار نظير تخفيض الرسوم المستحقة على صادراتهم فى الميناء ، وعلى مبيعاتهم فى الأسواق .

1- Rey, Les Colonies Franques., p. 67 ; Richard, " The Political and Ecclesiastical Organization" pp. 224, 5 .

٢- ابن جبير : الرحلة، ص٢١١ .

3- Rey , Les Colonies Franques., pp. 53-55 .

4- "Abrege des Assises des Bourgeoise"., pp. 344, 54 , Smith, Nobility., pp. 55,56 .

ومما يذكر أن الكاتب كان موظفا ماليا ، يقوم بتحصيل الضرائب فقد كانت المهامالملقاة على عاتقه تشبه إلى حد ما مهمة الموظفين الفاطميين المسئولين عن تحصيل ضريبة الخراج، وضريبة الجوالى المفروضة على غير المسلمين ، وكان هؤلاء الموظفون يعرفون بأسماء دلال المساحة، وحافظ الخزينة ، والحاصر، وقد وجدت وظيفة الكاتب فى مدين صليبية عديدة مثل ارسوف ويافا وعسقلان وبيروت وقيسارية والناصرة ورام الله وصور، وكانت نسبة كبيرة من هؤلاء الكتاب من الوطنيين الشوام أصحاب البلاد الأصليين ، كما كان هناك كتاب من الصليبيين ذوى المكانة الهامة فى المجتمع ومن أعضاء المحكمة البرجوازية المحلية[١].

وهكذا كانت وظيفة الكاتب من الوظائف الادارية الهامة فى المناطق الصليبية، الحضرية فيها والريفية، وكان يؤدى وظائف مالية وادارية هامة فى الأسواق وفى الموانىء ، حيث تسجيل الصفقات التجارية واسماء التجار، وتسجيل نسب الرسوم المفروضة على سلع الصادرات ، وعلى المبيعات فى الأسواق، وتحصيل الرسوم المفروضة على أصحاب الحوانيت التجارية.

وبالإضافة إلى الكاتب كان للمحكمة البرجوازية «حاجب» وكان الملك الصليبى أو الفيكونت هو الذى يقوم بتعيين هذا الحاجب، الذى يقوم بتبليغ أوامر وقرارات المحكمة وهذه الوظيفة تختلف عن وظيفة منادى المدينة الى كان يرتقى حجرا عاليا وسط الأسواق يبلغ أوامر وقرارات السلطات الصليبية للمواطنين ، وهى الأوامر الخاصة بالمحظورات الملكية والقرارات الخاصة بالتعبئة العامة واعلان دعوة الملك من أجل تسليح الفرسان [٢]. أى أن وظيفة الحاجب ارتبطت أساسا بالمحكمة العليا والمحكمة البرجوازية.

كانت ادارة الأسواق فى عكا وفى جميع المدن الصليبية الأخرى، يقوم بها موظفون حكوميون ، كانوا يعرفون بموظفى السوق أو الفندق وقد أشار ابن جبير أثناء رحلته إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين إلى موظفى الفندق فى عكا ، وذكر صاحب ديوان التجار[٣]،

1- Smith, Nobility., p. 56; Benvenisti, Op. cit., p. 12 .

2- Rey, Les Colonies Franques., pp. 66, 67 ; Smith, Nobility., p. 87 ;

براور : عالم الصليبيين، ص١٣٦ .

٣- ديوان التجار : كان يقصد به محكمة الفندق أو السوق أو محكمة السلسلة أو الميناء ، أو بوابات المدينة، واسواق التجار الأوربيين من الايطاليين والبروفنساليين . (Smith, "Government"., p. 112)

باعتباره رئيس الديوان، بالإضافة إلى كتاب يقومون بتسجيل البضائع الواردة إلى عكا بطريق البر[١] ، فقد كانت الأسواق الصليبية أسواقا ملكية تخضع لإشراف السلطة الملكية مباشرة، وذلك فى المدن التابعة للملك الصليبى[٢]، كما كانت الأسواق الصليبية فى المدن التابعة للإمارات الصليبية الأخرى مثل انطاكية والرها وطرابلس ، تخضع لسلطة الكونت، وذلك لضمان تحصيل الرسوم المستحقة على المبيعات داخل السوق. تلك الرسوم التى كانت من أهم موارد الدخل المالى لمملكة بيت المقدس الصليبية والامارات الصليبية الأخرى ، ولذا استلزم وجود محكمة ذات طابع تجارى فى المدن الصليبية التى تشهد نشاطا تجاريا متزايدا، وقد عرفت هذه المحكمة باسم محكمة الفندق أو السوق، وذلك للفصل فى القضايا التجارية البسيطة التى تقوم بين جميع طوائف السكان من الشوام والصليبيين فى السوق [٣].

وعلى أية حال فإن تأسيس محكمة الفندق Cour de la Fonde تم فى عهد عمورى الأول (١١٦٢-١١٧٣م) حيث تقرر انشاء محكمة الفندق فى كل واحدة من المدن الرئيسية ، والتى كان يبلغ عددها ثلاثا وثلاثين مدينة تنعقد بها الأسواق [٤]، وقبل تأسيس محكمة السوق كانت هناك محكمة شامية وطنية [٥]، يرأسها موظف يسمى الرئيس، ووفقا لما جاء فى بعض المصادر الصليبية ، طلب المسيحيون المحليون اشراف ملوك بيت المقدس الأوائل على هذه المحاكم، ثم انتقلت اختصاصاتها إلى محكمة السوق بمرور الزمن ، ولكم يحدث التطور

١- ابن جبير : الرحلة، ٢١١ .

2- Prawer, The Latin kingdom., p.410 .

3- Rey, Les Colonies Franques., p. 59 .

4- Stevension ,W. B., The Crusaders in the East., Beirut , 1968, pp. 20-28 ;

رنسيمان : المرجع السابق، جـ٢ ، ص٤٨٤ ، باركر : المرجع السابق، ص٦٤ .

٥- خضع السكان الوطنيون من الشوام فى السنوات الأولى من قيام محكمة بيت المقدس ، لما كان لها من محاكم وقوانين، وهذه المحاكم تألفت من محلفين وطنيين برأسه قاض وطنى بالرئيس الذى يقابل الفيكونت فى المحاكم البرجوازية وتنظر هذه المحاكم فى القضايا الصغرى التى لاتنطوى من الناحية الجنائية على القتل والتى لاتتجاوز قيمة ما ينظر فيه من الناحية المدنية قطعة فضية (مارك) ولم يكن لهذه المحاكم إلا أهمية ضئيلة ، فلم تلبث ان اندمجت فى محاكم المدن (محكمة الفندق أو السوق(ولم تبق إلا فى القرى. (باركر : الحروب الصليبية، ص٦٤ ، هامش٢) .

فى القرى، إذ ظلت المحاكم الوطنية تواصل عملها ناك برئاسة رئيس القرية وذلك لأن هذا التطور كان قاصرا على المدن فقط [١]. وهكذا عرفت محكمة الرئيس أخيرا باسم محكمة الفندق أو السوق والتى كانت تشرف على أمور السكان المحلين [٢].

ومن المرجع أن هذا التطور القانونى والادارى جاء تلبية للحاجات الملحة التى فرضتها حركة النشاط التجارى التى شهدتها المدن الصليبية ابان فترة الاستقرار الاقتصادى والسياسى للملكة الصليبية فى عهد الملك عمورى الأول.

وعلى أية حال فإن محكمة الفندق أو السوق كانت تتألف من رئيس المحكمة المعروف باسم البيلى Bailli وستة أعضاء أو محلفن أربعة من الشوام واثنين من الفرنجية [٣]، ويلاحظ أن البيلى Bailli كان هو المسئول عن الاسواق فى عكا، وقد ذكر البيلى فى وثائق القرن الثالث عشر الميلادى باعتباره موظفا ملكيا [٤]. وكان المحامى الذى يدافع عن أحد رواد السوق (الزبائن) يدعى An Avantparlier[٥] وكان هؤلاء المحامون يحضرون أمام المحكمة للدفاع عن موكليهم وكان المدعى يقدم حججه وطلباته بشكل صاخب ، ثم يقوم المحامى بتفنيد هذه الحججودحضها والرد على تساؤلات المدعى [٦]، ومما يذكر أن حكم تلك المحكمة كان حسب قوانين الامارة الصليبية مع مراعاة العرف المحلى وتقاليد أهلها [٧]. ويمكن استئناف أحكامها أمام المحكمة البرجوازية[٨].

١- براور : عالم الصليبيين ، ص١٣٧ ؛ Smith, Nobility, p. 90 .

2- "Assises des Jerusalem. "Tom, II, p. XXIX; Rey, Les Colonies Franques., p. 59 ; Holmest., " Life Among The Europeans., pp. 27, 28 .

3- Rey, Op. cit., 59; Smith, Op. cit., p. 95 ; Mayer, The Crusades., p. 171; Benvenisti, Op. cot., p. 29; Richard, Op. cit., p.224 .

4- " Abrege des Assises des Bourgeoise"., pp. 270-4 ; Rey; Op. cit., 59; Smith. Op. cit., p. 94 .

5- " Abrege des Assises des Bourgeoise"., p. 245 .

6- "Livre des Assises des Bourgeoise"., p. 21 ; Holmest", Lofe Among the Europeans"., p. 28 .

٧- زكى النقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج (بيروت ، ١٩٤٦م) ، ص١٥٩ .

8- Mayer, The Crusades., p. 171 ; رنسيمان : المرجع السابق جـ٢ ، ص٢٨٤ ، ٢٨٥ .

وعن اختصاصات محكمة الفندق أو السوق، يمكن القول بأن لها حق الفصل فى القضايا التى تقوم بين التجار الشوام وتجار الصليبيين، تلك القضايا المتعلقة بالأمور التجارية البسيطة مثل مشاكل الديون، والاتفاقيات التى يقوم بخرقها أحد التجار من طرفه كما كانت تتولى تسجيل عقود البيع بعد اثبات صحتها ، وكانت أيضا بمثابة ادارة لجباية ضرائب السوق، فقد كان لديها سجل يدون فيه الصفقات التجارية[١].

وارتبط بمحكمة الفندق أو السوق الملكى فى عكا موظفون أخرون ساهموا فى انجاز المهام المنوطة بها ، وكان الموظفون هم الحراس «رجال الشرطة» المسئولين عن حفظ الأمن فى الأسواق والكتاب «المسجل» والكيالين والقياسين ودلالى المزاد العلنى Vendours de :a Vile الذين كانوا يديرون عمليات البيع والشراء من خلال الحلقة أو المزادالعلنى[٢]، فقد ذكرت مجموعة القوانين البرجوازية أن أسواق عكا فى الفترة الصليبية قد عرفت وظيفة مروج المزاد العلنى[٣].

ولاشك أن هذه الوظائف ساهمت فى تنظيم عمل السوق، من حيث الاشراف على جميعالضرائب وتوفير الاستقرار الأمنى داخل الأسواق وتنظيم عمليات البيع والشراء من خلال هؤلاء الموظفين واستخدام المعايير التجارية الملكية كالموازين والمكاييل والمقاييس فى هذه الأسواق، والتى كانت احتكارا ملكيا فى الأسواق الصليبية وكان موظفو الملك يقومون بعمليات الوزن والكيل والقياس فى هذه الأسواق وكان احتكار الموازين والمكاييل يعتبر شكلا من أشكال الرقابة الحكومية على الأسواق والتجار، وهكذا قامت محكمة السوق أو الفندق بادارة جميع الاعمال التجارية فى الأسواق ، مما خلق ازدهار أو رواجا فى هذه الأسواق خلال فترة استقرار السياسى للملكة الصليبية.

وإذ كانت محكمة الفندق، قد قامت بادارة الأسواق الصليبية الملكية فإن ثمة أسواق أخرى كانت منفصلة فى ادارتها عن محكمة الفندق ففى انطاكية كانت أسواق السمك والجلود المدبوغة والنبيذ مستقلة فى ادارتها عن محكمة الفندق ، وكذلك فى اللاذقية أسواق الجلود

1- Smith, " Government "., p. 116 ; Nobility., p. 97 ; Richard, Op. cit. cit., p. 224 .

2- " Abrege des Assises des Bourgeoise"., pp. 271 , 300-1 ; Smith, Nobility., pp. 94,95 ; " Government"., p. 116 .

3- " Livre des Assise des Bourgeoise"., pp. 63, 64 ; Smith, Nobility. p. 97 .

المدبوغة وأسواق المواد الغذائية ، وأسواق الزيوت والفاكهة ، وفى جبيل كانت أسواق الملابس، وفى المرقب أسواق المواد الغذائية ، وفى طرابلس كانت أسواق الصابون والجلود المدبوغة وأسواق السمك والمواد الغذائية ، وفى عكا كان سوق اللحم وسوق الجلود المدبوغة [١]، ومن المؤكد أن هذه الأسواق المستقلة فى ادارتها كانت ملكا لأفراد أو جماعات مثل الداوية والاسبتارية أو ملكا للتجار الايطاليين (البنادقة ، الجنوية البيازنة) أو ملكا للتجار البروفنساليين وخاصة تجار مرسيليا ، فقد حصل هؤلاد جميعا على امتيازات عديدة ، منها حق امتلاك أسواق لهم فى المدن الصليبية ذات الشهرة التجارية مثل عكا وصور وطرابلس وانطاكية ، وكان هؤلاء التجار يمارسون نشاطهم التجارى داخل أسواقهم الموجودة فى الأحياء الخاصة بهم فى هذه المدن، يستخدمون فيها معاييرهم التجارية الخاصة بهم، وذلك طبقا لما اقرته بعض المعاهدات[٢] ، التى وقعت بين المدن الايطالية وخاصة البنادقة وبين الحاكم الصليبيين فى تفرة باكرة من الوجود الصليبى.

وقد كانت مسألة حفظ الأمن وحراسة الأسواق وادارتها فى الأحياء الايطالية فى بلاد الشام فى مقدمة المسائل التى تسببت فى قيام منازعات بين ابناء الجاليات الايطالية والحكام الصليبيين فقد جرت العادة منذ البداية على أن الجاليات الايطالية لها وحدها حق تعيين رجال الأمن من رعاياها فى احيائهم فى المدن الصليبية ، ولكن مدير البوليس الملكى فى مدينة صور، أخذ منذ عهد الملك الصليبى جان دى برين، أى منذ عام ١٢١٠م، يتدخل فى عملية الإشراف على الأسواق التى تقع فى الحى البندقى بالمدينة فكان ذلك سببا للشكوى المستمرة من القنصل البندقى فى عكا مارسيليو جورجيو Marsilio Gergio فى عام١٢٤٤م، لهذ التدخل والتعدى على حقوقه من جانب مدير البوليس الملكى، وبعد تقديم عدة طلبات والتماسات لدى البلاط، اجيب القنصل البندقى لمطالبه وتم وضع حد لتصرفات مدير البوليس وتقرر ترك أمر الاشراف على الأسواق فى الحى البندقى لرجال الأمن البنادقة أنفسهم[٣].

- Smith, " Government., " p. 116 ; Nobility., p. 96 .

٢- عن بنود المعاهدة التى وقعت بين البنادقة والحكام الصليبيين فى عام ١١٢٣م انظر William of Tyre, Op. cit., vol , I, pp. I, pp. 551 .

٣- هايد : تاريخ التجارة، ص٣٤١ ؛ سامى سلطان سعد: أسس العلاقات الاقتصادية ، ص٤٢ Smith, Nobility., p. 71 .

فقد تمسك البنادقة بالامتيازات الاقليمية والتجارية والادارية التى حصلوا عليها فى المدن الصليبية، منذ فترة باكرة من الوجود الصليبى ، والتى منح الايطاليون بمقتضاها حق الاشراف الكامل على التجارة والأسواق ، وضمان الأمن العام فى داخل الاحياء الايطالية. وهكذا شهدت المدن الصليبية عددا كبيرا من الأسواق المستقلة فى ادارتها عن محكمة الفندق أو السوق الملكية، وقد بلغ عدد هذه الأسواق فى مدينة عكا ستة أسواق [١]، وهى أسواق التجار الايطاليين والبروفنساليين أصحاب الامتيازات وكذلك أسواق الهيئات الدينية العسكرية (الداوية والاسبتارية) ، وكان لهذه الأسواق الجهاز الادارى الخاص بها، كما كان لها الموازين والمكاييل الخاصة بها، وكذلك اجهزة الأمن وجامعى الضرائب ، وكان للتجار الايطاليين أيضا المحاكم الخاصة بهم برئاسة القنصل .

ومن المعروف أن فترة الوجود الصليبى فى المنطقة العربية قد شهدت نشاطا تجاريا بحريا متزايدا ، ولعبت الأساطيل التجارية الايطالية دورا رائدا فى هذا المجال، وتدفقت السفن التجارية من أوربا إلى الموانىء الصليبية فى بلاد الشام، وقد اقتضت هذه الظروف الجديدة قيام مؤسسة قضائية ذات طابع تجارى فى هذه المؤسسة باسم محكمة السلسلة أو الميناء[٢]. Ceur de la Chaine وقد أخذت هذه المحكمة البحرية اسمها من العادة المنتشرة خاصة فى الشرق بغلق مدخل كل ميناء بحرى بسلسلة حديدية ممتدة بين برجين ، وكانت هذه السلاسل تستعمل فى اغلاق الموانىء فى العصور الوسطى اثناء الليل أو وقت الخطر[٣].

ويرجع تأسيس محكمة السلسلة أو الميناء فى الموانىء الصليبية فى بلاد الشام إلى تفرة حكم الملك عمورى الأول (١١٦٢-١١٧٤م)[٤] وإن كان المؤرخ رايلى سميث Smith يبدى تحفظا ازاء هذا التاريخ الخاص بانشاء محكمة السلسلة ، فيرى أن تأسيس محكمة الفندق ومحكمة السلسلة التجاريتين فى المدن الصليبية يرجع إلى وقت مبكر من القرن الثانى عشر

1- Prawer, TheLatin Kingdom., p. 412 .

2- Mayer, The Crusades., p. 171 ; Richard , " The Political and Ecclesiastical Organization"., p. 224.

براور : عالم الصليبين ، ص١٣٧ .

٣- ابن جبير ، الرحلة ، ص٢١٢ ، هايد : تاريخ التجارة، ص٣٤٢ . Smith, Op. cit., p. 81 .

4- Rey, Les Colonies Franques., p. 60 ; Smith, Op. cit., pp. 91, 92 .

الميلادى قبل فترة حكم الملك عمورى[١]، ومن المحتمل أن هذه المحاكم التجارية كانت تقليدا لما كان سائدا فى الأقطار الإسلامية والمراكز التجارية الإسلامية آنذاك .

وعلى أية حال فإن محكمة الميناء أو السلسلة انتشرت فى الموانىء الصليبية فى بلاد الشام، وخاصة عكا وصور وبيروت وصيدا وطرابلس، باستثناء انطاكية التى لم تشهد هذا النوع من المحاكم كما يرى المؤرخ كلود كاهن Cahen والذى يرى أن محكمة السلسلة لم توجد فى انطاكية ، فقد كانت القضايا البحرية بين التجار تنظر أمام محكمة الكونت فى مدينة انطاكية أو امام المحاكم المستقلة للجاليات الايطالية صاحبة الامتيازات [٢]. ومما يذكر أن محكمة السلسلة أو الميناء كان يرأسها موظف يعرف بالبيللى Bailie وكان اعضاؤها يتم اختيارهم من بين وجهاء التجار والبحارة [٣]، وكان البيللى بمثابة رئيس موظفى الجمرك فى ميناء عكا فى القرن الثالث عشر الميلادى وهذه الوظيفة تشبه وظيفة مشرف الجمرك أو الكاستوديوس Sustodes والتى ذكرتها احدى وثائق الفترة الباكرة من العصور الوسطى[٤].

وعرت محكمة السلسلة فى ميناء عكا باسم محكمة البحر، وكانت هذه المحكمة مسئولة عن الفصل فى القضايا المتعلقة بالقانون البحرى التى تنشب بين التجار الأجانب والمحليين وهى القضايا الخاصة بالنقل والملاحين، أو غرق السفن والقروض التجارية والمنازعات التى تنشب بين البحارة وقادتهم. وفى حالة القضية التى يتجاوز قيمة ما ينظر فيه من الناحية المدنية قطعة فضية واحدة (مارك) ، فإن هذه القضية كانت تنظر أمام المحكمة البرجوازية وذلك للفصل فيها[٥]. فقد كانت المحكمة البرجوازية بمثابة محكمة استئناف لهذا النوع من المحاكم وكانت محكمة السلسلة مسئولة أيضا عن تشغيل الميناء وصيانته بواسطة عدد من الموظفين كما ذكر بنيامين التطيلى أثناء ذهابه إلى ميناء صور[٦].

1- Smith, Op. cit., p. 92 , Note 244 .

2- Cahen, La Syrie du Nord., p. 485 .

3- Richard, Op. cit., p. 224 .

4- Smith, Nobility., p. 92 .

5- Ruchard, Op. cit., p. 224 ; Mayer , The Crusades., p. 171 ; Smith, Op. cit., pp. 91,92 ; Rey, Op. cit., p.60 .

6- Benjamin of Tudela , Travels of Rabbi benjamin of Tudela Edited by Manuel Komroff, London, 1928 . p. 270 ; ابن جبير : الرحلة ، ص٢١٢ .

ويرتبط باختصاصات محكمة السلسلة أيضا القيام بتحصيل الضرائب المستحقة على الصادرات والواردات والضرائب الأخرى المتعلقة بالميناء كرسوم النقل أو المغادرة على السفن التجارية وكانت هذه المهام يقوم بها مجموعة من موظفى الميناء. ويعتبر الكاتب الخاص بمحكمة السلسلة من ابرز هؤلاء الموظفين ، كما ذكرت القوانين البرجوازية[1] ، فقد كان هذا الكاتب يقوم بتدوين اسماء التجار وجنسيات السفن الواردة إلى الميناء ، والصفقات التجارية الواردة والصادرة.

وهكذا كان يوجد على مدخل الموانىء مجموعة من الكتبة وجباة الضرائب ورسوم الجمارك يقومون بواجباتهم الادارية المنتظمة وسط ضجيج المساومات والمهاترات [2]، فقد كان لمحكمة الميناء أو الجمرك المعايير التجارية الخاصة بها من مكاييل وموازين ومقاييس تستخدمها فى تقدير نسب الضرائب على الصادرات والواردات [3]، وكذلك على السلع التى تباع على رصيف الميناء.

ومن المحتمل أن محكمة الميناء أو الجمرك كانت تضم عددا من الموظفين يقومون بالإشراف الادارى على الحركة التجارية فى الميناء وكانت هذه المجموعة من الموظفين تضم القياسين والكيالين ومروجى المزاد العلنى وذلك لأن بعض السلع الواردة كانت تباع على رصيف الميناء[4]، قبل ذهابها إلى الأسواق . كما وجد أيضا جباة الرسوم الجمركية والسماسرة والتراجمة والحمالون من بولان الميناء. فكان الميناء بمثابة وحدة ادارية تضم جهازا اداريا لانجاز المهام الادارية والمالية والأمنية التى تتطلبها الحركة التجارية النشطة فى الميناء. وكان رئيس الجمرك أو الميناء يقوم بتعيين هؤلاء الموظفين. والذى كان بعضهم من رجال الاكليروس الذين يعرفون اللغة العربية ، ومن المحتمل أن هؤلاء كانوا من المسيحيين الشرقيين الذين كانوا يتسلمون وظائفهم من سيد المدينة[5].

وهكذا اهتم الموظفون الصليبيون بالعمليات التجارية البحرية وادارتها واتبعوا نفس الاجراءات [5]، التى كانت تستخدمها الموانى الإسلامية فى ذلك الوقت مع السفن التجارية

1- " Abrege des Assises des Bourgeoise" ., p. 344 .

٢- براور : عالم الصليبيين، ص١٥٧ ، رنسيمان، المرجع السابق، جـ٢ ، ص٤٨٥ .

3- Smith, Nobility., p. 92 .

٤- ابن جبير : الرحلة، ص٢١١ ، . Prawer , The Latin Kingdom., p. 403

٥- عن اجراءات الميناء الصليبى التى تتبع مع السفن التجارية انظر الفصل الثالث ، ص١٢٣ ، ١٢٤ .

القادمة إلى الموانىء الصليبية، وأدت هذه المحكمة التجارية دورا حيويا فى تنشيط التجارة البحرية فى الموانىء الصليبية، وتدفق البضائع الأوربية إلى هذه الموانى.، الأمر الذى خلق رواجا تجاريا وازدهار للأسواق الصليبية الملكية والأسواق المستقلة على حد سواء ، وذلك ابان فترة الاستقرار السياسى والتوسع الاقليمى التى شهدتها المملكة الصليبية فى عمرها الأول. فقد كان قيام المحاكم التجارية (محكمة الفندق- محكمة السلسلة أو الميناء) فى هذه الفترة خير دليل على ذلك الرواج والازدهار الاقتصادى لمملكة بيت المقدس الصليبية.

واذا كانت محكمة الفندق ومحكمة السلسلة قد اسند إليها مهمة ادارة الأسواق والموانىء فى المدن الصليبية ، فإن ادارة الحياة الاقتصادية فى القرية وخاصةالأسواق قد اسندت إلى رئيس القرية أو المختار. فقد ابقى الصليبيون على نظام ادارة القرى فى المناطق العربية، فكان لكل قرية مجلس من الاعيان والشيوخ برئاسة رئيس القرية وكان هذا المجلس بمثابة محكمة القرية [١]، وكان رئيس القرية يعين من قبل السلطة الحاكمة فى المدينة، يعينه السيد الاقطاعى ولذا كان رئيس القرية من الموظفين ذوى الأهمية الكبيرة، وذلك نظرا للمهام الكبيرة التى كانت ملقاة على عاتقه فهو بمثابة الوسيط بين الكونت وأهل القرية ، يشرف على عمليات تحصيل الضرائب وارسالها إلى سيد المدينة الاقطاعى، كما كان بمثابة الرئيس الادارى للتجار يشرف على السوق المحلى للقرية، ومسئولا عن حفظ الأمن فى القرية[٢]، وقد زطلق الصليبيون على رئيس القرية لقب «الوسيط» [٣]، Raisagium أو Raisge ، وقد تمتع رؤساء القرى بالاستقلال القضائى داخل قراهم إذ كان لرئيس القرية سلطة الفصل فى المنازعات التى تنشب بين أهالى القرية[٤]، وكانت السلطة القضائية لمحكمة القرية بسيطة لاتتعدى عن فض المنازعات والقضايا التى لايزيد قيمة المتنازع عليه من الناحية المدنية عن قطعة فضية واحدة (مارك) ،

١- ابن جبير : الرحلة ، ٢١١ .

2- Prawer, The Latin Kingdom., pp. 367-369 ; Benvenisti, Op. cit., p. 20 , Smith, Op. cit., pp. 47,48 .

٣- رنسيمان : المرجع السابق، جـ٢، ص٢٧٤ ، ٢٧٥ .

4- Richard, " The Political and Ecclesiastical Organization" p. 223 .

5- "Abrege des Assises des Bourgesise., "pp. 244, 312; Smail, Op. cit. , pp. 39 , 40 .

وأما بخصوص الجرائم الجنائية التى كانت تستلزم عقوبة الاعدام أو التشهير، فكانت من مهمة المحكمة البرجوازية[١]، والتى كانت بمثابة محكمة استئناف للمحاكم التجارية التى ذكرناها ومحكمة القرية.

وهكذا اسهم القانون العرفى والمؤسسات القضائية فى المملكة الصليبية فى السيطرة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية وتنظيمها واستطاعت هذه المؤسسات ادارة شئون الأسواق، وحماية حقوق العامة فى هذه الأسواق ، مما ساعد على ازدهار حركة البيع والشراء ورواجها، وذلك خلال الفترة المستقرة للملكة الصليبية، والتى عملت خلالها هذه المؤسسات بهمة ونشاط، مما شجع التجار المسلمون والأوربيون على ارتياد هذه الأسواق ويتضح مما سبق أيضا اهتمام الحكام الصليبيين بالتجارة والأسواق، واقتباس النظم الإدارية الإسلامية، الخاصة بتنظيم الأسواق، وإن جاءت هذه النظم متوافقة مع طبيعة المجتمع الاقطاعى الصليبى فى منطقة الشرق العربى.

من المعروف أن التجارة وحركة الأسواق لاتزدهر وتروج إلا فى ظل استقرار الأمن واستتبابه، سواء على طول الطرق التجارية أو فى داخل الأسواق والعكس صحيح تماما[١]، وتنسحب هذه المقولة على حركة الأسواق الصليبية فى بلاد الشام، ولاشك أن هذه المسئوليات كانت تقع على عاتق الحكومات الصليبية.

وكان الخطر الداهم الذى يهدد التجارة فى العصور الوسطى يتمثل فى قطاع الطرق الذين كانوا يستولون على المتاجر، وسلب القوافل ، وقد ذكر ابن جبير أن الأكراد كانوا يمثلون خطرا كبيرا على التجار الذين كانوا يسلكون الطريق من الموصل إلى نصيبين وإلى دنيصر، إذ كانوا يقطعون الطريق، ويسعون فى الأرض فسادا [٢]. كما أشار الرحالة سيولف Saewulf الذى زار الأراضى المقدسة فى الفترة الصليبية إلى اضطراب حالة الأمن وانتشار اللصوص وقطاع الطرق على امتداد الطرق التجارية الجبلية التى كان يسلكها التجار والحجاج إلى مدينة القدس، وخاصة الطريق من يافا إلى المدينة المقدسة[٣]، ولاشك أن هذه المخاطر ، كانت تسبب عرقلة

١- قاسم عبده قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص٧٣ .

٢- ابن جبير : المصدر السابق، ص١٧١ . Lepez, "The Trade of Medieval Europe", p. 285 .

3- Saewulf, Op. cit., pp. 8,9; Danial, Op. cit., pp. 26 .

النشاط التجارى فى المناطق الصليبية ، وكان ينعكس هذا الأثر السلبى على حركة الأسواق فى هذه المناطق وقد ادراك الحكام الصليبيون خطورة هذه الأعمال من قبل قطاع الطرق على طول الطرق التجارية التى تربط الأسواق بعضها ببعض ، ولذا اسندوا مهمة حماية هذه الطرق والتجار إلى فرسان الداوية والاسبتارية [١]، ولاسيما إبان فترة الاستقرار السياسى للملكة الصليبية، وهكذا يتضح دور السلطات الصليبية فى تأمين الطرق التجارية المؤدية إلى الأسواق، وكان هذا الاجراء احد عوامل ازدهار الأسواق ورواجها ، ولاسيما خلال فترات حكم الملوك الاقوياء أمثال (بلدوين الأول، وبلدوين الثانى، فولك الانجوى، بلدوين الثالث، وعمورى الأول لوزجنان) .

والواقع أن الاستقرار السياسى للملكة الصليبية، تعرض للخطر ابان فترات الصراع بين الحكام الصليبيين والتنافس بينهم على وراثة العرش، ولاسيما فى الفترة التى سبقت معركة حطين، فقد حدث اضطراب سياسى بعد وفاة الملك المجذوم بلدوين الرابع الذى مات دون أن يترك وريثا ، وحدث صراع بين كونت طرابلس وبين جان لوزجنان الذى تزوج اخت الملك المتوفى (سيبيلا) [٢]، ولاشك أن هذه الأحداث وحالة عدم الاستقرار السياسى كان لها تأثيرها السلبى على الأسواق الصليبية وتقلص حركة البيع والشراء نتيجة عدم الاستقرار الأمنى فى البلاد .

وعلى أية حال فإن المتأمل فى الأحداث السياسية التى شهدتها المملكة الصليبية وخاصة بعد كارثة حطين التى المت بالمملكة وتلقص الوجود الصليبى فى شريط ساحلى ضيق على البحر المتوسط، يجد أن الاضطرابات السياسية تكاد تكون هى السمة الدالة على حياة الصليبيين فى الشرق العربى، وقد ترك هذه الاضطرابات أثره السىء على الحياة الاقتصادية، وتقلصت اعداد الأسواق نتيجة الخسائر الاقليمية التى فقدتها المملكة الصليبية فى المنطقة العربية.

والواقع أن الاستقرار السياسى يؤثر على الأحوال الأمنية سواء فى المدينة أو فى الأسواق ففى ظل الاستقرار السياسى للملكة الصليبية استطاع الحكام الصليبيون ضبط الأمور التجارية والسيطرة على جميع نواحى الحياة الاقتصادية، واتضح ذلك من خلال ما قام به الملك

1- Theoderich, Op. cit., pp. 46-48 .

٢- ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ، ص١٨٤ ، ١٨٥ .

عمورى الأول (١١٦٢-١١٧٤م) من تأسيس المحاكم التجارية (محكمة الفندق أو السوق ومحكمة السلسلة أو الميناء) [١]، وكان لهذه المحاكم جهازها الادارى من موظفين واداريين يعملون ضمن هيئة لجباية الرسوم التجارية المستحقة كما كانت وظيفة المحتسب فى الأسواق الصليبية من الوظائف الهامة التى ساعدت على توفير الأمن داخل الأسواق وضبط الأحوال السعرية والصحية فى الأسواق، وقد ازدهرت الأسواق الصليبية من الوظائف الهامة التى ساعدت على توفير الأمن داخل الأسواق وضبط الأحوال السعرية والصحية فى الأسواق، وقد ازدهرت الأسواق الصليبية فى ظل الاستقرار الأمنى والسياسى، ولكن هذه الحالة لم تدم طويلا، إذ ساعدت عوامل كثيرة على زعزعة الأمن والاستقرار فى المدن الصليبية فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى والقرن الثالث عشر الميلادى، وارتبطت هذه العوامل بالسلطات الصليبية الحاكمة، من حيث اخفاق هذه السلطات فى التصدى لعلاج هذه الأزمات السياسية والأمنية، فقد ساهمت الجاليات الايطالية فى المدن الصليبية بقدر كبير فى احداث حالة عدم الاستقرار الأمنى فى هذه المدن وخاصة مدينة عكا وصور ، فقد شهدت شوارع عكا فى القرن الثالث عشر الميلادى صراعات دموية بين أفراد الجاليات الايطالية وخاصة بين البنادقة والجنوية[٢]، وقد أدت هذه الصراعات الدموية المتكررة إلى الحاق الضرر بأحياء المدينة، مما أدى بالتالى إلى خراب الزسواق وكسادها ، ففى عام ١٢٦١م أعلن مقدم الداوية عن شكواه بخصوص تقلص التبادل التجارى والذى نتج عن غياب تجار جنوا وحلفائهم عن أسواق عكا اثناء انشغالهم فى حرب القديس لاباس [٣]. ومما يذكر أن السلطات الصليبية لم تستطع أن تضع حدا لهذه الصراعات وذلك لضعف هذه السلطات، فقد كان هذا التنافس بين الجاليات الايطالية فى المناطق الصليبية من الأسباب الجوهرية التى أدت إلى انهيار الوجود الصليبى فى المنطقة العربية [٤].

١- سبق الحديث عن هذه المحاكم التجارية، ص١٨١ - ١٩٠ .

2- Benvenisti, Op. cit., pp. 89, 90 ; Thompson, Op. cit., p. 202 .

3- Smith, " The Government"., p. 111 .

4- De Vitry, Op. cit., p. 67 ; Ludolph, Op. cit., pp. 51,52 .

ويرتبط بالحالة الأمنية أيضا والتى أثرت على الأسواق الصليبية فى مدينة عكا، تلك الصراعات والمشاجرات التى كانت تشهدها شوارع مدينة عكا بين الداوية والاسبتارية [١]، وهما الهيئتان اللتان كانتا بمثابة دولة داخل دولة، فقدأدت الصراعات بينهما إلى اثارة القلاقل والاضطراب فى المدينة، الأمر الذى انعكس اثرها السلبى على حركة الأسواق الصليبية، فانكمشت الأسواق الملكية فى عكا، مما أفسح المجال أمام تطور الأسواق الستة المنفصلة عن محكمة الفندق فى ادارتها بشكل ملحوظ [٢]، وهى أسواق المدن الايطالية الثلاث البندقية وجنوا وبيزا وأسواق الهيئات الدينية العسكرية (الداوية والاسبتارية) وأسواق البروفنساليين، وذلك على حساب الأسواق الملكية فى القرن الثالث عشر الميلادى.

وعلى أية حال فقد اقتبس الصليبيون النظم الادارية الإسلامية الخاصة بتنظيم الأسواق والاشراف عليها، وقد شهدت الأسواق الصليبية رواجا ابان فترة الاستقرار السياسى التى شهدتها المملكة الصليبية والتى استطاعت الأجهزة الادارية خلالها العمل بمهمة ونشاط من أجل توفير حالة الاستقرار فى الأسواق، وقد حل الضعف بالكيان الصليبى من جراء المنازعات بين الحكام ، الأمر الذى أدى إلى نمو قوة التجار الايطاليين فى المدن الصليبية وازدهار أسواقها فى المدن الصليبية على حساب الأسواق الصليبية.

لقد اهتم الحكام الصليبيون بالمحافظة على الهيكل السياسى فقط واهملوا النواحى الاقتصادية وخاصة التجارة التى سيطر عليها الايطاليون مما أدى فى النهاية إلى اهمال الصليبيين للأسواق.

1- Mathew Paris, Op. cit., vol, I, pp. 386, 87 , 456 .

2- Prawer, The Latin kingdom., p. 412 .

الخاتمــة

لقد شهدت المناطق الصليبية فى بلاد الشام العديد من الأسواق نتيجة لتعدد القوى السياسية فى المملكة الصليبية واختلاف المصالح الاقتصادية والمالية فيما بينهم فقد وجدت أسواق للداوية وأسواق للاسبتارية وأسواقا للإيطاليين (البنادقة والجنوية والبيازنة) وأسواقا للتجار البروفنساليين بالإضافة إلى الأسواق الملكية الصليبية وتنافست هذه الأسواق فيما بينها مما خلق نشاطا تجاريا فى المدن الصليبية ، وشهدت فترة الاستقرار السياسى للمملكة الصليبية ازدهار هذه الأسواق واستمر هذا الوضع إلى أن حلت كارثة حطين التى استرد المسلمون بعدها بعض المدن التى احتلها الصليبيون وبالطبع انعكس الوضع السياسى المتدهور للملكة الصليبية على حركة الأسواق فتقلص عددها وأصابها الكساد واهتم الحكام الصليبيون فى الفترة الثانية بالمحافظة على الهيكل السياسى للدولة مع اهمال الجوانب الاقتصادية كالاسواق .

وهكذا استفاد الايطاليون من الوضع السياسى الحرج الذى تعرض له الحكام الصليبيون وساوموا على مصير المملكة الصليبية بما حصلوا عليه من امتيازات سخية مما أدى إلى ازدياد نشاطهم التجارى ورواج أسواقهم فى المناطق الصليبية وخاصة فى مدينة عكا وذلك على حساب الأسواق الملكية الصليبية وخلاصة القول: إن الحركة التجارية فى المناطق الصليبية قامت على اكتاف التجار الايطاليين الذى امتد نشاطهم التجارى إلى الأسواق الإسلامية المجاورة الرائجة فى دمشق وحلب والقاهرة، وعلى أية حال فإن الأسواق الصليبية فى بلاد الشام لم تستطع منافسة الأسواق الإسلامية فى جذب التجار إليها ، فقد كان البناء السياسى والاقتصادى فى المملكة الصليبية هشا الأمر الذى انعكس اثره على حركة الأسواق ولاسيما ابان فترات الضعف .

ملحق رقم (١)

De L'ollice dou mathessep

عن وظيفة المحتسب فى الأسواق الصليبية

L' office don mathessep est que il doit dou matin aler as places , C'est assavoir , a' la boucherie et ;a' ou l'on vende le pain et les vins et autres chozes, et prendre ce garde que aucune fraude ne se face des vendours et des regratiers, et que pain ne faille a' la place , selonc l'ordenement de la court, et la pois dou pain; et ateindre les chozes qui se vendent qui se vendent qui sont afeur , et proprement le pain et le vin , la char et le piosson , selonc le banc crié . L t ensi doit tomer par la ville, pemant ce garde des des dessus dites chozes, et que , se nulle mallefaite se fait, come de forees et larressins et mehlées, lesqués il doit trover et ataindre . Et poar ce il doit avoir entour iuy d'une gent encuzeours et enquerours, Jusques il li ferint assavoir les dessus dites malesfaites que il ne porra sonl tout trover ni ataindre : etcele geat deivent anoir aucune gracede la viscenté pour ce faire. Et especiaument doit ataindre ceaus qui seront encheus des bans , et revenir souvent la' ou il cuidera trover le visconte , a' qui il doit faire assaver el prezenter li toutes celles chozes que il doit faire assaver el prezenter li toutes celles chozes que il aura trové et ataintes. Et trovant aucune persone qui auroit fait malefaite ou fusse acuzEe de disfame , il le doit aouvent aveuc lui , et faire le mener par devant le visconte ce faire li assavoir lormesfait ou lor achaizon . Et se enci ectoit que le visconte fusse en teil leuc ou fust en bezoing , que il ne peust parler a' lui , il doit et peut ele persoune metre en peizon et faire le assavoir au visconte au plus tost que il porra : et ensi peut arester aucune persoune et metre en prizon; mais il ne peut ne io ne doit traire nul deprizon sans le coumandement dou visconte ou de la court. Encores doit il aler o gait de nuyl et en sa compaingnie des sergans ordenés , c'est assaver, il une

---

Beugnot, (ed.)., Assises De Jerusalem, Tome, II, pp. 234 , 44 .

nuyt, et le visconte l'autre . Et toutes les fois que le visconte n'en porra ller o gait , il doit aler pour luy , c'est assaver , toute armé cme sergant a' cheval , Encores doit il conduire avé les serhans celles persounes qui sont jugées jusques a' lor Juyse, si come sont cenus qui doivent uatre frustea on qui doivent perdre vie ou menbre. El cestuy mathessep a auci les sodees dou seignor, de la rente de la visconté. XII. bezans le mois, et part au prouchas des sergans de ce que il ont des ventes et dons et gagieres des heritages.

Beugnot, (ed.)., Assises De Jerusalem, Tome, II . pp. 234-44 .

ملحق رقم (١)

الترجمة

عن وظيفة المحتسب فى الأسواق الصليبية والمهام الملقاه على عاتقه [1]

كان من واجبات المحتسب أن يذهب فى الصباح إلى الحوانيت والدكاكين التجارية، أى إلى حوانيت الجزارة، والمخابز ، وحوانيت بيع النبيذ والسلع الأخرى، وذلك بصحبة حارس من رجال الشرطة لمراقبة عمليات الغش والتدليس التى يرتكبها التجار أو بائعو التجزئة ، كذلك كان على المحتسب أن يقوم بناء على أوامر الملك أو الأمير الصليبى، بمراقبة وزن رغيف العيش كذلك كان يلاحق البضائع والسلع الفاسدة ، ويحول دون بيعها واتلافها أو حرقها ،وخاصة الخبز والنبيذ واللحوم والأسماك. وبناء على ما تقدم، كان على المحتسب أن يتجول فى المدينة مصحوبا بحارس من رجال الشرطة ، يسهر على أمن الأسواق، فيقوم بفض المشاجرات ، والقبض على اللصوص، ومثيرى الشغب والأشقياء . فكان المحتسب يبحث عن اللصوص ، يطاردهم ويلاحقهم ، ولتأدية مهام وظيفته تواجد فى خدمته بعض الموظفين المساعدين ، فبعضهم كان يقوم بجمع التحريات والمعلومات، حتى يتمكنوا من القبض على المخالفين ، إذ أن المحتسب ليس باستطاعته بمفرده أن يؤدى كل هذه الأعمال التى تتطلب البحث والملاحقة ، وكان هؤلاء الناس من الموظفين المساعدين لايتمتعون بأية امتيازات يمنحها لهم الفيكونت (نائب الكونت) .

وكان على المحتسب أيضا ملاحقة الباعة الذين يقيمون برفع الأسعار أى مراقبة التسعيرة وحين يلتقى بالفيكونت يخبره ، ويقدم له تقريرا عن كل المخالفات التى تمكن من ضبطها وملاحقتها .

وعندما كان المحتسب يجد شخصا ما قد ارتكب مخالفة أو ناله الاتهام، فانه كان يقوده إلى رجل من رجال الشرطة «الرقباء» الذين كانوا دائما بصحبته أثناء تجواله. ثم يتم اقتياد المتهم إلى الفيكونت، حيث يتم محاكمته بعد الوقوف على أنواع التهم والمخالفات التى

1- Beugnot, Assise De Jerusalem., p. 234 , 34 .

ارتكبها الجانى. ومما يذكر أن الفيكونت كان يأخذ بكلام المحتسب ، وليس بكلام الجانى، وهكذا كان المحتسب بامكانه أن يزج بالجانى فى السجن ، وهكذا كان فى سلطة المحتسب القاء القبض على أى شخص ويضعه فى السجن. إلا أنه لايمكنه اخراج أى شخص من السجن إلا بأوامر صادره عن الفيكونت (نائب الملك أو الكونت)، أو البلاط الملكى مباشرة.

كما كان من مهام المحتسب الصليبى أيضا مراقبة الأسواق ليلا، وذلك بمساعدة بعض الرقباء أو رجال الشرطة الخاضعين له، وكانت الرقابة الليلية مقسمه بينه وبين الفيكونت الآخر، كل منهما ليلة، وإذا تعذر على الفيكونت الذهاب لتأدية مهمة الرقابة الليلة، فإنه لسبب ما كان على المحتسب أن يحل محل الفيكونت فى القيام بهذه المهمة، ولذا كان يحرس المحتسب فى أداء مهامه الوظيفية رقيب مسلح يمتطى صهوة جواده .

كذلك كان من واجبات المحتسب أن يسلم إلى رجال الشرطة «الرقباء» أو السرضدارية كل الأشخاص المحكوم عليهم بقضاء عقوبة ما، حتى يقودهم إلى المكان الذى سيقضون فيه العقوبة . كذلك الأشخاص المحكوم عليهم بعقوبة الاعدام، كان على المحتسب متابعتهم . كما عان عليه أيضا أن يدفع المبالغ التى قام بتحصيلها من رسوم الأسواق والايجارات الى الأمير، وكان مرتب الفيكونت اثنى عشر بيزنتا فى الشهر، وكان له نصيب ناتج عن عمليات بيع المحجوزات، وجزء من متحصلات البيع .

ملحق رقم ٢

Dou Serement dou mathessep

LeSerement dou mathessep . Il doit Jurer que il gardera et sauvera les drois et les raizons dou roi et les hennours de la cort et dou visconte, et de faire assavoir au Visconte toutes les chozes qui vendront par devant lui et toutes celles qui li Seront faites assavoir qui a' la seignerie apartienent; de faire son servize bien et loyalment a' son pooir .

ملحق رقم ٢

"Dou Serement Dou methessep"

تعهد المحتسب

كان المحتسب يقسم على أن يقوم بحماية وتنفيذ القوانين الملكية والمحافظة على الحقوق الممنوحة للتاج، وأن يعمل مخلصا من أجل المحكمة البرجوازية والفيكونت ، وأن يعترف على كل التجار الذين يقومون بأعمال البيع والشراء بين يديه فى المنطقة التابعة للفيكونت، وأن يعتاد على معرفة كل ولاية اقطاعية كل على حدة، وأن يؤدى الخدمات التى تزيد ثروة سيده بصدق وأمانه .

1- Beugnot, (ed.)., Assises De Jerusalem, Tome , II, p. 238 .

ملحق رقم ٣

Taxes of The kingdom of Jerusalem

The following list of taxes gives some idea of the commerce in the eastern Mediterranean. The Letters B. and K. stank for the coins called besant andkarouble.

1- The old duties command that one should take at the custom house for the sale of silk for every hundred B., 8 B. and 19 k., as duty.

2- For the duties on cotton the rulecommads that one should take per hundred, 10 B. and 18 L. as duties.

3- For the duties of pepper the rule commands that one should tale per hundred 11 B. and 5K. as duties.

4- For cinnamon the rule commands that one should take per hundred B., II B. and 18 K. as duty.

5- For wool the rule commands that one should take per hundred B., II, B. and 10 K. as takes.

6- For the duties of alum the rule commands that one should take per hundred, 11, B. and 5 K as duties.

(Duty is stipulated for varnish . nutmegs and nutmeg leaves, flax, cloves and leaves of cloves, and Indian hens).

12- For the wares which are brought by sea from the coas of Syria and Which cannot be sold the rule is that they can be withdrawn and taken out of the country, but if the-merchandis, wich cannot be sold be taken out beyond the chain they must paid per hundred for as much as then be in the country 8 B. per hundred, and for that wich may been sold duty must be paid to the custom house accirding that which is established for each kind and which one would have to pay. and be it understood that these duties shall by paind by the Saracens and by all the Syrians who may come with wares into this kingdom.

13- For the duties on musc the rule commands that one should take per hundred B. and 1/3 as duty.

14- For the duties on musc the rule commands that one should take per hundred B. 8 B. and 1/3 as duty .

15- For the duties on sugar for that which is imported and exported by land and by sea , the rule commands that one should take per hunder, 5 B. as duty .

16- For the duties per cael's load of Sugar the rule commands that one should take 4 B. as duty .

17- For the duty on sugar which is brought by beasts of burden the rule commands that one should take I raboin par load as duty .

18- For all things which are exported by land to be taken to the Paynlms the rule commands hat one should take as duty per Besant 1 K.

(Dury is stipulated for flax intransit imported from babylon to Damascus , salt, fish imported from Babylon, alcana, all the spices of retail shop- Keepers, sesamum, oil of sesamum. incense, cardemoine, iovry, sarcocoll, galega, twugs and leaves of lavender myrodolan, cinnamon , rhubarb , ginger, camphor, borage , aspic, gariophylus; an internal tax is fixed for ammonia, Nabeth sugar, dates, duty on emery (saracen and Syrian licorice . Camphor root; straps and sadies exported from Jeruslem; an internal tax on Yellow sulfur of arsenic duty on libanotis).

49- It is understood that rule contmands that one should take on all planks and beams which are exported by land , as duty the quarter of what they cost .

50- It is understood that the rule commands that one should take as duty on planks used to construct threshing floors the tenth of what they cost .

51- It is understood that the rule commands that one should take upon salt fish exported from the city the quarter of what it cost as dity .

(Duty or an internal taxor both are stipilated for fruit , hens , rafters, olives , wine , Damascus thread , senna, red currants, shoes bought by Saracens , wheat , egge hens and pullets, imported goats, geese oil nut gall, imported wool, wax and pens).

ملحق رقم ٣

Dwns, Basic Documents in Medieval History, pp. 152-54

الضرائب التجارية فى مملكة بيت المقدس الصليبية[١]

قائمة الضرائب الآتية تعطى بعض الفكرة عن التجارة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، ومما يذكر أن حرف B يعنى البيزنت ، والحرف K يعنى كرويل أو كارويل

البيزنت = ٢٤ كارويل

القائمة

هذه قائمة بالضرائب القديمة التى كانت تدفع فى مملكة بيت المقدس على السلع والبضائع المستوردة والمصدرة.

١- ضريبة الحرير:

كانت الضريبة المقررة على السلع الحريرية مقدارها ٨ بيزنت و١٩ كارويل ، عن المبيعات التى قيمتها ١٠٠ بيزنت أى مقدار الضريبة $\frac{١٩}{٢٤}$ ٨ ٪ .

٢- ضريبة السلع القطنية :

كانت الضريبة القمررة على الملابس القطنية تقدر بـ ١٠ بيزنت و١٨ كارويل عن المبيعات التى قيمتها ١٠٠ بيزنت أى $\frac{١٨}{٢٤}$ ١٠٪ .

٣- ضريبة الفلفل:

كانت ضريبة الفلفل ١١ بيزنت ، ٥ كارويل عن المبيعات التى قيمتها ١٠٠ بيزنت أى $\frac{٥}{٢٤}$ ١١٪ .

٤- ضريبة القرفة :

وكانت ضريبة القرفة ١٠ بيزنت و١٨ كارويل عن المبيعات التى قيمتها ١٠٠ بيزنت أى $\frac{١٨}{٢٤}$ ١٠٪ .

1- Downs, Basic Documents in Medieval History, pp. 252 , 54 .

٥- ضريبة الملابس الصوفية :

ضريبة الصوف بيزنت و١٠ كاروبل وعن المبيعات التى قيمتها ١٠٠ بيزنت أى $\frac{١٠}{٢٤}$ ١١٪

٦- ضريبة الشبة + (جوزة الطيب - القرنفل- الكتان - الأسماك الهندية)

وكانت الضريبة المقررة على الشبه تقدر بـ- ١١ بيزنت و٥ كاروبل عن المبيعات التى قيمتها ١٠٠ بيزنت أى $\frac{١٠}{٢٤}$ ١١٪ ، وكانت مثل هذه الضريبة مقرر على سلع أخرى مثل جوزة الطيب، وأوراق جوزة الطيب والكتان والقرنفل والأسماك الهندية .

١٢- وبالنسبة للسلع والمتاجر التى كانت تحضر إلى المملكة الصليبية عن طريق البحر من ساحل بلاد الشام والتى كانت لاتباع ،فإنه فى هذه الحالة كان يمكن سحب هذه السلع إلى خارج القطر، ولكن فى حالة، ما إذا كانت هذه السلع والمتاجر التى لتباع قد وصلت فى طريقها إلى ما وراء ميناء السلسلة البحرى، فإنه كان يجب دفع رسوم قدرها ٨٪ ، وبالنسبة للسلع والبضائع التى يمكن بيعها ، فإنه كان يدفع عنها الضرائب طبقا لما تقرر على كل نوع من أنواع السلع وطبقا لما هو معروف ، فإن هذه الضرائب كان يدفعها التجار المسلمون الذين كانوا يأتون بتاجرهم إلى أسواق المملكة الصليبية .

١٣- ضريبة العنب :

كانت ضريبة العنب تقدر بـ $\frac{١}{٣}$ ٨ .

١٤- ضريبة نبات الصبر المر:

كانت الضريبة $\frac{١}{٣}$ ٩٪

١٥- ضريبة السكر :

وبالنسبة لضريبة السكر المستورد أو المصدر ، فق كانت قيمتها ٥٪ من قيمة المبيعات .

١٦- ضريبة السكر الذى كان يأتى على ظهور الدواب :

كانت الضريبة روبن واحد عن كل حمل من السكر.

١٧- ضريبة حمل حمل من السكر:

كانت الضريبة المفروضة على حمل من السكر تقدر بـ ٤ بيزنت .

١٨- وبالنسبة للسلع والبضائع التى كانت تصدر إلى الأقطار الإسلامية المجاورة عن طريق

القوافل التجارية البرية. فإنه كان يفرض عليها ضريبة مقدارها كارويل واحد عن كل بيزنت من قيمة السلعة أى ضريبة قدرها $\frac{١}{٢٤}$ ، ونفس القيمة من الضريبة كانت تفرض على الكتان المستورد من مصر والذى كان يذهب إلى دمشق عبر أراضى المملكة الصليبية. وكذلك السمك المملح المستورد من مصر، وكل البهارات التى كانت تباع فى الدكاكين بالتجزئة والسمسم، وزيت السمسم ، والبخور ، والعاج والقرفه ، والزنجبيل والكافور، وعشب لسان الثور، والخزامى عريض الورق، وكانت تفرض ضريبة داخلية محددة على النشادر ونبيذ السكر ، والبلح، وضريبة على الصنفره (وكان العرقسوس الشامى تفرض عليه ضريبة أعلى من الضريبة المفروضة على العرقسوس الفرنسى)، وكبريت الزرنيخ ، والكافور وسروج الخيول والأحزمه والأربطه التى كانت تصدر إلى مملكة بيت المقدس الصليبية ، كما كانت هناك ضريبة على كبريت الزرنيخ الأصفر الذى كان يجلب من لبنان .

٤٩- ومن المتفق عليه أن الضريبة المقررة على الألواح الخشبية المستخدمة فى بناء السفن كانت مقدارها ٢٥٪ من قيمتها، بينما كانت الضريبة المفروضة على الألواح الخشبية المستخدمة فى بناء الأدوار العليا من المنازل قيمتها ١٠ ٪ من قيمتها وتكلفتها، وكانت ضريبة الألواح الخشبية المستوردة المستخدمة فى بناء المنازل تقدر بـ ١٠ ٪ من قيمتها .

٥٠- ضريبة السمك : ومن المتفق عليه أن الضريبة التى كانت مقررة على السمك المملح الذى كان يأتى إلى المدينة عن طريق الاستيراد كانت مقدارها ٢٥٪ من قيمة المبيعات.

وكانت ثمة رسوم وضرائب داخلية على الفواكه والأسماك والعوارض الخشبية والزيتون، والنبيذ، وخيوط غزل دمشق، والسنامكى والزبيب أو العنب الأحمر، وحدوات الخيول التى كان يبيعها المسلمون، والقمح والبيض والدجاج، والدجاج الصغير ، والماعز المستورد، والأرز والزيت، والبندق الأصفر، والصوف والمستورد، والشمع ، وأنثى الأوز العراقى.

المصادر العربية

١- ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكريم، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م) .

- الكامل فى التاريخ ، المجلد العاشر، بيروت ١٩٦٦ .

٢- ابن الأخوه (محمد بن محمد أحمد القرشى ، ت ٧٢٩هـ) .

- كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة ، عنى بنقله وتصحيحه روبن ليفى، كمبردج، ١٩٣٧م.

٣- ابن الجوزى (أبو المظفر بن قيزوغلى المغروف بسبط بن الجوزى، ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٧)

- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، القسم الثالث، الطبعه الأولى، حيدر آباد- الدكن - الهند ١٩٥١م.

٥- ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم ، ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)

- زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ٣ أجزاء، تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٥١م.

٦- ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة ، ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) .

- ذيل تاريخ دمشق، نشرة أمدروز ، بيروت ١٩٠٨م.

٧- ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد ، ت ٩٣٣هـ/ ١٥٢٤م)

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور (طبعة بولاق ١٣١١هـ، جـ٣ - جـ٥، تحقيق د. محمد مصطفى، جمعية المستشرقين الألمانية، القاهرة ١٩٦٣-١٩٦٠).

٨- ابن بطوطة (أبو عبدالله محمد بن محمد بن ابراهيم اللوائى)

- تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٤ .

٩- ابن بعرة (منصور بن بعرة الذهبى الكاملى، ت ، ب-ت هـ) .

- كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق د. عبد الرحمن فهمى، القاهرة ١٩٦٦م) .

١٠- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد الكنانى الأندلسى ، ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م)

- رحلة ابن جبير المعروفة باسم تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار- دار الكتاب اللبنانى- بيروت لبنان- دار الكتاب المصرى، القاهرة - بدون تاريخ .

١١- ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى ، ت بعد ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)

- المسالك والممالك - طبعة ليدن ١٨٧٢م.

١٢- ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبه ، ت سنة ٣٠٠هـ) .

- كتاب المسالك والممالك - بغداد - بدون تاريخ .

١٣- ابن خلدون (عبد الرحمن محمد بن خلدون ، ت٨٠٨هـ) .

- المقدمة، المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣٢١هـ.

١٤- ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى، ت القرن التاسع الهجرى) .

- زبدة كشف الملك - وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس روايى، باريس ١٨٩٢م.

١٥- ابن على الدمشقى (أبو الفضل جعفر بن على الدمشقى من علماء القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى) .

- الإشارة إلى محاسن التجارة ، تحقيق البشرى الشوربجى، الطبعة الأولى، الاسكندرية ، ١٩٧٧م.

١٦- ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف ، ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م) .

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق د. جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى- القاهرة ١٩٦٢م.

١٧- ابن شداد (عز الدين أبى عبدالله محمد بن على ابراهيم، ت ٦٤٨هـ).

- الأعلاق الخطيرة ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.

١٨- ابن مماتى (أبوالمكارم أسعد بن الخطير ، ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م) .

- قوانين الدواوين، تحقيق د. عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣م).

١٩- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) .

- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج١-٣ ، تحقيق تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣-١٩٦٠، جـ٤ تحقيق د. حسنين ربيع ط. القاهرة سنة ١٩٧٢م.

٢٠- أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل ، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)

- تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠م .

- المختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء فى مجلدين، دار المعرفة ، بيروت .

٢١- أبوشامة (عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان ، ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٨م) .

- الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان فى مجلدو احد دار الجيل، بيروت.

٢٢- أسامة بن منقذ (أبو المظفر بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر ، ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)

- كتاب الاعتبار، نشره وحققه د. فيليب حتى، ط. برنستون سنة ١٩٣٠م.

٢٣- الادريسى (أبو عبدالله محمد ابن ادريس ، ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٠م) .

- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، روما ١٨٧٨م.

٢٤- الاصطخرى (أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرخى، المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) .

- المسالك والممالك ، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحينى، طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م.

٢٥- الأنصارى الدمشقى (شمس الدين أبى عبدالله محمد أبى طالب الأنصارى الصوفى الدمشقى «شيخ الربوة» .

- نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، طبعة ليبزج سنة ١٢١٨هـ / ١٨٦٥م.

٢٦- البندارى (الفتح بن على البندارى).

- سنا البرق الشامى، من كتاب البرق الشامى للعماد الكاتب الأصفهانى تحقيق د. فتحية النبراوى، ط. القاهرة سنة ١٩٧٩م.

٢٧- الحريرى (أحمد بن على الحريرى،) .

- الاعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق د. سهيل ذكار ، ط. دمشق سنة ١٩٨١م.

٢٨- الشيرزى (عبد الرحمن بن نصر الشيرزى).

- نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، قام بنشره د. السيد الباز العرينى، القاهرة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

٢٩- القزوينى (زكريا بن محمد بن محمد القزوينى ، ت ٦٨٢هـ/ ١٢٣٨م)

- آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت سنة ١٩٦٠م .

٣٠- القطب اليوننى (الشيخ قطب الدين أبى الفتح موسى بن محمد أحمد بن قطب الدين البوينى البعلبكى الحنبلى، ت سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٢٦م) .

- ذيل مرآة الزمان، الطبعة الأولى، حيد راباد - الدكن الهندسة ١٩٥٤م.

٣١- القلقشندى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على، ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) .

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزءا فى ٧ مجلدات ، ط. القاهرة سنة ١٩١٣) .

- نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبيارى، الطبعة الثانية، القاهرة، سنة ١٩٨٠م .

٣١- الماوردى (على محمد حبيب الماوردى ، ت سنة ٤٥٠هـ) .

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الطبعة الأولى، القاهرة سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٣٣- المقدسى (أبو عبدالله محمد بن البشارى، توفى حوالى عام ١٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) .

- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم- ط. ليدن سنة ١٩٠٦م .

٣٤- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١-١٤٤٢م) .

- السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١- ٢ (٦أقسام) ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧م- ١٩٧٠م.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار- الجزء الثانى، دار صادر ، بيروت .

٣٥- المؤرخ المجهول :

- حوليات دمشقية ، نشر وتحقيق د. حسن حبشى ، القاهرة سنة ١٩٦٨م.

٣٦- المؤرخ المجهول :

- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة د. حسن حبشى ، القاهرة سنة ١٩٦٨م.

٣٦- المؤرخ المجهول :

- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة د. حسن حبشى، دار الفكر العربى ، القاهرة سنة ١٩٥٧ .

٣٧- بنامين التطيلى (رحلته ٥٦١هـ- ٥٦٩هـ/ ١١٦٥-١١٧٣م) .

- رحلة بنيامين - ترجمها عن العربية عذرا احداد - ، بغداد ١٩٤٥م .

٣٨- جوانفيل : (مؤرخ سيرة الملك لويس التاسع) :

- القديس لويس وحملاته على مصر والشام، ترجمة د. حسن حبشى القاهرة ١٩٦٨ .

٣٩- صالح بن يحيى : (ت ٨٣٩-٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م) .

- تاريخ بيروت، نشره لويس شيخو، طبعة بيروت سنة ١٩٢٧م.

٤٠- عبداللطيف البغدادى (موفق الدين عبد اللطيف ، ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) .

- كتاب الافادة والاعتبار، نشره وعلق عليه دى ساس ، ط. القاهرة بدون تاريخ.

٤١- عماد الدين الأصفهاني (أبو عبدالله محمد ، ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) .

- الفتح القسي في الفتح المقدسي، تحقيق محمد صبيح ، ط. القاهرة ١٣٢١هـ.

٤٢- ماركوبولو (ولد حوالي ١٢٤٥م، ت سنة ١٣٢٤م)

- رحلات ماركوبولو ترجمها إلى الانجليزية وليم مارسدن ، وترجمها إلى العربية عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٧م.

٤٣- مجير الدين الحنبلي (قاضي القضاة أبو اليمن، عاش في القرن العاشر الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي) .

- الأنس الجليل بتاريخ القدس والجليل ، جزءان ، الجزء الأول، عمان الأردن ١٩٧٣م، الجزء الثاني، بغداد ١٩٧١م.

٤٤- ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) .

- سفر نامة،نقله إلى العربية د. يحيى الخشاب، ط. القاهرة سنة ١٩٤٥م.

٤٥- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبوعبدالله الحموي الرومي ، ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٩م).

- معجم البلدان، الجزء الثالث والرابع ، دار صادر، بيروت .

المراجع العربيـة :

١- ابراهيم على طرخان :

النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، القاهرة ، ١٩٦٦م.

٢- أحمد رمضان أحمد:

المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٧٧م.

٣- أحمد عبد الرازق محمد:

تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، مكتبة سعيد رأفت القاهرة ١٩٨٣م.

٤- أسامة زكى زيد :

صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، ١٩٨١م.

٥- اسماعيل محمد هاشم :

مقدمة فى علم الاقتصاد ، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٩م.

٦- الأب لامنس اليسوعى:

الحياة فى بيروت على عهد الصليبيين، بحث مستخرج من مجلة الشرق، مجلد ٣١ ، بيروت ١٩٣٣م.

٧- أمينة محمد على بيطار :

الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة فى بلاد الشام منذ قيام الخلافة العباسية وحتى الفتح الفاطمى، دكتوراه غير منشوره، آداب القاهرة ١٩٧٥ .

٨- السيد الباز العرينى :

الحضارة والنظم الأوربية فى العصور الوسطى، النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٣.

٩- الشيخ الأمين محمد عوض الله :

أسواق القاهرة منذ العصور الفاطمى حتى نهاية عصر المماليك، دكتوراة غير منشوره ، آداب عين شمس ١٩٨١ .

١٠- توفيق اسكندر :

بحوث فى التاريخ الاقتصادى، القاهرة ١٩٦١م.

١١- جمعه محمد مصطفى الجندى:

حياة الفرنج ونظمهم فى الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد ، دكتوراه غير منشوره ، آداب عين شمس ١٩٨٥ .

١٢- جوزيف نسيم يوسف :

١- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، الاسكندرية ١٩٦٧ .

٢- دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، الاسكندرية ١٩٨٣م.

٣- تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها ، الاسكندرية ١٩٨٤ .

٤- الإسلام والمسيحية ، الطبعة الأولى، الاسكندرية ١٩٨٦ م .

١٣- حسن حبشى :

١- الشرق العربى بين شقى الرحى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٤٩ .

٢- الحرب الصليبية الأولى، الطبعة الثانية، دار الفكر العربى القاهرة ١٩٥٨ .

١٤- حسنين محمد ربيع :

النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين، القاهرة ١٩٦٤م.

١٥- حسين محمد سليمان :

مدينة دمشق من سقوط الخلافة الأموية حتى زوال السيادة الفاطمية، دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة ١٩٧٦م.

١٦- حسين محمود الشافعى:

العملة وتاريخها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٠م .

١٧- حمدان عبد المجيد الكبيسى:

أسواق بغداد حتى نهاية العصر البويهى ، دكتوراه غير منشورة ، آداب القاهرة، دار الكتاب اللبنانى، ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٦م.

١٨- زكى النقاش :

العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج، بيروت ١٩٤٦م.

١٩- زكى محمد حسن:

الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة.

٢٠- رأفت محمد محمد النبراوى :

المسكوكات الصليبية فى مصر والشام، ماجستير غير منشورة ، كلية الآثار- جامعة القاهرة ١٩٧٩م.

٢١- رشاد الإمام :

مدينة القدس فى العصر الوسيط ، تونس ١٩٧٦م.

٢٢- سامى سلطان سعد:

أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الايطالية من ١١٠٠-١٤٠٠م ماجستير غير منشورة ، آداب القاهرة ١٩٥٨م.

٢٣- سر الختم عثمان :

مدينة صور فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، دكتوراه غير منشورة آداب القاهرة ١٩٧١م.

٢٤- سعيد عبد الفتاح عاشور:

١- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢م.

٢- أوربا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسى، الانجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤ .

٣- أضواء جديدة على الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٦٤م.

٤- العصر المماليكى فى مصر والشام، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٥م.

٥- الحركة الصليبية، الجزء الأول ، الانجلو المصرية، الطبعة الثالثة ١٩٧٥م.

٦- أوربا العصور الوسطى، الجزء الثانى. النهضات والحضارة والنظم الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٥ .

٢٥- سهام مصطفى أبوزيد :

الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية عصر المماليك ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦م.

٢٦- سيده اسماعيل كاشف:

دراسات فى النقود الإسلامية ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية مجلد ١٢، لسنة ١٩٦٤، ١٩٦٥م.

٢٧- صبحى ينى لبيب :

١- سياسة مصر التجارية فى عصر الأيوبيين والمماليك ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية مجلد ٢٨، ٢٩ لسنة ١٩٨١، ١٩٨٢م.

٢- الفندق ظاهرة سياسية واقتصادية وقانونية ، بحث مستخرج من ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، آداب القاهرة مارس ١٩٨٥م.

٢٨- صفوح خير :

مدينة دمشق، دراسة فى جغرافية المدن، دمشق ١٩٨٢م.

٢٩- عادل سليمان زيتون :

العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، بحث فى النشاط التجارى للجمهوريات الايطالية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ق١٣ ، ١٤ ، طبعة أولى، دمشق ١٩٨٠م.

٣٠- عبد الحفيظ محمد على:

الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة.

٣١- عبد الحميد زايد:

القدس الخالدة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤م.

٣٢- عبد الرحمن فهمى محمد:

النقود العربية ، ماضيها وحاضرها، القاهرة ١٩٦٤م.

٣٣- عبد العزيز محمود عبد الدايم:

امارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، ماجستير غير منشورة آداب القاهرة ١٩٧١م.

٣٤- عفاف سيد صبره :

العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠م، النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٣م.

٣٥- على السيد على:

١- المجتمع المسيحى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، ماجستير غير منشوره ، آداب القاهرة ١٩٧٩م.

٢- القدس فى العصر المملوكى، دار الفكر للدراسات، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٦م.

٣٦- عليه عبد السميع الجنزورى :

امارة الرها الصليبية ، القاهرة ١٩٧٥م.

٣٧- عمر كمال توفيق :

١- مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية ١٩٥٨م.

٢- الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، الاسكندرية

١٩٨٦م.

٣٨- فايد حماد عاشور :

العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامى فى العصر الأيوبى، دار المعارف.

٣٩- قاسم عبده قاسم :

١- أسواق مصر فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ، ١٩٧٨م.

٢- دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

٣- الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، الطبعة الأولى، دار المعافر القاهرة ١٩٨٣م.

٤٠- قدرى قلعجى :

صلاح الدين الأيوبى، دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٧٩م.

٤١- ليلى قاسمى طرشوبى :

اقليم الجليل فى العصر الصليبى، دكتوراه غير منشوره، آداب القاهرة ١٩٨٨ .

٤٢- محمد خليل مرعى:

مقدمة فى النقود والبنوك ، نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٧ .

٤٣- محمد ضياء الدين الريس :

الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، الطبعة الرابعة، دار الأنصار، القاهرة ، ١٩٧٧م.

٤٤- محمد جمال الدين سرور :

١- النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق، القاهرة، ١٩٦٤م.

٢- تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٧٦م.

٤٥- محمد عبد الستار عثمان :

المدينة الإسلامية ، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٨، الكويت اغسطس ١٩٨٨م.

٤٦- محمد كرد على:

خطط الشام، ٦ أجزاء ، مطبعة الترقى، دمشق ١٩٢٦م.

٤٧- محمد محمود الحويرى:

الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، دار المعارف القاهرة ١٩٧٩م.

٤٨- محمد نافع مبروك :

تاريخ العرب - المجلد الأول، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٩م.

٤٩- محمد محمد مرسى الشيخ :

الامارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر من الميلاد، الاسكندرية ، ١٩٨٠م.

٥٠- محمود ياسين التكريتى:

الأيوبيين فى شمال الشام والجزيرة ، دكتوراه غير منشورة ، آداب القاهرة ١٩٧٥م.

٥١- مصطفى حسين محمد الكنانى:

العلاقات بين جنوا والفاطميين فى الشرق الأدنى ١٠٩٥م/ ١١٧١م.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية ١٩٨١م.

٥٢- مهجة السيد عبد العال:

العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام من خلال كتب الرحالة الأجانب والمسلمين ، ماجستير غير منشورة، آداب الاسكندرية ، ١٩٨٧م.

٥٣- نبيلة ابراهيم مقامى :

فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣ م، ماجستير غير منشوره ، آداب القاهرة ١٩٧٥م.

٥٤- نظير حسان سعداوى:

١- التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى، النهضة المصرية ١٩٥٧م.

٢- الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦١م.

٥٥- نعيم زكى فهيم :

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، القاهرة ١٩٧٣م.

٥٦- يوسف حسن درويش غوانمه :

١- التاريخ الحضارى لشرق الأردن فى العصر المملوكى ، الطبعة الثانية ، عمان ، ١٩٨٢م.

٢- امارة الكرك الأيوبية، دار الفكر ، الطبعة الثانية؛ عمان ، ١٩٨٢م.

المراجع الأجنبية المعربة :

١- آدم متنر :

الحضارة الإسلامية، المجلد الثانى، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبوريدة ، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٦٧م.

٢- أرشيبالد لويس :

القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٠م.

٣- ارنست باركر :

الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العرينى، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠ .

٤- جوستاف لوبون :

حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٦٩م.

٥- ستيفان رنسيمان :

تاريخ الحروب الصليبية، ثلاثة أجزء :

الجزء الأول ترجمة د. السيد الباز العرينى ، بيروت لبنان .

الجزء الثانى ترجمة د. السيد الباز العرينى ، ط٢ بيروت ١٩٨٢م.

الجزء الثالث ترجمة د. السيد الباز العرينى، بيروت ١٩٨٤م.

٦- سونيا . ش هاو :

فى طلب التوابل ، ترجمة محمد عزيز رفعت ، مكتبة نهضة مصر، القهرة ١٩٥٧م.

٧- سيد أمير على:

مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيفى البعلبكى ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٦١م.

٨- عزيز سوريال عطية :

العلاقات بين الشرق والغرب (تجارية - ثقافية - صليبية) ترجمة د. فيليب صابر ، طبعة أولى، دار الثقافة المسيحية، القاهرة ١٩٧٢م.

٩- فلهلم هايد:

تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا مراجعة د. عز الدين فوده، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٥م.

١٠- فيليب حتى :

١- تاريخ لبنان، ترجمة د. أنيس فريحة ، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٢ .

٢- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال البازجى،بيروت ١٩٥٩م.

١١- ميخائيل زابوروف:

الصليبيون فى الشرق ، ترجمة الياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ١٩٨٦ .

١٢- نورمان كانتور :

تاريخ العصور الوسطى، قصة حياة حضارة ونهايتها، جزءان :

- الجزء الأول ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، مكتبة سعيد رأفت ، الطبعة الأولى، القاهرة١٩٧٧م.

- الجزء الثانى، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، الطبقة الأولى، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١م.

١٣- وول ديورانت :

قصة الحضارة ، جـ٤ ، ترجمة محمد بدران ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٥م.

١٤- يوشع براور :

عالم الصليبيين، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، د. محمد خليفة حسن، الطبعة الأولى ، دار المعارف لقاهرة ١٩٨١م.

الدوريات :

١- المشرق ، مجلة كاثوليكية تصدر مرتين فى الشهر برسوم وتصاوير عند اللزوم، السنة الثامنه ، بيروت ١٩٠٥م.

٢- المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١٢ لسنة ١٩٦٤، ١٩٦٥، المجلد ٢٨، ٢٩ لسنة ١٩٨١، ١٩٨٢ .

المصادر والمراجع الأجنبية

المصادر الأجنبية

1- Anonymous ,The City of Jerusalem , in Palestine Pilgrims Text Society (P.P.T.S.), vol ., VI London , 1896 .

2- Anonymous Pilgrims, in P.P.T.S, vol., VI ,London , 1987 .

3- Beugnot, (ed.); Assises Des Jerusalem, Tome,II, Cf Recueil Des Historiens Des Croisades, Paris, 1883 .

4- Burchard of Mount Sion, A Description of the Holy Land , in P.P.T.S., vol , VI, XI, London, 1896 .

5- Casola, P. canon Casola's Pilgrimage to Jerusalem, Manchester, 1907 .

6- Danial , The Pilgrimage of Russian Abbot Danial in the Holy Land 1106-1107 A.D., in P.P.T.S., vol ., IV, London, 1895 .

7- Downs, Norton, (ed.), Basic Documents in Medieval History New York, 1959 ..

8- Fabri , Filix , (Circa 1480-83), The Book of the Wandaring of Brother Filix Fabri , Translated, by Aubrey Stewart , in P.P.T.S., vol ., IV, London, 1897 .

9- Fetellus , Description of Jerusalem and the Holy Land , in P.P.T.S., vol ., Vi, London , 1897 .

10- Pulcher of Charter , A History of the Expedition to Jerusalem 1095- 1127, Translated by , F.R. Ryan, Knoxville, 1969 .

11- Komroff , Manuel, (ed.), The Oriental Travels of Rabbi Benjamin of Tudela (1160-1173 A.D.). London 1928 .

12- Matthew paris, English History from the Year 1235 to 1273. Translated by the Rev. J.A. Ciles, D.C.L. 3 vols, London, 1852 , 3,4 .

ocas , J., The Pilgrimage of J. Phocas inthe Holy land , in P.P.T.S., vol ., V, Lon-

don, 1896 .

14- Saewulf's Pilgrimage to Jerusalem and the Holy Land, in . P.P.T.S., vol ., VI, London , 1896 .

15- Sanuto , M., Secrets for true Crusaders to help them to Recover the Holy lamd , in . P.P.T.S., vol , XII, London , 1895 .

16- Sucheme, Ludolph von, Description of the Holy Land and the Way Thither (A.D. 1350), in. P.P.T.S., vol , XII , London , 1895 .

17- Theoderich, S., Description of the Holy places, in P.P.T.S., vol, V., London , 1896 .

18- Vitry , de . J., The History of Jerusalem, in P.P.T.S., Vol., XI, London, 1896 .

19- William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, 2 vols , Translated by B. Bebcock and A.C. Kery, New York, 1976 .

20- Wright , homas , (ed.), Broquire , in Early Travels in Palestine , London, 1884 .

21- Wurzburg, J., Descriotion of the Holy Land , in P.P.T.S., vol, V, London , 1896 .

المراجع الأجنبية :

1- Ashtor , E., Resent Research in Levantine Trade , Cf Journal of SuropeanEconomic History, vol., 2, Number, I, Spring, 1973 .

2- Belloc, Hilaire , The Crusades, The World's Debat, London, 1937 .

3- Benvenisti, M., The Crusaders in the Holy Land , Jerusalem, 1970 .

4- Bridbury, (A.R.), markets and Freedom in the Middle Ages Cf , The Market in History , (ed)., by B.L. Andreson, London, 1984 .

5- Block , Mark , Land and Work in Medieval Europe, New York 1967 .

6- Byrne, E. H., " Easterners in Genoa ", Cf Journal of the Economic and Social History of orient, XXXVIII, (1918) , pp. 176-187 .

- " Genoese Trade with Syria in the Twelfth.

- Century Cf, American History Review XXV (1919-1920), pp. 191-219 .

- Genoese Shipping in the Twelfth and thirteenth Centuries , Cambridhe, 1930 .

- " The Genoese Colonies in Syria", in the Crusade and Other Historical essays presented to D.C. Munro ed. by L.J. paeton (New Yrok 1968).

- Cenury Cf, Anrican Hisory review XXV (1919-192), pp. 191-219 .

7- Cahen, C., La Syrie Du Nord Al Epoque De Croisades, paris, 194 .

8- Cipla, C.M., Mony , Prices , and Civilization in Mediterranean World , Fifth to SeventhCentury , Prencton, 1926 .

9- Conder , the Latin kingdom of Jerusalem 1099-1291, A.D., London, 1897 .

- The City of jerusalem, London, 1909 .

10- Coulton, the Medieval Scene, Cambridge, 1959.

- Life in the Middle Ages, vol, IV , Cmbridhe, 1954 .

11- Dahmas, J., Seven Medieval Historians , Chicago, 1982.

12- Heard, Niegel. , The Dominance of the East, London , 1968 .

13- Heaston, Herbert ., Economic History of Europe, New York , 1948 .

14- Heyd, W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, Tome , II, Tranlared by Furcy Ranud, Lepzig, 1923 .

15- Holmest , U.T., "Life Among The Europeans in Palestine and Syria in the twelfth theEuropeans in Palestine and Syria in the tewlfth and thirteenth Century" Cf, Setton (ed.), vol, IV, the University of Wisconis, 1977 .

16- Hously, N., The Italian Crusades, Oxford, 1982.

17- Larner , John, Italy in the Age of Dante and Petrach 1216-1280, New York, 1930 .

18- Lopez,R.S., and I.W., Raumond , Medieval Trade in the Mediterranean World , London , 1955 .

19- Lopez, R.S.,

- "The trade of Medieval Europe ", Cf, C.E.H., vol, II, Cambridge, 1952 .

- The Commercial Revolution of the Middl Ages 950-1350, Cambridge , 1976 .

- The Dollar of Middle Ages , London , 1978 .

20- Mayer, the Crusades., Trans. by J. Cillingham. Oxford, 1972 .

21- Mecalf (D.M.), Coinage if the Crusades and Latin East., London , 1983 .

22- Mundy, J.H., Europe in the HighMiddle Ages, 1150-1309 London , 1973 .

23- Painter , Sidney , A History of the Middle Ages, New York 1954 .

24- Pirenne, H., Medieval, Cities, Eng . Trans By F.D. halsey, Princeton, 1939 .

- History of Europe, London 1961 .

- Economic and Social History of Europe, Eng., Trans, By I.E. Clegg, London , 1973 .

25- Pounds, N.J.G., Economic History of Medieval Europe London, 1974 .

- The Latin Kingdom of Jerusalem, London , 1973 .

- "Crusader Cities" Cf. The Medieval City, edited, by Harry, A. Miskimin, David her-liny, A.L. Udovitch , London, 1977 .

- " Social Classes in the Crusader States" Minorities , Cf Setton, vol ., V, New Jersy, 1983, pp. 59-116 .

- "Social Classes in the Latin kingdom of Jerusalem" Franks Cf Setton, Vol ., V, pp. 117-162 .

27- Rey, E., Les Colonies Franques Du Syrie Aux XII ME Et XIII Siecles, Paris, 1883 .

28- Richard, Jean.,

- Croises. Missionnaire et Voyageurs Les Pers Pective Oriental Du Monde Latin Med-ieval, London , 1983 .

- "Agriculture Condition in the Crusader States" Cf, Setton, vol, V, pp. 253-94 .

- "The Political and Eclesiastical Organization of the Crusader States"., Cf Setton, vol, V, pp. 193-252 .

29- Richard, D.S., Islam and Trade Asia, Oxford, 1970 .

30- Robbert, L.B., "Venice and the Crusade, " Cf Setton, vol . V.

31- Runciman (S.) , A History of the Crusades, 3 vols, cambridge, 1954 .

32- Russel , J.C., "The Population of the Crusader States" : Cf . Setton, vol , V, pp. 295-314 .

33- Smail, R.C., The Crusaders in Syria and rhe Holy Land London, 1973 .

34- Smith . Riley, J.,

- The feudal Nobility , and latin Kingdom 11771277, London , 1973 .

- " Government in Latin Syria and the Commercial privileges Foreign Merchants" in the Relations Between East and West (ed. by D. Barker). Edinburg, 1973 .

35- Setton, K.M., (ed.) , A History of the wiscons in University Crusades, vol , V, 1985.

36- Stevenson, Medivol Institutions , New York , 1954 .

37- Thompson, J.W.,

- History of Middle Ages 300-1500 A.D.London , 1931 .

- Economic and Social History of Middle Ages, 2 vols, New York, 1959 .

38- Throndike, L., The History mediwval Europe, New York 1963 .

39- The Shorter cambridge Medieval History , vol., I (ed.) by C.W. Previte Orton, Cambridge, 1953 .

40- The cambridge Economic History of Europe, vol, II. (ed.) by Poston, Cambridge, 1952 .